لِسَانِيَّاتُ النَّصِّ

النَّظَرِيَّةُ وَالتَّطْبِيقُ

مَقَامَاتُ الهَمَذَانِيِّ أُنْمُوذَجًا

تأليف

لِيندة قِيَاس

أستاذة اللسانيات بالمركز الجامعي
سوق أهراس - الجزائر

تقديم الأستاذ الدكتور

عبد الوهاب شعلان

أستاذ النقد المعاصر
المركز الجامعي سوق أهراس - الجزائر

مكتبة الآداب المغربي

مكتبة الآداب
٨٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٢٦٨

Al-Adab
42 Opera Square - Cairo Tel:(202)3900268

سامراء

لسانيات النص

النظرية والتطبيق

مقامات الهمذاني أنموذجا

تأليف

ليندة قياس

أستاذ اللسانيات بالمركز الجامعي

سوق أهراس - الجزائر

تقديم

الأستاذ الدكتور

عبد الوهاب شعلان

أستاذ النقد المعاصر

المركز الجامعي سوق أهراس - الجزائر

Editions Al-Adab 1923

42 Opera square - Cairo – Egypt

الناشر

مكتبة الآداب

42 ميدان الأوبرا - القاهرة ت: 23900868

البريد الإلكتروني e.mail: adabook@hotmail.com

الناشر

مكتبة الآداب

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

الطبعة الأولى: 1430هـ - 2009م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

قياس، ليندة.

لسانيات النص النظرية والتطبيق مقامات الهمذاني أنموذجًا / تأليف: ليندة قياس؛ تقديم عبد الوهاب شعلان.- القاهرة: مكتبة الآداب ، 2009.

256 ص ؛ 24 سم.

تدمك 7 068 468 977 978

1 - المقامات العربية.

أ - بديع الزمان، أحمد ابن حسين بن الهمزاني ، 969 - 1008

ب - شعلان عبد الوهاب (مقدم).

814.02

عنوان الكتاب: لسانيات النص (النظرية والتطبيق)
مقامات الهمذاني أنموذجًا

اسم المؤلفة: ليندة قياس

تقديم: الأستاذ الدكتور عبد الوهاب شعلان

رقم الإيداع: 7384 لسنة 2009م

الترقيم الدولي: I.S.B.N.978 - 977 - 468 - 068 - 7

مكتبة الآداب
علي حسن
42 ميدان الأوبرا - القاهرة
هاتف 23900868 (202) -
e-mail: adabook@hotmail. com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾

صدق الله العظيم

[النمل: 19/27]

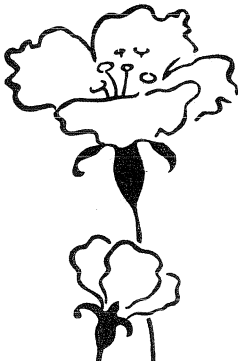

إهداء

إلى خالقي وبارئي

إلى والديَّ الكريمين

إلى زوجي الفاضل

إلى ابني تقي الدين ...

تقديم

النص التراثي وأدوات المنهج الغربي

الأسئلة والرهانات

بقلم: د. عبد الوهاب شعلان

لا تزال أسئلة التراث والغرب والمنهج وحدود المثاقفة من الأسئلة الكبرى في الثقافة العربية المعاصرة. بل لا يزال العقل العربي المعاصر – في تعاطيه مع إشكاليات الذات والآخر – يستعيد – وإن بأشكالٍ أخرى – كبرى الأطروحات الفكرية النهضوية التي عرفها القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ففي ظل معطيات مختلفة، وتحولات هامة مست بُنى الثقافة والمجتمع العربيين، ظلت محاور الفكر النهضوي سائدة في الخطاب العربي المعاصر. وهكذا أعيد صياغة قضايا الحقبة التنويرية (الدين والعلم، الإسلام والغرب، التمدن، العقل والنقل...) تبعًا لفتوحات المعرفة النظرية والمنهجية المعاصرة. لقد هيمنت أطروحة التراث والحداثة، ووجدت تجلياتها في أنساق وحقول المعرفة المختلفة، ومنها حقل الكتابة النقدية، حيث ظلت إشكالية العلاقة بين النص العربي والمنهج الغربي بنيةً مركزية في الخطاب النقدي المعاصر.

لماذا هذه العودة إلى مساءلة الفكر العربي وإشكالياته المركزية؟ إننا نعتبر هذه الدراسة: **«البنية النصية لمختارات من مقامات بديع الزمان الهمذاني»** للباحثة الواعدة ليندة قياس، وإن اقتفت مسارًا تحليليًا ينحو إلى الإجرائية وتطويع الأدوات النمهجية الغربية في مقاربة نصٍّ تراثي – فإنها لا تبرح – في آخر الأمر – هذا الهمَّ الفكري والنقدي القائم، ألا وهو العودة إلى التراث بعيون المنهج الغربي. هذه المحاولة إذن هي امتداد لمسار طويل من الكتابة النظرية والإسهامات التطبيقية التي سعت إلى إعادة التفكير في المسألة التراثية وما تطرحه من إشكاليات وأسئلة.

تعود الباحثة إلى نص المقامات – وهو من النصوص المحورية في التراث السردي العربي – وتروم محاورته من خلال فتوحات اللسانيات النصية المعاصرة وما قدَّمته الدراسات التداولية من إضافات، حيث طرحت إمكانية تجاوز أنظمة التحليل البنيوية – النسقية إلى محاولة الاهتمام بالأبعاد التواصلية للخطاب. وهكذا نحت الدراسة إلى امتحان النصوص المقامية في ضوء مقولات لسانيات النص وآليات النظرية التداولية، مستعيدةً – في كل ذلك بشكل صريح حينًا ومضمَر أحيانًا – السؤال المركزي الذي ظل طاغيًا في الخطاب النقدي العربي المعاصر: ما هي حدود التعاطي مع سيل المناهج والنظريات النقدية الغربية وإخضاع النصوص العربية – التراثية خصوصًا – إليها؟

وإذا كانت الدراسة قد وجدت ما يكفي من المسوِّغات النظرية والمنهجية لتحليل مقامات الهمذاني وفق إكراهات هذه الأدوات الجديدة، وعثرت على ما يبرر حضور مفاهيم: الاتساق والانسجام والتناص وأفعال الكلام ووظائف اللغة.. في المقامة، فإن ما تطرحه – بصورة مضمرة – هو رهانات هذاالامتحان وحدود تفعيله. وعلى الرغم من أهمية هذه الممارسة التحليلية من الناحية العلمية، فإننا نجد أنفسنا مجبرين على مساءلة هذا الضرب من التحليل المنهجي في الدراسات الأكاديمية العربية، وإعادة التفكير في أسسه ومنطلقاته ومسوغاته العلمية والمنهجية.

لا شك أن هذه الهموم التي تؤرق الباحث والناقد العربي إنما هي حصيلة أزمة ثقافية وحضارية شاملة، تتعلق بموقع الذات من مجرى التاريخ، وفاعليتها، وقدرتها على الإضافة للفكر الإنساني. إن قضايا المصطلح والمفهوم والأداة والمنهج على الرغم من وجهها الإجرائي وبُعدها الحيادي الظاهر، فإنها وثيقة الصلة بهذه الأزمة الشاملة، ومن ثم ينبغي قراءتها بهذه الرؤيا وبهذا الوعي التاريخي الذي يُنزل الإشكاليات والظواهر في سياقاتها ومحاضنها الطبيعية.

لقد حظيت المقامة – بوصفها نصًّا سرديًا تراثيًا – باهتمام كثير من النقاد المعاصرين، حاولوا مقاربتها انطلاقًا من مرجعيات تحليلية مختلفة، بيد أن الإضافات النقدية التي تبدو لنا

جديرة بالتذكير في هذا السياق هي إسهامات عبد الفتاح كيليطو وعبد الله إبراهيم، فعلى الرغم من تباين زاوية النظر، واختلاف الآلية المنهجية، فإن روح التأصيل وأرق الأسئلة وعمق التأويل هو ما يجمع بينهما، كل ذلك بعيدًا عن النزعة الإجرائية المتصلبة، وحشد المفاهيم والمصطلحات الجديدة التي غدت إحدى سمات الكتابات النقدية العربية المعاصرة.

لقد خضعت محاولة الباحثة لإكراهات ومتطلبات البحث الأكاديمي، فنحت إلى تحديد المفاهيم والمصطلحات، وسعت – بكثير من الاجتهاد – إلى إخضاع الخطاب السردي في المقامات لأسس اللسانيات النصية ومقولات التداولية المعاصرة، ومن ثم فإن الجهد لا يخلو من قيمة علمية، ولكننا نقدر أن هذه المقاربة قد اكتسبت أهميتها من هاجس استحضار أوجه جديدة ورؤيا مختلفة في قراءة هذا النص التراثي الذي ظل – زمنا طويلاً – سجين المنطلقات البلاغية التقليدية. نزعت الباحثة – إذن – إلى المراهنة على فاعلية النظريات الجديدة في محاورة مثل هذه النصوص، ربما ذلك ما يجعل من محاولتها بوابة الاندراج في سياق تيار نقدي رهانه الأساس هو هم السؤال وأرقه.

د. عبد الوهاب شعلان

سوق أهراس: مارس 2009

مقدمة

وقفت بعض البحوث اللسانية عند حدود الجملة، ونظرت إليها على أنها الوحدة الكبرى للتحليل، فتوسعت في دراسة مكوناتها، وتحليل القواعد التي تحكمها، إلا أن التطور الملحوظ في مجال البحث اللساني، أثبت محدودية هذا النوع من الدراسات، وأثبت قصوره في تحليل اللغة، فبدت ملامح علم جديد تلوح في الأفق، علم ينطلق من النص وينظر إليه على أنه وحدة كبرى، فعدّ التحليل النصي من صميم الدراسات اللسانية المعاصرة، وقد أخذ هذا المنحى الجديد على عاتقه الإجابة على مجموعة من التساؤلات أهمها:

- كيف تترابط أجزاء النص فيما بينها؟
- وبم تترابط؟ أبالوسائل الشكلية التي تظهر على مستوى البنية السطحية للنص structure surface du texte، أم بروابط معنوية تكشف عنها البنية العميقة structure profonde؟ وما سمات النصية؟ أو بالأحرى كيف نفرق بين النص وبين مجموعة من الجمل المتفرقة؟

يعمد بحثنا إلى الإجابة على هذه الإشكالات وعن أهم المفاهيم المتعلقة بالدراسات اللسانية النصية، ولأهمية هذا التوجه العلمي تبادرت إلى أذهاننا مجموعة من التساؤلات تخص غرض لسانيات النص، أهمها:

- كيف طبقت المقولات اللسانية على النصوص الأدبية التراثية؟
- ما مدى نجاح لسانيات النص في مقاربة هذه النصوص؟
- كيف يمكننا الوصول إلى جوهر هذه النصوص، ومعرفة مدى انسجامها وتماسكها؟
- وما هي الأبعاد الجمالية والدلالية في المدونة التي يمنحها التحليل النصي المعاصر؟

وبرؤية مزدوجة تجمع بين ما أبدعه رواد الفكر الغربي من نحو: " فان ديك Van Djik" وكريستيان بايلون " Christian Baylon " وروبرت دو بوجراند R. Debeaugrand وجون ميشال آدام J. M. Adam وما توصل إليه الباحثون العرب من نحو: صلاح فضل، ومحمد مفتاح، ومحمد خطابي، وسعيد حسن البحيري، وعبد المالك مرتاض، وغيرهم، نحاول

دراسة نصوص المقامات التي تبدو للوهلة الأولى نصوصًا سردية متجاورة لا رابط بينها، فانطلقنا للبرهنة على مدى تماسك الأجزاء المكونة للمقامة الواحدة، ثم مدى ترابط النصوص المقامية فيما بينها، حتى تبدو نسيجا متشابك الخيوط، ملتحم الأواصر.

وقد وقع اختيارنا على "مقامات بديع الزمان الهمذاني" التي بلغ عددها واحدا وخمسين مقامة، انتخبنا منها عشرين مقامة رأينا أنها كافية لموضوع بحثنا، إذ تندرج هذه النصوص المميزة ضمن مواضيع مختلفة: اجتماعية، دينية، أدبية، نقدية، وفلسفية، وترجع خصوصية هذه المقامات إلى الاستخدام اللغوي الذي يكشف عن شكل متميز من أشكال الإنتاج اللغوي في القرن الرابع الهجري، حيث ولع الأدباء في هذا العصر ولعًا شديدا بصنعتها اللفظية، فضلًا عن معالجتها موضوعات تعبر عن خصوصية البيئة العباسية.

من هذا المنطلق تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن السمات النصية في المقامات المختارة، ووسائل ترابطها، مع الأخذ في الاعتبار أن المدونة التي بين أيدينا تندرج ضمن النصوص العربية القديمة التي تتميز بطابع لغوي خاص كما أشرنا سابقا؛ مما سوف يسهم في الكشف عن وجود أدوات أخرى للتماسك النصي لم تشر إليها الدراسات اللسانية الحديثة. ومن المؤكد أن جهود اللغويين العرب القدامى قد أسهمت بشكل واضح في إظهار بعض هذه الأدوات، وسوف تتطلع هذه الدراسة إلى الاستفادة من هذه الجهود.

كما تسعى إلى تعميق الفهم العام للنصوص المقامية ليس باعتبارها نصوصا لغوية فحسب، ولكن باعتبارها مجالا خصبا للتفاعل بين منتج هذه النصوص ومتلقيها، وإبراز مدى تفاعلها مع السياقات الثقافية والاجتماعية التي أسهمت في إنتاجها، ومحاولة الوصول إلى بناها الصغرى micro-structures وبنيتها الكبرى macro-structure لتحديد جوانب من خصائصها.

ومن ثمة جاءت فكرة هذه المذكرة والموسومة بـ" **لسانيات النصّ: النظرية والتطبيق: مقامات الهمذاني أنموذجًا**".

قمت بتحليل بنية النصوص المختارة لمقامات الهمذاني باعتبارها حدثا اتصاليا في قسم تطبيقي مهدت له بمدخل وفصلين تطبيقيين، وقسم نظري، وذيلت كل ذلك بخاتمة لخصت فيها أهم النتائج المتوصل إليها.

تطرقت في **القسم الأول** إلى تحديد المصطلحات التي لها علاقة بموضوع الدراسة: النص، الخطاب، علم النص، الاتساق وأدواته، الانسجام وآلياته، أما من حيث المنهجية فقد تناولنا منطلقات هذا العلم وأهدافه ومجالات تطبيقه.

وخصصت **القسم الثاني** لمقاربة الظواهر اللسانية النصية التي تهدف الى معالجة ظواهر نصية في المقامات المختارة، بدأت في **المدخل** بترجمة لحياة "بديع الزمان الهمذاني" وقد عالجت ضمن ذلك مجموعة من التساؤلات تخص أصول بديع الزمان، هل هو عربي الأصل أم هل هو فارسي؟ وعدد المقامات، وغيرها من الجوانب التي تتعلق بشخصية هذا الأديب، ومثل هذا التقديم تقتضيه الدراسة اللسانية النصية التي تلح على متابعة الظروف المحيطة بالنص، ومنتجه ومتلقيه والسياقات التي أنتجته إلخ... بالإضافة الى التعريف بفن المقامة، وخصائصها الفنية.

ثم تعرضت في **الفصل الأول** الى ظاهرة الاتساق cohésion التي تتفرع إلى مستويين: مستوى الاتساق المعجمي، ومستوى الاتساق النحوي، وتناولنا آليات الانسجام cohérence التي تبرزها العلاقات بين الوحدات النصية (عموم/ خصوص، إجمال/ تفصيل) إضافة إلى التغريض في المدونة وموضوع الخطاب.

وفي **الفصل الثاني** انتقلت إلى مستوى آخر من مستويات التحليل اللساني، إنه المستوى التداولي الذي كشفنا من خلاله عن مختلف الإحالات المقامية للمدونة، وبحثنا عن علاقة النصوص المقامية بنصوص أخرى سابقة أو معاصرة لها من خلال ما يسمى بالتناص intertextualité.

ووفق منظور أوستين Ostin؛ قسمنا الأفعال الكلامية في المدونة إلى خمسة أصناف: الإشاريات، الحكميات، التعهديات، السلوكيات، الإيضاحيات، ثم عرجنا بعدها إلى تحديد وظائف اللغة في المقامات المختارة وفق الشبكة التواصلية التي قدرها رومان جاكبسون R. Jackobson.

وقد اعتمدت في بحثي هذا على ضوابط المنهج الوصفي في مقاربة لسانية نصية لما جمعته تلك النماذج القصصية المنتخبة من مظاهر لسانية متميزة وفاعلة، غايتها فيها الإبانة...

القسم الأول

مقاربة نظرية في المفاهيم والمنهجية

- تمهيد
- أولًا: تحديد المصطلحات :

1) مفهوم النص
2) مفهوم الخطاب
3) علاقة الخطاب بالنص
4) علم النص

- ثانيًا: جدوى لسانيات النص :

1) نظرة في الجذور التاريخية للعلم
2) التطور داخل مجال الدراسة
3) الإسهامات العربية في مجال لسانيات النص
4) أهمية الدراسة النصية
5) مجالات تطبيق لسانيات النص

تمهيد

يشكل المصطلح الركيزة الأساسية والفاعلة في تكوين المعرفة الإنسانية، ولعل ما يميز المعارف والعلوم عن بعضها البعض هو اختلاف مصطلحاتها، ذلك أن حقل المعرفة الذي يتشكل فيه المصطلح هو الذي يوجه مفهومه ويحدد دلالته، ولاشك في أن إنتاج مفاهيم جديدة، وتطوير دلالات مفاهيم قديمة، يتصل بتطور معرفي ذلك أن مفاتيح العلوم مصطلحاتها، التي تشكل ثمارها القصوى، فهي مجمع حقائقها المعرفية، وعنوان ما يتميزبه عما سواه، وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلوم غير ألفاظه الاصطلاحية[1].

ونظرا لما للمصطلح من خطر في حيازة العلم والتحكم في مقولاته إذا ما تحكم فيه، عدت مسائل التعريف والمفهوم والمصطلح أولى المنطلقات المنهجية في أي بناء معرفي، لكن يبقى التعامل مع هذه المنطلقات في حقل العلوم الإنسانية بصفة عامة وحقل اللسانيات بصفة خاصة أصعب مسلكا، وأقل حظا من الدقة لصعوبة التحديد الدقيق، والضبط الصارم للمصطلحات والمفاهيم.

ولا شك أن ثقافة أي أمة من الأمم، لا تنهض ولا يستقيم صرحها إلا إذا تمكنت من إنتاج معارف وعلوم شتى، توجهها اصطلاحات واضحة الدلالة.

في ضوء هذا الهدف، وسعيا وراء هذه الغاية، نسعى في هذا الفصل إلى النظر في الجذور اللغوية والاصطلاحية، لاثنين من أكثر المصطلحات النقدية ترددا في الممارسات الثقافية الحديثة بشتى ضروبها " النص والخطاب "، ونحاول تحديد طبيعة العلاقة التي تصل بينهما، بما يكشف المفاهيم الدقيقة لهما، كونهما أداتين مفهوميتين لإنتاج المعرفة، ثم نعرج بعد ذلك لنسلط الضوء على حقل معرفي جديد، وفرع من فروع اللسانيات ألا وهو " علم النص " الذي يعتبر ناتج طبيعي للتحول الذي حدث في الدرس اللساني الحديث، لنقدم لمحة تاريخية عن نشأته، وتطوره، وأهم الأهداف التي رصدها لنفسه، ومجالات تطبيقه.

---

(1) عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، عربي فرنسي فرنسي عربي مع مقدمة في علم المصطلح، الدار العربية للكتاب، تونس، د ط، د ت، ص 11.

أولا: تحديد المصطلحات:

1- مفهوم النص:

يشكل مصطلح النص أحد المفاهيم اللسانية والسيميائية الأساسية، وقد أنشئت حوله علوم عديدة مثل: نظرية النص، ولسانيات النص، والسيميائيات النصية، بل يعتبر مادة أساسية ومشتركة بين عدة علوم منها: علم الاجتماع، علم النفس،...

إلا أن هذه العلوم تختلف في تحليلها له وتوظيفه واستخلاص النتائج منه.

إن إنتاج النص وفهمه وتحليله ومعالجته آليا وغير ذلك من المسائل والإشكالات هو مما أصبح يشكل محط اهتمام كثير من الدارسين والباحثين المنتمين إلى مجالات معرفية متعددة مثل: اللسانيات والمنطق والرياضيات والإعلاميات وعلم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي والسيميائيات والتداولية الدينامية[1].

أصبح مصطلح " نص " في الثقافة العربية يستعمل بمعنى مختلف عما كان عليه في التراث العربي القديم.

(إن الاستعمالات القديمة لمفهوم النص في كتب البلاغة والنقد لم تكن تلجأ إليه، باعتباره مفهوما جامعا، وكانت تسمي كل تجلٍّ نصاً بحسب انتمائه إلى جنس أو نوع معينين[2]).

إذا كانت دلالة نص قد شهدت تطورا تاريخيا ملحوظا، فسنحاول تحديد دلالته في الأصول العربية أولا ثم نسلط عليه الضوء في الدرس اللساني المعاصر.

أ- النص في التراث العربي:

حظي نص القرآن الكريم بدراسة نصية تامة، وهي أولى مظاهر هذه الممارسة في تاريخ العرب؛ إذ لم يحظ نص من النصوص التراثية بعناية الباحثين والدارسين مثل ما حظي القرآن

---

(1) محمد مفتاح: النص: من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 03.

(2) سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص 115.

الكريم بذلك[1].

وقد أدرك الباقلاني (ت 403هـ) هذا الأمر في القرآن الكريم يقول: «إذا تأمله المتأمل، تبين -بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم- أنه خارج عن العادة، وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميّز حاصل في جميعه»[2].

وإذا ما بحثنا في تضاعيف المعجم العربي القديم، ألفينا مادة " ن، ص، ص " بعيدة عن الدلالة المستحدثة في الدراسات النقدية الحديثة، فقد ورد في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ) أن مادة نصص بمختلف اشتقاقاتها تحيل إلى معنى الرفع والظهور، ومنه نص الحديث ينصه نصا بمعنى رفعه، وكل ما أظهر فقد نَصَّ، ومثل ذلك قول عمرو بن دينار: «ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهري»[3]، فكلمة " نص " تحيل إلى معنى الرفع والإسناد.

ومنه نقول نصّت الظبية جيدها أي رفعته، ومعنى النص أيضا بلوغ أقصى الشيء وغايته، وتطلق هذه الكلمة أيضا على ضرب سريع من السّير، ومن الدلالات التي تنطوي عليها كلمة " النّص ":

- التوقيف والتعيين على شيء ما.
- بلوغ أقصى الشيء ومنتهاه.
- الوضوح والظهور (ومنه نص الحديث ونص السنة أي ما دل عليه ظاهر لفظهما من الأحكام).
- التحريك (نص الشيء حركه).
- النصنصة (تحرك البعير إذا نهض من الأرض)[4].

---

(1) عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي، منشورات دار اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، دط، 2006، ص 15.

(2) إعجاز القرآن، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، 2005، ص 86.

(3) لسان العرب، مج 14، ص 271 مادة (ن، ص، ص).

(4) المرجع نفسه، مج 14، ص ن.

نخلص مما سبق أن مادة " نصص " تحيل حسب الشاهد الذي أتينا على ذكره على معنى الظهور والتحريك، والرفع والإسناد.

ومن ثم فإن دلالتها اللغوية المباشرة، هي التي غذت دلالتها الاصطلاحية في حقل الأصول[1]، فصار مفهوم " النص " يحيل على ما لا يحتمل إلا دلالة واحدة، وبمعنى آخر ما لا يحتمل التأويل[2].

إذا كانت مادة " النص " في حقل الأصول تشير إلى " المعنى الواحد " ودلالته اللغوية تشير إلى معنى " الظهور "، فالذي لا يحتمل إلا معنى واحدا أي لا يحتمل التأويل لابد أن يتصف بالظهور، والوضوح، وهذا يؤكد عمق الصلة بين دلالته اللغوية والاصطلاحية.

فالنص من منظور علماء الأصول هو ما لا يتطرق له أي احتمال أو تأويل أي أنه يحمل دلالة واضحة ومحددة. وكل هذه الصفات والخصائص تدفع عنه اللبس والغموض.

كما وظف في بيئة النحويين من مثل ما نجده عند ابن جني (ت 392هـ): «... اعلم أن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص...»[3] حيث استعمله بصيغة اسم المفعول، واستعمل ابن هشام (ت 762هـ) مصطلح نص بصيغة الفعل، يقول: «... نص على ذلك سيبويه...»[4].

يتضح من الشاهد السابق أن دلالة مصطلح نص في تراثنا النحوي قد ارتبطت بالفعل ولم تتمخض للاسمية كما هو شأنها اليوم.

تكشف وقفتنا على دلالة مصطلح " نص " في التراث العربي أن معناه بقي محصورا على

---

(1) عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 110.

(2) الشريف الجرجاني: التعريفات، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 237.

(3) الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط3، 1986، ج1، ص 190.

(4) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 2003، ج1، ص 98.

الكتاب والسنة، بالإضافة إلى دلالات أخرى يحددها السياق منها الرفع والظهور والتحريك... وعلى الرغم من كثرة استخدام كلمة " نص " في كتابات السلف الأصولية والفقهية إلا انه لم يعثر على تعريف لهذا المصطلح[1].

ب- مفهوم النص بين التراث العربي والتراث الغربي:

يشير الأصل اللاتيني لكلمة " Text "، " Texte " المشتقين من " Textus " إلى النسج " Tissu " المشتقة بدورها من " Texere " بمعنى نسيج[2].

فالأصل اللاتيتي يحيل على " النسيج " ودلالة هذه المادة تحيل على شدة التنظيم وبراعة الصنع.

أو أنه يوحي بالجهد والقصد، ولعله يوحي أيضا بالكمال والاستواء، بينما يدل الأصل في اللغة العربية على الاستواء والكمال، وعلى النسيج أيضا، على الرغم من أن ابن منظور في مادة " نصص " لم يشر إلى ذلك[3].

فإذا لم يرد في لسان العرب ما يشير إلى أن النص يحمل معنى النسيج والجهد، إلا أننا إذا عدنا إلى المعاجم العربية وبحثنا في مادة " ن، س، ج " نجد ما يحيل على ذلك.

يرى ابن منظور أن مصطلح النسج يعني ضم الشيء إلى الشيء، هذا هو الأصل، نسجه ينسجه نسجا فانتسج ونسجت الريح التراب تنسجه نسجا: سحبت بعضه إلى بعض، والريح تنسج الماء إذا ضربت متنه فانتسجت له طرائق كالحبك، ومن هذا المنطلق يمكن القول نسج الحائك الثوب ينسجه وينسجه نسجا، من ذلك لأنه ضم السدى إلى اللحمة، ونسج الكذاب الزور: لفقه، ونسج الشاعر الشعر: نظمه، و إذا كان الشاعر ينسج الشعر،

---

(1) عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، ص 17.

(2) Le Petit larousse 2003: Les mots de la Langue, les noms propres, les cahiers thématiques inédits la chronologie, larousse 2003, P 105 et voir aussi: PATRIQUE CHARAUDEAU et DOMINIQUE Mainguaeneau: dictionnaire d'analyse du discours, édition du seuil, Paris, Février, 2002, PP 570, 571.

(3) عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، ص 18.

فإن الكذاب ينسج الزور[1].

نخلص من مقارنة أصل الاشتقاقين في اللغتين العربية واللاتينية، إلى أنهما يؤديان معنى بلوغ الغاية والاكتمال وجودة الصنع، وشدة التنظيم.

إن مصطلح النص بمعناه العربي –هنا– لا يختلف كثيرا عن الدلالات التي تنطوي عليها مادة " Text " التي تحمل معنى البناء والنسج والسياق، وهي دلالات حركية ديناميكية، لا تنفي الدلالة التوقيفية للشيء ولذلك حينما نقول نص القرآن أو نصت السنة أي قالت بظاهر العبارة، وحينما نقول نص القانون فيعني ذلك جمله وفقراته البينة وحينما نقول النص الأدبي، فيعني ذلك كل ما هو ثابت بعد قوله التلفظ به أو تدوينه...[2].

ونلمح توظيفا لهذه الدلالة في تعريف رولان بارت " R. Barthes " لنظرية النص، حيث أشار إلى أن كلمة Texte (نص) تعني النسيج، وهذا النسيج هو عبارة عن نتاج وستار جاهز يختفي وراءه المعنى، ويركز بارث في تعريفه للنص على الفكرة التوليدية التي ترى أن النص يصنع ذاته ويعتمل ما في ذاته عبر تشابك دائم، تنفك الذات وسط هذا النسيج الضائعة فيه، كأنها عنكبوت تذوب هي ذاتها في الإفرازات المشيدة لنسيجها، ومن هذا المنطلق يمكن تعريف نظرية النص بأنها علم نسيج العنكبوت[3].

فالنص حسب بارت نسيج عنكبوت لبراعة نسجه وتماسكه، بحيث يتعلق بعضه ببعض، ويلتقي أول خيط نسج به بآخره، وهنا تبرز خاصية أساسية وجوهرية للنص، وهي ترابط وتشابك مكوناته على نحو يشكل وحدته الكلية.

لقد أصبح مصطلح " النص " من المفاهيم الجديدة حيث صار يستعمل بمعنى مختلفا عما كان عليه في العصور السابقة، إن دلالته في التراث تقف على النقيض من تعريف البنيوية له، التي تنظر إليه على أنه بنية منغلقة تنطوي على معنى ثابت ومحدد والذي لا تبرز فيه فاعلية

---

(1) لسان العرب، مج14، ص 242، 243 مادة (ن.س.ج).

(2) مدحت الجيار: علم النص دراسة جمالية نقدية، كلية الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص 102.

(3) لذة النص، ترجمة فؤاد الصفا وحسين سبحان، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988، ص 62، 63.

التناص[1].

فالنص من وجهة نظر البنيويين بنية مغلقة ومنتهية، إنه جسد ميت لا حراك له، ويكون القارئ بذلك متلقيا سلبيا.

ويرى محمد مفتاح أنه في العصر الحديث تم توظيف مصطلح" النص" في الدراسات الأدبية العربية بناء على ما يجري استعماله في الجامعات الغربية، وهو يختلف كل الاختلاف عما تقدمه التصورات العربية القديمة المتعددة [2].

يشير الباحث نفسه إلى أن مصطلح " نص " في اللغة العربية وبالتحديد –في العصر الحديث– قد شحن بدلالات غربية غير التي أنتجتها الثقافة العربية في الماضي وذلك بتأثير مباشر من الثقافة الغربية، بحجة تحديث المصطلح.

لهذه الدواعي العلمية والمنهجية ارتأينا أن نسلط الضوء على " مفهوم النص " في الثقافة اللسانية المعاصرة.

ج- النص في الدرس اللساني:

يجمع كثير من النقاد والدارسين على أن البحث عن تعريف لمفهوم النص أمر صعب لتعدد معايير هذا التعريف، ومداخله، ومنطلقاته، ومضامينه، وخلفياته المعرفية.

وإذا كان النص أثرا للغة وشكلا من أشكالها المرتبط ببعض استخدامات الكلام، فينبغي بذلك أن يكون مفهومه الأساسي أنه وسيلة لنقل الأفكار بين المتخاطبين، فالهدف من دراسة النص بوصفه مظهرا من مظاهر استعمالات اللغة هو تحسين الاتصال بين البشر، لأن «المبرر الأكبر للدراسات اللغوية هو تحسين الاتصال»[3].

شغل " تعريف النص " مساحة كبيرة من اهتمام علماء لغة النص، وعلى الرغم من التعدد والتباين في المدارس اللسانية التي ينتمون إليها، والمذاهب الفلسفية والفكرية التي ينطلقون منها، إلا أن هناك قاسما مشتركا بين جلّ هذه التعريفات، وهو التأكيد على خاصية

---

(1) عمر عبد الواحد: التعلق النصي، دار الهدى للنشر، المنيا، مصر، ط1، 2003، ص 39.

(2) المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 30.

(3) مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، المجلس الوطني الكويتي، الكويت، 1995، ص 241.

ترابط النص وضرورة النظر إليه على أنه وحدة كلية مترابطة الأجزاء وليس سلسلة من التتابعات الجملية، من هذا المنطلق رفض جون ليونز John Lions الإجابة عن ماهية النص، والتي ترى أن النص عبارة عن ترابط مستمر من الجمل. رفض جون ليونز تلك الإجابة قائلا بأن هذا التحديد غير مقنع، إذا كانت هذه الجمل المشار إليها هي الجمل التي يتكون منها النص فهذه سمة تميز النصوص (الشكلية) ذات الصبغة الكلية، إلا أن هذا لا ينفي حسب رأيه وجود نصوص مستعملة في التواصل تتكون من جمل مختلطة أو مزيج من الجمل -شظايا الجمل- تعبيرات جاهزة[1].

ويرى جون ليونز أن تعريف النص بعيد كل البعد عن أن يكون مجرد تتابع لبعض الجمل، لا رابط بينها.

ومن ثم -كما يقول- ليونز فإن النص بكليته لابد أن ينطوي على مجموعة مميزة من الخصائص التي تفضي إلى التماسك والانسجام[2].

ويرى هارفج R. Harweg أن النص «ترابط مستمر للاستبدالات السنتجميمية التي تظهر الترابط النحوي في النص»[3].

وفي هذا السياق يرى فاينرش H. Weinrich بأن النص عبارة عن بنية ترتبط أجزاؤها بعضها ببعض؛ إذ تستلزم وحداتها اللغوية بعضها البعض لفهم الدلالة الكلية[4].

فالنص حسب " فاينريش " وحدة كلية مترابطة الأجزاء متلاحمة العناصر، إن تشابك هذا النسيج اللغوي داخل الوحدة الكلية للنص يفضي إلى فهمه فهما معقولا.

ويقرر هاليداي Haliday / ورقية حسن R. Hassen أنه إذا كانت الجملة وحدة أساسية في الدرس النحوي، فإن النص ليس بنية نحوية أكثر حجما من الجملة، أو مجرد سلسلة من

---

(1) أحمد عفيفي: نحو النص، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص 23.

(2) المرجع نفسه، ص 23.

(3) سعيد حسن البحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1997، ص 108. وانظر عمر عبد الواحد: التعلق النصي، ص 10.

(4) المرجع نفسه، ص 108.

الجمل أو جملة كبرى، وإنما هو بنية من نمط مختلف، إنه يشكل وحدة دلالية Unité Sémantique الوحدة التي لها معنى Sens في سياق Contexte[1].

ومن أمثلة تحديدات النص المتعلقة بالتواصل ندرج تعريف شميت S. J. Schmidt فقد حدّه بأنه كل تشكيلة لغوية منطوقة من حدث اتصالي في إطار عملية اتصالية، محدد من جهة المضمون، ويؤدي وظيفة اتصالية يمكن إيضاحها، أي يحقق إمكانية قدرة إنجاز واضحة وجلية[2].

ويؤكد الباحث على السمة التواصلية الإبلاغية للنص، كما يشترط أن تكون له وحدة موضوع، ووحدة مقصد.

والتأكيد على الوظيفة التواصلية للنص من القضايا المنطقية، وذلك لأن التواصل هو خاصية تشترك فيها جميع اللغات، ويستلزم التواصل وجود مرسل ومستقبل، ولا تعد اللغة الوسيلة الوحيدة للاتصال بين بني البشر[3].

إن المتأمل في التعريفات السابقة، يجد أن لهذه التعريفات إما خاصية متعلقة بوحدة النص وترابطه (جون ليونز، هارفج وفاينريش)، وإما بدلالة النص (هاليداي ورقية حسن)، وإما ببراغماتية النص (شميت)، فكل تعريف من هذه التعريفات يركز على جانب ويسقط من حسابه جوانب أخرى.

وفي هذا السياق حاولت المقاربة اللسانية الفرنسية إرساء أسس نظرية نصية متكاملة للمشروع اللساني النصي، فقد قرر جون ميشال آدام (J. M. Adam) في كتابه المهم عن اللسانيات النصية كون النص إنتاجا متماسكا، مترابطا ومتلاحما، وليس رصفا عشوائيا للمفردات والجمل وأشباه الجمل وأفعال الكلام[4].

---

(1) جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1998، ص 68.

(2) سعيد حسن البحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص 81.

(3) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، ط2، نوفمبر، 1979، ص31.

(4) J. M. Adam: Eléments de linguistique textuelle, mardaga leige, Paris, 1990, P 112.
"" Le texte est un produit connexe, cohésif, cohérent et non pas une=

ويمكننا أن نضيف إلى ملامح النص ما أطلق عليه روبرت دي بوجراند Robert de Beaugrand وفلجانج دريسلر Wolfgang Dressler المعايير النصية السبعة[1] والتي بدونها لا يكون النص نصا وهي السبك والالتحام والقصد ورعاية الموقف والقبول والتناص والإعلام[2].

أ- السبك Cohésion: ونعني به الكيفية التي يتم بها ربط العناصر اللغوية على مستوى البنية السطحية بحيث يؤدي السابق منها إلى اللاحق.

ب- الالتحام Cohérence: ونقصد بها الطريقة التي تتم بها ربط التراكيب على مستوى البنية العميقة للنص، التي ربما لا تظهر على مستوى السطح.

ج- القصد Intention: ويعني أن النص حدث لغوي مخطط له، وليس رصفا اعتباطيا للجمل والكلمات إنه بنية لغوية يقصد بها أن تكون متسقة ومنسجمة، لتحقيق غرض منشئها.

د- القبول[3] Acceptabilité: ويتضمن موقف المرسل إليه أو متلقي النص، إزاء كون صورة ما من صور اللغة، ينبغي لها أن تكون مستحسنة، من حيث هو نص متسق ومنسجم.

هـ رعاية الموقف Situation: ويسمى كذلك السياق أو المقام، وينقسم إلى سياق لغوي وسياق غير لغوي، وهذا الأخير يحيل إلى خارج النص ويشمل السياق الثقافي والديني والاجتماعي، والتي أسهمت كلها في تكوين النص.

و- التناص Intertextualité: ويتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى سابقة أو معاصرة له، بحيث يصبح النص بنية مقتطعة من بنيات أخرى.

=juxtaposition aléatoire des mots, phrases, propositions, ou actes de parole "".

(1) اعتمدنا ترجمة تمام حسان لهذه المعايير وإن كنا عالجنا مشكلة مصطلحي السبك والحبك وقد فضلنا بدلهما مصطلحي الاتساق والانسجام.

(2) النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص 103، 104.

(3) يقابل مصطلح القبول بالاستحسان، انظر بشير إبرير: من لسانيات الجملة إلى علم النص، مجلة التواصل، جامعة عنابة، الجزائر، 2005، ع 14، ص 90.

ي- الإعلامية أو الإخبارية Informativité: أن كل نص من النصوص يجب أن يتضمن قدرا من المعلومات، وتختلف طبيعة هذه المعلومات باختلاف نوع النص.

كما وردت تعريفات متعددة تبعا لذلك في الثقافة اللسانية العربية المعاصرة تعكس مصادر متعددة للتلقي العربي المنهجي عن الآخر، لعل أهمها: تعريف محمد مفتاح للنص بأنه: مدونة كلامية وأنه حدث يقع في زمان ومكان معينين يهدف إلى توصيل معلومات ومعارف ونقل التجارب إلى المتلقي...[1].

والنص عند عبد المالك مرتاض شبكة من المقولات اللسانية والبنيوية والإيديولوجية تتحد فيما بينها لتشكل خطابا، فإذا اكتمل نسجه أثر تأثيرا عجيبا، من أجل إنتاج نصوص أخرى، فمقروئية النص تضفي على النص التجددية والتعددية ويصبح النص قابلا للعطاء والتجدد بتعدد تعرضه للقراءة[2].

وفي منظور الأزهر الزناد النص علامة كبيرة ذات وجهين: وجه الدال ووجه المدلول، ويتوفر في مصطلح نص في العربية، وفي مقابله في اللغات الأجنبية Texte بمعنى النسيج، فالنص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في آن واحد، هو ما نطلق عليه اليوم مصطلح النص[3].

وتوسع مريم فرنسيس مفهوم النص لتجعله يشمل كل إبداع أو نشاط لغوي يمارسه الإنسان سواء كان علميا أم فنيا، مكتوبا أم مقروءا، فالنص من وجهة نظرها لا ينحصر في مجال معرفي معين إنما يشمل جميع الميادين المعرفية، وإن كانت النصوص تختلف فيما بينها من حيث نوعية الإبداع ومستوى هذه النوعية[4].

تبرز كثير من التعريفات المتعلقة بالنص -المشار إليها سابقا- خصيصة ترابط وحداته،

---

(1) تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 1992، ص 120.

(2) دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي "، لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1992، ص 57.

(3) نسيج النص: (ما يكون به الملفوظ نصا)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 12.

(4) بناء النص ودلالته (محاور الإحالة الكلامية)، منشورات دار الثقافة، دمشق، سوريا، ط1، 1989، ص03.

إذ تستلزم عناصره بعضها البعض لفهم الكل، كما يؤدي إسقاط عنصر من عناصره إلى عدم تحقق الفهم، ومن هنا يتأكد دور الربط في النص من خلال المعايير السبعة التي ذكرها كل من دي بوغراند وزميله دريسلر لتحقيق ما يطلق عليه بالنصية Textualité فقد جعلا الاتساق Cohésion المبدأ الأول؛ ويمثل الربط النحوي الذي يعني بكيفية ربط العناصر اللغوية التي تظهر على مستوى سطح النص، والإنسجام Cohérence المبدأ الثاني؛ ويعبران به عن الترابط المنطقي للبنية العميقة للنص.

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن هذين المعيارين تربطهما صلة وثيقة بالنص، كما يشكلان معا الركيزة الأساسية للتحليل النصي المعاصر، وسنحاول في هذا الجزء من الدراسة التعريف بهما وبأشهر أدواتهما وبإشكالية ترجمتهما.

تتمثل معايير النصية في: الاتساق والانسجام والقبول ورعاية الموقف والتناص والإعلامية.

يقدم دي بوغراند وزميله دريسلر معياري الاتساق والانسجام عن خمسة معايير محققة للنصية، ولعل يكون لهذا التقديم مبرراته العلمية، وهذا ما نحاول الإجابة عنه لاحقا.

وحظي هذان المعياران بنصيب وافر من اهتمام اللسانيين، إذ شكلا مجالا واسعا في البحث، حيث أفردت لهما مؤلفات كاملة، حتى إننا لا نكاد نجد مؤلفا ينتمي إلى تحليل الخطاب، أو علم النص أو لسانيات الخطاب/ النص يخلو من هذين المعيارين، وفي هذا السياق يرى بعض الدارسين أن مبدأي الاتساق والانسجام من الصفات التي يشترك فيها نحو الجملة ونحو النص[1].

كما يتصلان بالنص اتصالا وثيقا يقول دي بوغراند[2]: «ومن هذه المعايير السبعة معياران تبدو لهما صلة وثيقة بالنص (الاتساق والانسجام)».

بالإضافة إلى السياق المقامي التواصلي والإعلامية والتناص، وهذا ماتقتضيه النظرة الشمولية للنص التي خرجت عن بوتقة المعيارية لنحو الجملة، لتفتح المجال واسعا في

---

(1) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 90.

(2) النص والخطاب والإجراء، ص 106.

البحث عن التماسك النصي، والعلاقات القائمة بين البنى الصغرى والكبرى.

وتتعامل المقاربة اللسانية مع النص على أنه بنية كلية مترابطة الأجزاء ومن هذا المنطلق رفض نحاة النص الفصل بين مستوياته اللغوية المختلفة، وأجزائه المشكلة له.

إن التأكيد على صفة ترابط النص وتتابعه وتلاحم أجزائه، من أهم ملامح نحو النص Grammaire du texte الذي أفرز في مرحلة نضجه واكتماله منظومة اصطلاحية منها ما يعرف بالاتساق والانسجام.

ولقد اختلف الدارسون العرب في ترجمة هذين المصطلحين إلى حد التخبط والاضطراب في حدودهما. وسنحاول من خلال الجدول التالي سرد هذين المصطلحين بلغاتهما الأجنبية، وما يقابلهما بالعربية عند من استطعنا الاطلاع عليه من باحثين.

المصطلح الأجنبي		الترجمة العربية	الباحث	الكتاب
إنجليزي	فرنسي			
Cohésion	Cohérence	السبك	تمام حسان	النص والخطاب والإجراء
			جميل عبد المجيد	البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية
			سعد مصلوح	نحو أجرومية للنص الشعري
		الاتساق	محمد خطابي	لسانيات النص
		التضام	إلهام أبو غزالة وعلي خليل الحمد	مدخل إلى علم لغة النص
Cohésion	Cohérence	الحبك	سعد مصلوح	نحو أجرومية للنص الشعري
			جميل عبد المجيد	البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية
		الانسجام	محمد خطابي	لسانيات النص
			محمد مفتاح	دينامية النص
		الالتحام	تمام حسان	النص والخطاب والإجراء
		التقارن	إلهام أبو غزالة وعلي خليل الحمد	مدخل إلى علم لغة النص

انطلاقا من الجدول نحاول اختيار المقابل العربي الأنسب وفق ثلاثة معايير رئيسية.

- معايير لغوية: ونعني بها الكلمة وصيغتها.
- معايير علمية: مدى استيعاب الكلمة وعدم تداخلها مع أي مصطلح آخر.
- معايير تداولية: مدى استعمال المصطلح وشيوعه.

ج-1- الاتساق Cohésion:

وقع اختيارنا لمصطلح الاتساق بدل السبك والتضام والتناسق والترابط الرصفي رغم أن جميع هذه المقابلات تحمل معنى التماسك[1] إلا أنها لا تعبر عن المفهوم المراد تعبيرا دقيقا.

فالسبك مصطلح تراثي يحمل معنى الترابط الشكلي، إلا أنه شاع أكثر في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، يقول الجاحظ: «وأجودُ الشّعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء، سهلَ المخارج، فتعلمُ بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدًا وسبك سبكاً واحدًا، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدِّهان»[2].

إن استعمال العرب القدامى لهذا المصطلح يختلف نوعا ما عن استعمال اللسانيين الغربيين له، ولذلك لا يجبذ تداوله في الدرس اللساني المعاصر، حتى لا تختلط المفاهيم القديمة بالحديثة، وحتى يبقى لكل علم خصوصياته ومنظومته الاصطلاحية التي تميزه عن الحقول المعرفية الأخرى.

أما مصطلح " التضام " و" التناسق " فغير متداولين أكثر في أوساط اللسانيين و"الترابط الرصفي " مصطلح مركب يستحسن الابتعاد عنه، فيكون المصطلح الأنسب هو مصطلح الاتساق وقد اعتمدناه بناء على ترجمة محمد خطابي حيث تبدو هذه الترجمة في نظره أقرب إلى المفهوم المراد وأكثر شيوعا في الدرس اللساني الحديث.

يتأسس مفهوم الاتساق على الترابط الشكلي للنص، أو ما يجعل سطح النص Surface du texte مترابطا ترابطا يفضي أوله إلى آخره.

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، مج 06، ص 162، مادة (ر، ص، ف)، ومج 07، ص116، مادة (س، ب، ك)، ومج 09، ص 63، مادة (ض، م، م)، ومج 15، ص 213، مادة (و، س، ق).

(2) البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص67.

يعني مصطلح سطح النص أو ظاهر النص، العناصر اللغوية التي نتلفظ بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، والتي نكتبها أو نراها بما هي سلسلة من الملفوظات المنتظمة على صفحة الورق، وهذه العناصر أو الأجزاء ينتظم بعضها مع بعض تبعا للقواعد النحوية، ولكنها لا تشكل نصا إلا إذا توفر لها من أدوات الاتساق ما يجعل النص محتفظا بكينونته واستمراريته[1].

ويحيل مصطلح الاتساق إلى العلاقات أو الأدوات التي تسهم في الربط بين أجزاء النص الداخلية من ناحية وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى، ومن بين أدوات الترابط النصي: الإحالة، الاستبدال، الحذف، الوصل والفصل، أما عن الاتساق المعجمي فيتحقق عبر ظاهرتين لغويتين: التكرار والمطابقة.

وسنتعرض في هذا الجزء من الدراسة للتفصيل في هذه الأدوات.

1/ الإحالة Référence:

تبرز الإحالة في النص من خلال الوسائل النحوية التالية: الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وأدوات المقارنة مثل التشبيه وكلمات المقارنة مثل: أكثر وأقل...

وتنقسم إلى نوعين رئيسين: الإحالة المقامية والإحالة النصية وتتفرع الثانية إلى: إحالة قبلية، وتعني إحالة إلى عنصر سابق وإحالة بعدية تعني إحالة إلى عنصر لاحق، وهذه الأنواع موضحة من خلال هذا المخطط (1):

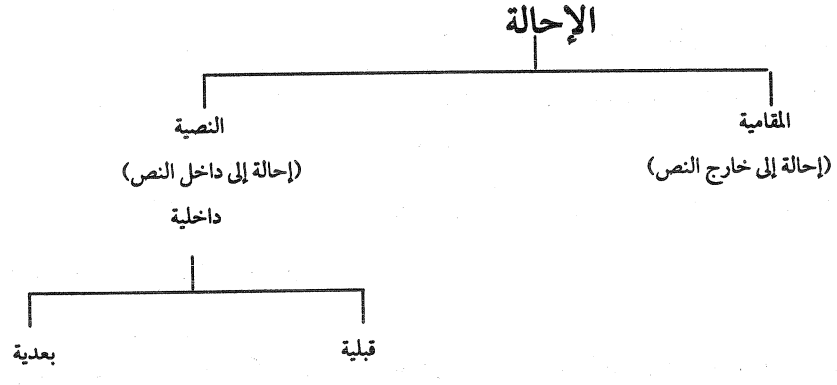

(1) محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006، ص 17.

2/ الاستبدال Substitution:

«عملية تتم داخل النص، إنه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر»[1]. يسهم الاستبدال في الترابط النصي ويشمل المستوى النحوي والمعجمي بين مفردات أو عبارات، ويفرق نحاة النص بين ثلاثة أنواع للاستبدال هي كالآتي[2]:

- استبدال اسمي Substitution nominale: من خلال استخدام عناصر لغوية اسمية (آخر، آخرون، نفس).
- استبدال فعلي Substitution verbale: من خلال استخدام الفعل (يفعل).
- استبدال قولي Substitution clausule: ويتم باستخدام (ذلك، لا).

3/ الحذف Elimination:

يتم الحذف عندما تكون هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدل عليه، تترك هذه الوسيلة الاتساقية مساحة للقارئ ليمارس فعل القراءة، فيعمل على استحضار العناصر المحذوفة في ذهنه حتى يصل بها البنية السطحية للنص، التي تبدو للوهلة الأولى بنية متقطعة وغير مستمرة؛ أي أنه بحث عن العنصر اللغوي المفترض.

والحذف عند هاليداي ورقية حسن أنواع نوضحها من خلال هذا المخطط[3]:

- الحذف الاسمي: حذف اسم داخل المركب الاسمي.
- الحذف الفعلي: حذف داخل المركب الفعلي.
- الحذف داخل شبه الجملة.

4/ الوصل والفصل Conjonction / Disjonction:

يشير الوصل إلى إمكان اجتماع العناصر والصور وتعلق بعضها ببعض[4] إنه يعمل على

---

(1) المرجع نفسه، ص 19.

(2) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 123، 124.

(3) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 22. وللاستزادة انظر إلهام أبو غزالة وعلي خليل الحمد: مدخل إلى علم لغة النص، ص 101.

(4) روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص 346.

ربط سابق بلاحق وأشهر أدوات الوصل أو الربط حروف العطف وصور هذا الربط هي[1]:

*- مطلق الجمع Conjunction: يربط بين صورتين أو أكثر متحدتين من حيث البنية، (ويمكن استخدام الواو بالإضافة إلى، علاوة على هذا).

*- التخيير Disjonction: يربط بين صورتين تكون متماثلتين من حيث المحتوى[2] ويقع الاختيار على محتوى واحد وأداة الاختيار (أو).

*- الاستدراك Contrajunction: ويضم صورتين من صور المعلومات بينهما علاقة تعارض (يمكن استخدام لكن، بل، مع ذلك).

*- التفريع Subordination: ويشير هذا النوع من الوصل إلى العلاقة بين صورتين بينهما حالة تدرج وتحقق أحدهما يتوقف على حدوث الأخرى ويستخدم لذلك (لأن، مادام، من حيث، ولهذا،...).

يشكل وجود هذه الأنواع ربط أول خيط للنص بآخره، مما يؤدي إلى تماسك نسيجه وتلاحم أجزائه.

أما الفصل Disjonction فيسهم في تماسك أجزاء النص باعتباره نوع من أنواع الربط، إلا أنه لا يعتمد على روابط شكلية تتجلى في البنية السطحية، بل يقوم على علاقة خفية قائمة بين جمل النص.

ومن وسائل الاتساق المعجمي نذكر:

5/ التكرار Récurrence:

ويقصد به إعادة عنصر من العناصر المعجمية المشكلة للنص، ويقدم التكرار عادة للتوكيد والإيضاح.

والتكرار عند هاليداي ورقية حسن سلم مركب من أربع درجات وهو ما يمكن توضيحه في المخطط التالي[3]:

---

(1) المرجع نفسه، ص 346، 347.

(2) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 129.

(3) انظر جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص 80. وللاستزادة انظر أحمد =

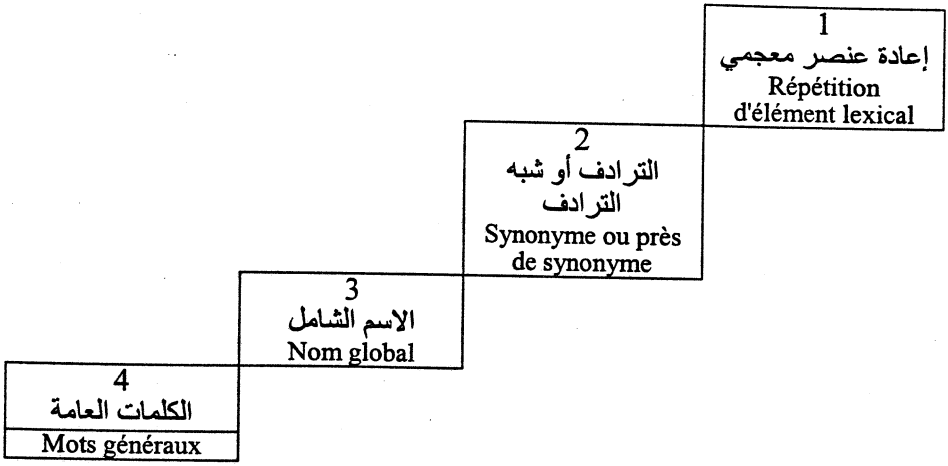

6/ التضام Collocation:

يعد التضام من أدوات الاتساق المعجمي ويتمثل في «توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظرا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك»(1).

يبرز التضام في شكل علاقات متنوعة نذكر منها:

*- التضاد الحاد: ويمكن التمثيل له بالعناصر المعجمية: ميت/ حي، أعزب/ متزوج، ذكر/ أنثى.

*- التنافر: ويكون مرتبط بالرتبة أو الزمن أو الألوان مثل: أحمر، أخضر، أصفر.

*- علاقة الكل بالجزء: مثل علاقة اليد بالجسم، وعلاقة العجلة بالسيارة(2).

ج-2- الانسجام Cohérence:

وقع اختيار كثير من الدارسين لمصطلح الانسجام بدل " الحبك " وهو مصطلح تراثي، و" التقارن والالتحام " وهما مصطلحان غير شائعين، و" الترابط المفهومي " الذي هو أقرب للتعريف منه للمصطلح، بالإضافة إلى أنه مصطلح مركب، وبذلك فالأقرب للشيوع

= عفيفي: نحو النص، ص 106.

(1) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 25.

(2) فايز الداية: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية تأصيلية نقدية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1996، ص 89، 90.

والتداول هو مصطلح الانسجام.

وتحليل الانسجام من منظور فان ديك يحتاج إلى «تحديد نوع الدلالة التي ستمكننا من ذلك، وهي دلالة نسبية، أي أننا لا نؤول الجمل أو القضايا بمعزل عن الجمل والقضايا السابقة عليها»[1].

ذكر دي بوجراند وسائل انسجام النص وهي كالتالي:

- العناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص.
- معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف.
- السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية ويتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم[2].

يشكل مصطلح الانسجام والاتساق زوجا واحدا، فلا يمكن دراسة أحدهما بمعزل عن الآخر، لارتباطهما الوثيق بالنص، ومن ثمة لا يتصور إقامة تفرقة بينهما أثناء التحليل النصي.

يدرس الانسجام مدى تماسك وترابط البنية الكلية المشكلة للنص، ويبحث الاتساق عن وسائل الترابط الشكلي للأجزاء المكونة له، فالبحث في هاتين القضيتين يعد من صميم النظرية النصية؛ إذ أنه لا يتصور فصل بين المستويات اللغوية بما فيها النحوية والدلالية والتداولية، ذلك أن تفاعل تلك المستويات يفضي إلى قراءة واضحة إلى عالم النص، وهذا ما يرمي إليه التحليل اللساني المعاصر.

تدور في فلك النص مجموعة من المسائل والقضايا نجملها في:

*** مسألة طول النص وقصره:**

لم يعد مهما لدى اللسانيين والسيميائيين أن يكون النص مقيدا بطول محدد، إنما اشترطوا اكتمال دلالته باعتباره " وحدة إيديولوجية Ideologeme "[3] على حد تعبير جوليا كريستيفا.

---

(1) انظر محمد خطابي: لسانيات النص، ص 34.

(2) روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص 103.

(3) جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي ومراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار =

يعلن فان ديك رفضه فكرة تقيد النص بطول معين إذ يرى أن النص يمكن أن يركب من جملة واحدة، أو من كلمة واحدة، كما يمكن أن يكون عملا روائيا طويلا أو حكاية نصا واحدا[1].

ويرى اللغوي " هيلمسليف Hjelmslev " أن العلامة اللغوية لا تتحدد أبعادها بمنظور مناسب، فيمكن اعتبار كلمة واحدة مثل " نار " نصا في مقابل عمل روائي ضخم[2].

إن هذه الآراء تؤكد أن أبعاد النص المتعلقة بطوله أو بقصره لا تشغل بال علماء لسانيات النص، إذا كان هذا النص مكتملا ومستقلا ويحقق مقصدية قائله.

*** مسألة انغلاقية النص:**

لا تعني انغلاقية النص عدم قبوله للتأويلات المختلفة، وإنما يعني ذلك الانغلاق الشكلي الذي يكون محددا ببداية واضحة، ونهاية واضحة.

أما البنية الدلالية فتوصف بأنها بنية منفتحة على نصوص متعددة سابقة عليها من خلال ما يسمى بالتناص، أو التفاعل النصي[3].

فللنص بنيتان ↔ بنية مغلقة تمثل شكل النص (له بداية ونهاية)

فللنص بنيتان ↔ بنية منفتحة تمثل مضمون النص (التناص أو التفاعل النصي)

*** بنيوية النص:**

تبرز الخاصية البنيوية للنص بعد اكتمال دلالته وترابط أجزائه، فالنص ليس مجرد متوالية من العلامات تقع بين حدين فاصلين بل يعد المستوى المتراكب أفقيا موحد ولازم لبروز البنية كشرط أساسي لتكوين النص[4].

ويشتمل النص على بنية كبرى Macro-Structure ذات وحدة كلية شاملة وأبنية صغرى

= البيضاء، المغرب، ط2، 1997، ص 21.

(1) عمر عبد الواحد: التعلق النصي، ص 12، 13.

(2) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 232.

(3) عمر عبد الواحد: التعلق النصي، ص 13، 14

(4) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 234.

Micro-Structures وتطلق على هذه الأخيرة أبنية المتتاليات والأجزاء للتمييز بينها وبين الأبنية النصية الصغرى[1].

*** كتابية النص:**

ترتبط خاصية الكتابة بالنص ارتباطا وثيقا من وجهة نظر معظم المشتغلين بدراسة النص، إن الكتابة تضفي على النص الاستمرار والحفظ والاكتمال.

يقول بول ريكور: «تطلق كلمة نص على كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة»[2].

يؤكد بارت على هذه الخاصية فيشير إلى أن النص ما هو إلا عبارة عن جسم مدرك بالحاسة البصرية، وهو يرتبط بالكتابة أي برسم الحروف ولو أنه يبقى تخطيطا فهو إيحاء بالكلام وبتشابك النسيج (ومن ثم عُدّ " النسيج " من اشتقاقات مصطلح " النص ")[3].

فكتابة النص تضمن استقرار النص واستمراره، كما تعمل على تصحيح ضعف الذاكرة وعدم دقتها.

ويرتبط مصطلح نص في الدرس اللساني الحديث بمصطلح آخر في الاستعمال والتداول، هو مصطلح الخطاب فما حده؟ وما هي علاقته بالنص؟

2- مفهوم الخطاب:

إن العناية بالخطاب ومحاولة ضبط مفهومه، ظاهرة حديثة نسبيا، فقد أصبح تعريفه من الأمور المستعصية، نظرا للتحولات السريعة، والتطورات المدهشة التي حصلت في الدرس اللساني.

اختلط مفهوم الخطاب والتبس بغيره من المصطلحات، وبخاصة مصطلح النص، لأنه ظل يلازمه في المعنى، ويرادفه في الاستعمال، فقد يسمع الواحد منا مصطلح النص والخطاب فيظن أن النص هو الخطاب، وأن الخطاب هو النص، فتختلط عليه المفاهيم والتصورات، كما

---

(1) المرجع نفسه، ص 255.

(2) عمر عبد الواحد: التعلق النصي، ص 15، 19.

(3) بارت رولان: نظرية النص، ترجمة محمد خير البقاعي ضمن كتاب آفاق التناصية – المفهوم والمنظور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1998، ص 30.

أن توظيفه في البحوث النقدية عرف ارتباكا كبيرا، بسبب (تداخل المصطلحات فيما بينها) وعدم الضبط المنهجي في استعمال المصطلحات.

انطلاقا من هذا الإشكال المعرفي، نحاول النظر في الأصول العربية للخطاب، ثم نعرج بعد ذلك لنسلط الضوء على مفهومه في الدرس اللساني الحديث. لنتطرق بعدها إلى أنواعه بإيجاز، والعلاقة التي تصله بالنص.

أ- الخطاب في التراث العربي:

لإدراك مدلول مصطلح " الخطاب " في التراث العربي، لابد من الرجوع إلى نص القرآن الكريم، وأشهر المعاجم العربية (لسان العرب لابن منظور) ثم إلى كتب اللغة والفكر والأدب.

ترددت مادة (خ، ط، ب) في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، موزعة على اثنتي عشرة سورة[1]، وقد وردت بصيغة الفعل والمصدر في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[3].

يفسر الزمخشري (538-1134) فصل الخطاب بأنه الكلام الواضح والبين الذي لا يلتبس على من يُخاطَبُ به[4].

---

(1) وردت صيغ لمادة " خ، ط، ب " في القرآن الكريم هذه بعض الآيات التي تضمنتها هي:

خاطبهم: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (الفرقان: 25/ 63).

تخاطبني: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ هود: 11/ 37).

خطبك: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾ (طه: 20/ 95).

الخطاب: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (ص: 38/ 20).

خطابا: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ (النبأ: 78/ 37).

(2) الفرقان: 25/ 63.

(3) ص: 38/ 20.

(4) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق محمد مرسي =

ففصل الخطاب تعني في أول ما ذكر الكلام البين الواضح، الدال على المقصود بلا التباس أو غموض.

وقد ورد في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ) في مادة " خ، ط، ب " أن: الخطاب والمخاطبة تعنيان مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان والمخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن، والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر، واختطب يخطب خطابه: واسم الكلام من خطب الخطبة. وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب تعني الكلام المنثور والمسجوع، ومن ثمة عدت الخطبة مثل الرسالة، التي لها أول وآخر(1).

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أنها تعني الحكمة، وهي التبصر في الأمور، وسداد الرأي، وتعني أيضا الفقه في القضاء ومن ذلك ظهور الحجة على المدعي ووجوب القسم على المنكر(2).

يحيل هذا الشاهد على أن هناك تلازما دلاليا بين مفهوم " الخطاب " و" الكلام " في التراث العربي.

وأدرك التهانوي (ت 1158هـ) صلب المعضلة الاصطلاحية لهذا المفهوم، وقام بتهذيبه من كل الشوائب التي علقت به، بفعل عوامل التاريخ والاختصام والاجتهاد(3).

فأشار إلى أن الخطاب هو «... اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه، فاحترز باللفظ عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، وبالمتواضع عليه عن الأقوال المهملة، وبالمقصود به الإفهام عن كلام ما لم يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى

= عامر، دار المصحف، القاهرة، مصر، ط2، 1977، ج5، ص 134. وانظر الموقع الالكتروني: http: //www.al-eman.com/IslamLib/

(1) لسان العرب، مج 5، ص 98، مادة " خ، ط، ب ".

(2) أبو بكر جابر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص 440.

(3) عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص 111.

خطابا.»[1].

نفهم من الكلام السابق أن التهانوي قد أخرج من حيز الخطاب الحركات والإشارات والأقوال المهملة (أي الأقوال التي لا يقصد بها إفهام المستمع)، ومن ثم يتبلور مفهوم الخطاب عنده على أنه سلسلة منطقية لمتواليات كلامية ذات نسق تركيبي متواضع عليه.

إن ربط التهانوي الخطاب بالكلام شأنه في ذلك شأن من سبقه في حقل علم الأصول واللغة، وهو بذلك قد دلل على الأصول الشفاهية للمصطلح، فدلالته لم تقترن بعلامة مكتوبة. إنما تتصل بالمستوى الشفاهي، وهذا يكشف هيمنة العلامة السمعية، وعلو شأنها في الثقافة العربية الموروثة، على حساب العلامة المرئية، وبخاصة أن دلالة المصطلح قد اتصلت بمفهوم كلام الله الذي عد خطابا متعاليا[2].

نخلص مما سبق إلى أن مادة (خ، ط، ب) في القرآن، وفي المعجم العربي، وفي كتب اللغة، وفي حقل الأصول تحيل على الكلام الواضح، البين، المقصود به إفهام السامع، وقد أولى العرب القدامى اهتماما متزايدا بكل ما يتعلق بعملية التخاطب لأن استعمال الكلام يستوجب وجود قطبين (عنصرين) لا يكون الحديث إلا بهما وهما: المُخاطِب الذي يؤلف الرسالة حسب رغباته وأهوائه باعتبار أن الكلام نتاج فردي يصدر عن وعي وإرادة المتكلم، والمُخاطَب الذي يقوم بفك شفرات هذه المرسلة لفهمها مع مراعاة مقتضى الحال، وأحوال السامع.

ب- مفهوم الخطاب في الدرس اللساني:

درج اللسانيون منذ دو سوسير " De Sausure " على تقديم مجموعة من التعريفات للخطاب، وهذه التحديدات على تراكمها تطرح اليوم صعوبة في إحصائها، والربط بينها، نظرا لتعدد الخلفيات المنهجية، وتنوع الرؤى النقدية التي ينطلق منها أصحابها.

تعود جذور الخطاب في الدرس اللساني إلى فرديناد دو سوسير الذي يعتبر أب اللسانيات الحديثة بلا منازع، حيث ميز بدقة بين اللغة والكلام.

---

(1) كشاف اصطلاحات الفنون، وضع حواشيه أحمد حسن بسج، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، فصل الباء الموحدة، مج2، ص 05، 06.

(2) عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص 102.

اتخذ سوسير اللغة موضوعا للدرس اللساني، وأخرج الكلام من دائرة الدراسة.

فما حد اللغة والكلام من منظور سوسير؟

- **اللغة Language**: إن اللغة ليست سوى جزء جوهري محدد من اللسان، إنها كنز يدخره الأفراد، الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة، وهي منظومة نحوية موجودة في دماغ كل فرد بالقوة[1].
- **الكلام Parole**: أما الكلام فهو عمل فردي يخضع للإرادة والعقل، ومن المناسب أن نميّز فيه:

* الأنساق التي يستخدم الفرد الناطق من خلالها رمز اللغة للتعبير عن فكرة الشخص.
* الآلية النفسية – الفيزيائية التي تساعده على تجسيد هذه الأنساق[2].

فاللغة من منظور دو سوسير خاصية إنسانية، إنها ملك للبشر، وهي قانون منظم لعملية الكلام، فهي كنز أو ذخيرة موجودة بالقوة في دماغ الإنسان، أما الكلام فهو نتاج فردي، واعي، يصدر عن إرادة وحرية الفرد الناطق للتعبير عن فكره الشخصي.

إن ما أقصاه دو سوسير من مجال الدراسة، صار محط اهتمام واجتهاد كثير من الدارسين واستبدلوا الكلام (Parole) بالخطاب (Discours)، النص (Texte)، الأداء (Performance)، الرسالة (Message) والجدول التالي يوضح ذلك[3]:

Discours الخطاب	Langue اللغة	G. Guome غوستاف غيوم
Texte النص	Système النسق	Yelmeslev هيلمسليف
Performance الأداء	Compétence التمكن	Chomsky تشومسكي
Message الرسالة	Code القانون	R. Jacobson جاكبسون

(1) FERDINAND De Saussure: Cours de linguistique générale, édition Talantikit, Bejaia, 2002, P21.

(2) Ibid, P 20.

وللاستزادة انظر أوزالد ديكرو وجان ماري سشايفر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2007، ص 264، 265.

(3) نواري سعودي أبو زيد: الخطاب الأدبي من النشأة إلى التلقي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص 11.

هنا نجد أنفسنا أمام اصطلاحات عديدة لمدلول واحد هو " الخطاب "[1]، الذي عد من وجهة نظر بعض اللسانيين بديلا لـ: النص، الأداء، الرسالة.

يعني الخطاب إجمالا مجموعة من التراكيب المكتوبة أو المنطوقة التي تمثل في نظر المنشئ سلسلة تلفظية متجانسة ومؤثرة، وهو في اعتبار لسانيات الجملة نتيجة لعملية تسلسل منطقي لمتواليات كلامية مؤتلفة في النسق التركيبي، أما في لسانيات الخطاب فهو كلية دلالية لا تشكل الجمل ضمنها إلا أجزاء الملفوظ، وهذا التصور لا يتعامل مع اللغة باعتبارها نسقا مؤتلفا من العلامات (Les signes) أو إنما باعتبارها أداة تواصل كذلك[2].

إن التأكيد على الخاصية الاتصالية للخطاب يفترض الاهتمام ببعض مكونات نظرية الاتصال (كالمرسل والمرسل إليه) باعتبارهما قطبي الحديث، بالإضافة إلى المرسلة (الرسالة) والسياق... إلخ، وهذا ما يسمى " بالتواصل الخارجي "[3] أو التواصل بين الأشخاص.

ويميز رومان جاكبسون نوعا آخر من التواصل وهو التواصل الداخلي أو تواصل الشخص مع نفسه، حيث يمثل لذلك من خلال الشبكة التواصلية التي تضم المرسل والمرسل إليه الذين تتشكل بينهما علاقات متنوعة، منها تواصل الشخص مع نفسه، أو التواصل بين الأشخاص[4].

وكما سبق الإشارة إلى أن لسانيات الخطاب تدرس الخطاب باعتباره وحدة كلية دلالية،

---

(1) من الدارسين من يقابل هذه المصطلحات، اللغة، النسق، التمكن، القانون، الأداء، الرسالة بمصطلحات أخرى مثلا عند هيلمسلاف (الجهاز، النص) وعند تشومسكي (الطاقة، الإنجاز) وعند جاكبسون (السنن، الرسالة) وعند غوستاف غيوم (اللغة، الخطاب). للاستزادة انظر رابح بوحوش: الأسلوبيات وتحليل الخطاب، جامعة باجي مختار، عنابة، د ط، د ت، ص 73.

(2) محمد خرماش: المرجعية الاجتماعية في تكوين الخطاب الأدبي، حوليات الجامعة التونسية، تونس، 1995، ع 38، ص 85.

(3) انظر نعمان بوقرة: المصطلح اللساني النصي، دراسة سياقية تأصيلية، عدد خاص بأعمال ملتقى اللغة العربية والمصطلح، منشورات جامعة عنابة، الجزائر، 2002، ص 235.

(4) الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة علي الحاج صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002، ص 57.

ولا تمثل الجملة سوى وحدة صغرى للخطاب، أو جزء من الملفوظ هدفه توصيل رسالة من مرسل إلى متلق ليفك شفرتها في إطار سياق معين، ويكون هدف الأول التأثير على الثاني بطريقة ما.

وفيما يلي نستعرض أهم تعريفات الخطاب:

- يعرف بنفنيست E. Benvenist الخطاب بأنه عبارة عن ملفوظ ينظر إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل، وهو كل تلفظ يفترض مرسلا ومستقبلا للمرسلة اللغوية، ويفترض عند الباث قصد التأثير على الملتقي بكيفية ما[1].

إن دراسة آلية التخاطب (Enonciation) مرتبطة في اللسانيات الفرنسية باسم إميل بنفينست الذي استطاع أن يجمع بين معطيات لسانيات متفرقة وبين مفاهيم لغوية عربية ليبلور نظريته في هذا المضمار، فهو يرى أن اللغة بوصفها نظاما مجردا أو طاقة مخزونة في ذهن الإنسان، لا تتحول إلى كلام حقيقي أو إلى نص أو خطاب إلا بواسطة عملية القول ذاتها. وهذه العملية هي فريدة وفردية في كل الظروف والحالات[2].

تمثل اللغة من منظور بنفنيست طاقة مجردة كامنة في ذهن الفرد بالقوة، وهذه الطاقة لا تتحول إلى كلام حقيقي إلا بواسطة عملية القول، وهذه إشارة واضحة وصريحة إلى تركيزه على الجانب الشفاهي للغة، أو ما يسمى بعملية التخاطب أو الكلام الذي كان محط اهتمام كثير من الدارسين الذين قلبوا تصور دو سوسير من خلال تجاوزهم ثنائيته المشهورة (اللغة والكلام) والتي أقصت الكلام من مجال الدراسة.

نستشف من هذا التعريف مفهوما للتلفظ (Enonciation) ويعني به الاستعمال الفردي للغة الذي يمثل الفعل الحيوي في إنتاج نص ما، كمقابل للملفوظ (Enoncé) باعتباره الموضوع اللغوي المنجز والمنغلق والمستقل عن الذات التي أنجزته ويرى بنفينست أن التلفظ

---

(1) E. Benvenist: Problèmes de linguistique générale, Gallimard, 1966, P 242.

(2) مريم فرنسيس: في بناء النص ودلالته، ص 18، 19.

هو موضوع الدراسة وليس الملفوظ[1].

إن جعل التلفظ موضوع الدراسة يحيل إلى الأصل الذي ينحدر منه الخطاب وهو الكلام بوصفه، مظهرا لفظيا خاصا بالفرد، يهدف من خلاله إيصال رسالة للتأثير في المتلقي، وبمعنى آخر يحدد بنفنيست الخطاب بمعناه الأكثر اتساعا بأنه كل تلفظ يفترض وجود باث ومتلق هدف الأول التأثير على الثاني بكيفية ما وهذا كما أشرنا سابقا.

انطلاقا من تعريف بنفنيست للخطاب الذي ينظر إليه على أنه بنية كلية دلالية، تتجاوز حدود الجملة إلى وحدة أوسع يمثلها الخطاب، فإن عملية تحليله تتجاوز بنيته اللغوية الصرفة إلى النظر في كل ما يحيط به، من ظروف تتعلق بإنتاجه وتلقيه، وبعبارة أخرى يجب دراسة كل السياقات الخارجة عن بنيته اللغوية الصرفة.

- ويعرفه هاريس Haris بأنه عبارة عن ملفوظ طويل أو سلسلة من الجمل[2].
- ويعرفه جان كارون بأنه سلسلة من الملفوظات المنسجمة[3].
- ويعرفه بيير زيما بأنه عبارة عن بنية لغوية، تنبثق من لغة جماعية[4].
- ويعرفه هارتمان وستورك بأنه: محكوم بوحدة كلية واضحة، متكون من صيغ تعبيرية متوالية، تصدر عن متحدث يبلغ رسالة ما[5].

إن المتأمل في التعريفات السابقة، يجد أن هناك خصائص مشتركة بينها، حيث تتفق هذه التعريفات على أن الخطاب متتالية من الجمل، أو وحدة لغوية أكبر من الجملة، تخضع لنسق مخصوص من التأليف.

أما ليتش Litch وزميله شورت Chort فيقران أن الخطاب وحدة تواصلية لسانية، يفترض وجود متكلم ومستمع لحظة إنتاجه، أي أنه فاعلية تواصلية هدف تحقيق غاية اجتماعية[6].

---

(1) سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005، ص 19.
(2) المرجع نفسه، ص 17.
(3) سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص 24.
(4) عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص 108.
(5) المرجع نفسه، ص ن.
(6) نعمان بوقرة: المصطلح اللساني النصي، دراسة سياقية تأصيلية، ص 235.

فالخطاب من منظور ليتش وزميله شورت وحدة لغوية وفاعلية تواصلية تستلزم قطبي إرسال واستقبال المرسلة وهما (مرسل ومرسل إليه). وهذه المرسلة تكون خاضعة إلى نظام مشترك بين طرفي التواصل ليتمكن كل منهما من فهم الطرف الآخر وإفهامه.

وفي هذا السياق لا يفوتنا أن ننوه بجهود كثير من اللسانيين الغربيين، الذين حاولوا إنشاء مقاربة أكثر وضوحا وتنظيما للدراسة اللسانية للخطاب، ونذكر على رأس هؤلاء " نون فان دايك ".

ونذكر من الجهود العربية في هذا المجال محمد خطابي الذي حاول من خلال كتابه " لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب " أن يصنع تصورا شاملا لما يسمى بـ: لسانيات الخطاب والنص[1].

ومما يجدر الإشارة إليه أن مفهوم الخطاب قد اتسعت دلالته فلم يعد ينظر إليه على أنه ملفوظ أكبر من الجملة، أو متتالية من الجمل كما درج اللسانيون على ذلك، وإنما أصبح يشمل جميع المظاهر والأشكال التعبيرية (اللفظية، الإيمائية، الصورية، الكتابية،...) كما اتسع مجال البحث والنظر في مستوياته، وأجناسه، وأنواعه، ومن هذه الأنواع نذكر:

الخطاب المباشر أو غير المباشر والصريح أو الضمني، والخطاب بضمير المتكلم أو الغائب، والخطاب السياسي، أو العلمي، أو الأدبي[2].

ونضيف إلى هذه الأنواع التي ذكرها بنفنيست الخطاب الديني، والخطاب الفكري الإيديولوجي وغيرها، ولا يكون التمييز بينها إلا بالاحتكام إلى عملية الاتصال ومختلف الأطراف المشاركة في العملية التواصلية[3].

---

(1) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 235.

(2) Benvenist: Problèmes de linguistique générale, P 242.

وانظر محمد خرماش: المرجعية الاجتماعية في تكوين الخطاب الأدبي، ص 87.

(3) نواري أبو زيد: الخطاب الأدبي من النشأة إلى التلقي، ص 11.

3- علاقة الخطاب بالنص[1]:

يلاحظ الدارسون أن هناك تداخلا بين مصطلحين " الخطاب " و" النص ".

فما طبيعة العلاقة التي تصل بينهما؟ وأيهما أشمل؟ وما موقف اللغويين من ذلك؟

للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها لابد من عرض آراء بعض المختصين في هذا المجال:

يفرق " دو بوجراند " تفريقا واضحا بين مفهوم " النص " ومفهوم " الخطاب " ذلك أنه بينما يرى أن السمة التي تميز النص هي استعماله في التواصل وأن الخطاب عبارة عن مجموعة من النصوص تربطها علاقة مشتركة أي أنه متتالية مترابطة من مظاهر الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق[2].

وإن كان الكثيرون قد يختلفون مع دو بوجراند في مثل هذا التعريف إلا أن هناك من يؤيد هذا الطرح مثل محمد مفتاح[3]. ونجد فريقا آخر من اللغويين يرون أن النص أعم من الخطاب وأشمل منه، وممن ينتصر لهذا التصور سعيد يقطين الذي يرى ضرورة الاعتناء بالنص باعتباره عنصرا مؤولا للدلالة، ويمثل أساس الاهتمام بجوانب أخرى تتعدى الراوي إلى الكاتب، والمروي له إلى القارئ، والبنيات السردية إلى الدلالية، وصيغ الخطاب إلى بنيات النص، ويعد انفتاح النص أساس ذلك التمييز كونه سمح بالحديث عن التناص من خلال التمييز بين البنيات النصية عبر تعريف أوسع للنص، لأنه أشمل من الخطاب [4].

أما من كان يعتبر النص والخطاب شيئا واحدا، فقد ذكر سعيد يقطين أن أغلب البنيويين، وخاصة جرار جنيت لايضعون حدودا فارقة بين الخطاب والنص وينظر دارسوالسرديات إليهما على أنهما شيئا واحدا، كونهم يركزون على " البعد النحوي " أو ما يحدد " سردية " العمل السردي ولم يولوا اهتماما بالبعد الدلالي[5].

---

(1) يفرق بشير إبرير تفريقا واضحا بين مفهوم النص والخطاب، انظر مقاله " من لسانيات الجملة إلى علم النص "، مجلة التواصل، ع 14، ص 93.

(2) النص والخطاب والإجراء، مقدمة المترجم.

(3) انظر سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 116.

(4) المرجع نفسه، ص 117.

(5) المرجع نفسه، ص ن.

ومن الذين ساروا في هذا الاتجاه، وسلكوا هذا المنحى الفكري " مايكل ستابس M. Stubbs " الذي عامل النص والخطاب كمعان مترادفة لا أكثر ولا أقل، ولكنه لاحظ أنه في الاستخدامات الأخرى، فإن النص يكون مكتوبا، بينما الخطاب يكون مقروءا، النص من المحتمل أن يكون غير فعال، بينما يكون الخطاب فعالا، النص يكون قصيرا أو طويلا بينما الخطاب له طول محدد، النص يجب أن يحتوي على التماسك السطحي بينما الخطاب يجب أن يحتوي على تماسك جذري[1].

إن هذا الاضطراب والتداخل في توظيف المصطلح وفي تحديد مفهومه، يرجع أساسا إلى اختلاف المنطلقات الفكرية والفلسفية للدارسين.

حسم جون ميشال آدام (Adam J. M.) الإشكالية المتعلقة بالعلاقة التي تربط النص بالخطاب، إذ يرى أن الخطاب وحدة لغوية أشمل من النص وفق هذه المعادلة[2]:

الخطاب = النص + شروط الإنتاج.

النص = الخطاب – شروط الإنتاج.

فالخطاب منطوق أو فعل كلامي يستلزم إنتاجه تهيئة جملة من الظروف الداخلية أو الخارجية، كما يفترض وجود مرسل و(متلق للرسالة). هدف الأول التأثير على الثاني بطريقة ما. وبالمقابل يتعلق النص بما هو مكتوب لكن هذه التفرقة لم تعد قائمة في مجال التحليل اللساني النصي. وبات ينظر إلى النص على أنه الخطاب، فهو متصل به ومتلاحم معه، ذلك أن النص «لا يستطيع أن يتواجد إلا عبر الخطاب»[3].

---

(1) عصام خلف كامل: مفهوم الخطاب في الدراسات الأدبية واللغوية المعاصرة، دار فرحة للنشر والتوزيع، المينا، مصر، ط1، 2003، ص 11.

(2) J. M. Adam: Linguistique textuelle des genres des discours aux textes, éditions Nathan, Paris, 1999, P 39.
Discours = texte + conditions de production
Texte = discours – condition de production

(3) رولان بارت: نظرية النص، ترجمة محمد خير البقاعي، ص 44.

«فالعلاقة بينهما أشبه بعلاقة " الكلام " بـ " اللغة " في اللسانيات»[1].

إن إدخال مفاهيم ومصطلحات جديدة غير الجملة -في البحث اللغوي- مثل: الملفوظ Énoncé، التلفظ Enonciation، الخطاب Discours، والنص Texte.

تدل هذه المصطلحات على توسع مجال الدراسة من جهة، وعلى قيام حقل معرفي جديد متداخل الاختصاصات من جهة أخرى، ويسمى هذا الناشئ الجديد " علم النص " Science du texte.

4- علم النص Science du texte:

تشكل النصوص (وسياقاتها) موضوع دراسة وتعليم في أكثر من علم. فمنذ القدم اهتم علم البلاغة وعلم التفسير بالنصوص وأبنيتها الخاصة ووظائفها الجمالية والإقناعية، كما يحدث ذلك في العصر الحديث في نظرية الأدب وعلم الأسلوب.

ونجد الاهتمامات نفسها في مجالات وتخصصات أخرى مثل علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا وعلم النفس واللاهوت، وفي العلوم القانونية والتاريخية، إلا أن اتجاهات البحث في هذا الموضوع اتخذت أشكالا عدة، وذلك تبعا للأسس والمقولات والأدوات والمناهج التي ترتكز عليها هذه المجالات المعرفية[2].

وقد عرف منذ زمن أبعد كثيرا، وبخاصة في الدراسات اللغوية، مصطلحي " تحليل النص " و" تفسير النص "، حيث كانت العناية مع ذلك في الغالب موجهة إلى الوصف المادي للنصوص الأدبية بوجه خاص[3].

لقد شغل تحليل النص وتأويله حيزا كبيرا من الكد المنهجي المعاصر، وأصبحت مشكلات التحليل النصي، التي كانت موزعة على معارف وتخصصات علمية مختلفة

---

(1) عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص 15.

(2) نون فان دايك: علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق سعيد حسن البحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص 13.

(3) المرجع نفسه، ص 14.

موضوعا معرفيا لدراسة متكاملة جديدة، وصفت بأنها " عبر تخصصية Interdisciplinaire "[1] إنها " علم النص ".

تنحصر وظيفة علم النص في وصف الجوانب المختلفة لأشكال الاستعمال اللغوي، وأشكال الاتصال وتوضيحها، كما تحلل في العلوم المختلفة في ترابطها الداخلي والخارجي[2].

فالنص باعتباره شكلا من أشكال الاستعمال اللغوي وبوصفه أيضا وسيلة من وسائل الاتصال بين البشر، فإن مهمته بناء على ذلك تتمثل أساسا في دراسة العلاقة الداخلية والخارجية للأبنية النصية. وكذا حصر كل المظاهر اللغوية وغير اللغوية المحيطة به.

وقد استقر هذا المفهوم الحديث لعلم النص في عقد السبعينات من هذا القرن، ويسمى بالفرنسية " Science du Texte "، وبالإنجليزية "Discours Analysis " ولا يخرج الأمر عن هاتين التسميتين في بقية اللغات الإنسانية، مما يجعل مقابلته بمصطلح " علم النص " في العربية أمرا مستساغا[3].

ويستعين هذا العلم المركب في دراسته للنصوص بآليات وتقنيات علوم مختلفة، والإفادة من نتائج البحوث التقنية والتجريبية فمكتشفات هذه العلوم تحاول فرض نفسها على علم النص.

إن سقوط الحواجز بين العلوم الإنسانية وسقوط المسافات الزمنية بين العلوم القديمة والحديثة كلها تعطي للعلم القادم مقومات ظهوره واستقلاله، بل علاقاته المتماسكة أو المتداخلة وهذا ما يجعل مصطلح علم النص أشمل وأكثر عمقا في الدلالة على آفاق جديدة[4].

ورغم تداخل هذا العلم مع العلوم الأخرى، ومحاولته الإفادة من نتائجها إلا أن مهمته لاتتجلى في حل المشكلات المتصلة بالعلوم الاجتماعية والفلسفية وغيرها...، ولكن بأشكال

---

(1) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 247.

(2) نون أفان دايك: علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ص 11.

(3) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 248.

(4) مدحت الجيار: علم النص، دراسة جمالية نقدية، ص 178.

منعزلة عن المظاهر المحددة لهاته العلوم، التي تتصل بالأبنية المرتبطة بأشكالها التواصلية، وتحليلها وفق إطار تكاملي أين يتم تحليل الخواص العامة للنصوص التي تتوفر لقيام أي نص لغوي بوظيفته كنص[1].

تعني الخواص العامة التي يجب أن تتوفر في أي نص لغوي، تلك التي تتعلق بالأبنية النحوية والدلالية والهيكلية والأسلوبية وعلاقاتها المتبادلة فيما بينها، وكذلك العناية بالناحية الوظيفية للنص والمتمثلة في قراءته وفهمه لإعادة إنتاجه في إطار مرحلة التلقي.

ومن الصعوبات التي تواجه هذا الحقل المعرفي الجديد تعدد وجهات نظر الدارسين حول مفاهيمه وتصوراته ومناهجه. إن هذا الاضطراب ناجم عن تشعبه وتداخله مع اختصاصات كثيرة، بالإضافة إلى تعدد المشارب الفكرية، واختلاف المنطلقات الفكرية والفلسفية للمختصين فيه.

يشير سعيد حسن البحيري في مقدمة كتابه " علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات " إلى جملة هذه الصعوبات، وتتمثل تحديدا في تشعب هذا العلم إلى حد بعيد، إذ أنه لا يوجد اتفاق بين الباحثين، حول مفاهيمه وتصوراته ومناهجه إلا بقدر ضئيل، فقد استوعب حدا لا يستهان به من المفاهيم نظرا لكثرة منابعه واتساع مشارب الباحثين فيه، كما أنه قد قصرت أكثر المحاولات التي نهضت لضم تصوراته في أطر محددة، عن تقديم عرض متكامل، يتيح للقارئ الوقوف على نظرة كلية أساسية، وأخيرا كان لتعدد مناهجه واتخاذها مسارات متباينة في بلدان مختلفة أكبر الأثر في أن تنبو كل محاولة تستهدف نوعا من التقريب بينها بالفشل[2].

ومن المشكلات الأساسية التي يضمنها هذا الناشئ الجديد بين جنباته، تعدد تعريفات الدارسين للمصطلح الجوهري الذي يقوم عليه هذا العلم، وبعبارة أخرى، لم يتمكن الدارسون من إيجاد تعريف جامع مانع للنص، نظرا لاختلاف المدارس اللغوية التي ينتمون إليها، بل إنه وبعد مرور ما يقارب الثلاثة عقود على تأسيسه، لم تتحدد بعد معالمه بدرجة كافية، بل إنه مسمى لاتجاهات وتصورات غاية في التباين، وحقول معرفية غاية في

---

(1) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 149.

(2) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص 02.

الاختلاف، رغم ما بذله أعلامه من جهود مضنية لوضع حدود واضحة بينه وبين العلوم الأخرى وبخاصة في فترة الثمانينات[1].

كما أن نشأته لم ترتبط ببلد معين، ولا بمدرسة لغوية محددة، أو باتجاه محدد، بل إن اتجاهات البحث فيه مرتبطة بكل الأعمال في مجال اللغة، وهذا ما يؤكده دي بوجراند حيث ذكر في بداية تاريخه لعلم النص رأيا لـ" فان دايك " يقول فيه: «لا يخضع علم النص لنظرية محددة أو طريقة مميزة، وإنما يخضع لسائر الأعمال في مجال اللغة التي تتخذ من النص مجالا لبحثها واستقصائها»[2].

ويتداخل مصطلح علم النص مع مصطلحات أخرى قريبة مثل: نحو النص، لسانيات النص، علم لغة النص.

فما حدود هذه المصطلحات؟

يقابل مصطلح نحو النص المصطلح الأجنبي" Grammaire du texte" الذي وظفه النحويون بهدف دراسة الأبنية النصية، وتبيين كيفية ترابط وحداتها، وهذا ما يتشاكل مع لسانيات النص Linguistique textuelle سوى أن المصطلح الأول استعمله النحاة على غرار نجو الجملة لأنهم عدوها أكبر وحدة في التحليل النحوي، والمصطلح الثاني وظفه اللسانيون على غرار لسانيات الجملة لأنهم عدوها موضوع التحليل اللساني.

أما مصطلح علم لغة النص فراج أكثر خصوصا عند المشارقة الذين يقابلون Linguistique بعلم اللغة بدل اللسانيات.

ويتضح الفرق أكثر بين مصطلحات نحو النص و لسانيات النص وعلم النص Textologie حيث يرتبط المصطلحان(نحو النص، ولسانيات النص) بنوع محدد من النصوص ومن التحليل، في حين يهتم علم النص بجميع أنواع النصوص نحو: الرواية والإعلان الإشهاري والمقال الصحفي والعلمي والفيلم السينمائي وبكل ما تنتجه الثقافة

---

(1) المرجع نفسه: ص 115.

(2) انظر يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 1410هـ ص 11.

المعاصرة من نصوص"[1].

والملاحظ أن الاختلاف الحاصل بين هذه المصطلحات يرجع إلى اختلاف الباحثين في النقل وفيما يلي سرد لهذه المصطلحات بلغاتها الأجنبية، وما يقابلها بالعربية عند من استطعنا الاطلاع عليه من الباحثين:

المصطلح الأجنبي		الترجمة العربية	الباحث	عنوان الكتاب
انجليزي	فرنسي			
Text linguisticus	Linguistique textuelle	لسانيات النص	محمد خطابي	لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب
			خولة طالب الإبراهيمي	مبادئ في اللسانيات
		علم لغة النص	سعيد حسن البحيري	علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات
			إلهام أبو غزالة وعلي خليل الحمد	مدخل إلى علم لغة النص
		علم النص	صلاح فضل	بلاغة الخطاب وعلم النص
			جميل عبد المجيد	الأسس المعرفية لعلم النص
			يوسف نور عوض	نظرية الترجمة وعلم النص
		علم اللغة النصي	صبحي إبراهيم الفقي	علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق
		نظرية النص	إبراهيم خليل	الأسلوبية ونظرية النص
		نحو النص	أحمد عفيفي	نحو النص

(1) بشير ابرير: من لسانيات الجملة إلى علم النص، ص 94.

ثانيا: جدوى لسانيات النص:

1- نظرة في الجذور التاريخية للعلم:

يرجع دو بوجراند البدايات الأولى للدراسات النصية إلى العلوم البلاغية التي سادت العصور الكلاسيكية القديمة (اليونانية، الرومانية، العصور الوسطى). فقد اتجه اهتمام البلاغيين في تلك المرحلة إلى تدريب الخطباء في أربع مجالات، هي مجال إنشاء الأفكار، ومجال تنظيمها، ومجال إيجاد التعبيرات المناسبة ومجال حفظها، وذلك قبل عملية الإلقاء، وتعتبر الدراسات البلاغية القديمة في نظر دو بوجراند مكملة لدراسات النحو والمنطق[1].

تشترك المفاهيم القديمة لعلم البلاغة مع البحوث والدراسات النصية الحديثة في أمور كثيرة نذكر منها:

- ابتداع أفكار والعمل على تنظيمها وتنسيقها داخل النصوص.
- إيجاد التعبيرات الملائمة للأفكار والتي تتناسب مع الموقف الاتصالي، ويعني ذلك أنه كان ينظر إلى النص على أنه وحدة كلية دلالية مخصصة للاتصال الإنساني والتفاعل الغائي.
- أما المجال الثاني الذي عولجت فيه قضايا تتصل بالدراسات النصية هو مجال الأسلوبية التقليدية أو المجال التقليدي لعلم الأساليب، وقد كان " كونتليان " وهو أحد المنظرين القدماء (القرن الأول للميلاد) قد عين أربع خصائص للأسلوب هي: الفصاحة والملاءمة والوضوح والرشاقة[2].

إن ما أشار إليه كونتليان من مقولات يتقاطع مع المفاهيم النصية الحديثة لاسيما الفكرتين المتعلقتين بـ" الوضوح والرشاقة " حيث تبدوان للوهلة الأولى أكثر غموضا وتعقيدا، إلا أنهما تقتربان كثيرا من فكرتي الجودة والفعالية[3] غير أنهما ليستا مطابقتين لهما[4] –

---

(1) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص 11.

(2) إلهام أبو غزالة وعلي خليل الحمد: مدخل إلى علم النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط2، 1999، ص 39.

(3) تنجم جودة النص عند توظيفه في الاتصال، مع تحقيق أكبر مردود وأقل جهد، بحيث تتوافر سهولة =

حسب ما ذهب إلى ذلك إلهام أبو غزالة وعلي خليل الحمد-.

أما المجال الثالث الذي تم فيه الاهتمام بالدراسات النصية هو مجال الدراسات الأدبية في نظر دو بوجراند الذي اهتم الدارسون فيه بكيفية بناء النصوص وتأثير الأدباء على مدى العصور، إلا أن علم النص تفوق على سائر تلك الدراسات، لأنه لم يقتصر على وصف التراكيب اللغوية وحدها وإنما تجاوزها إلى كيفية بناء النصوص وأغراض استخدامها[2].

أما هارتمان فيرى أن المجال الثالث الذي ساهم في تطور الدراسات النصية هو "الدراسات التفسيرية "، التي يستهدف منها الدارسون التوصل إلى المعنى الحقيقي للرسالة[3].

لكن هذه الدراسات انحصرت في التركيز على الوحدات الصغرى للنص المتمثلة في دراسة الكلمات والجمل، وأهملت النظر إلى دراسة النص كوحدة كاملة مترابطة الأجزاء، أي أنها لم تهتم بالنص كوحدة كبرى للتحليل.

أما المجال الرابع للدراسات النصية، فهو مجال الدراسات الاجتماعية، الذي بدأ الاهتمام فيه بربط الأدوار اللغوية المحادثة بواقعها الاجتماعي. وقد فتح هذا الاتجاه المجال لما يعرف في الدراسات اللسانية الحديثة بعلم تحليل الخطاب " Discours analysis " الذي راده " سانكلير Sanclair " و" كولثار Coulthard".

كل هذه الأنظمة المعرفية السالفة الذكر، شاركت علم النص في كثير من قضاياه، ومسائله المتعلقة ببعض جوانب الدراسة النصية. إلا أن هذه الأنظمة المعرفية لم تتكامل فيما بينها قديما، فقد كانت دراسات منعزلة عن بعضها البعض، إذ كان ينقصها مرتكز أساسي تنطلق منه أو تتجه إليه تلك الدراسات مثل " علم النص ".

وبعد إلقائنا نظرة عاجلة على الجذور التاريخية المهمة للسانيات النص، نقف الآن عند

= معالجة النص، وتعني الفعالية شدة وقع النص وتأثيره في المستقبل.

(1) المرجع نفسه، ص 40.

(2) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص 13.

(3) المرجع نفسه، ص 20.

بعض المحطات الحاسمة والتي ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في تطور هذا العلم داخل مجال الدراسات اللسانية.

2- التطور داخل مجال الدراسات اللسانية:

بادئ ذي بدء نشير أنه وإلى منتصف الستينات كانت الجملة ينظر إليها مطلقا على أنها موضوع الدراسة اللسانية، وهي من ثم أكبر وحدة قابلة للوصف والتحليل اللغوي، ويبدو هذا الموقف الأساسي للسانيات الجملة في أجلى صوره فيما قدمه دو سوسير De Sausure من تعريف للجملة على أنها تتابع من الرموز، وأن كل رمز يسهم بشيء من معنى الكل، لهذا فكل رمز داخل الجملة يرتبط بما قبله وبما بعده، وقد أطلق على هذا التتابع في إطار الجمل مصطلح " Syntagmatic "[1].

وأما بلومفيلد Bloomfield فيعرف الجملة تعريفا شكليا صارما إذ يرى أن الجملة بنية لغوية مستقلة، لا تدخل -عن طريق أي تركيب نحوي- في بنية لغوية أكبر منها[2].

ورغم أن هذا الاتجاه اهتم بمستوى الجملة فقط، فإن الإضافة الحقيقية التي برزت عنده، هو نظره إلى مكونات الجملة وفق نظرية التعارضات الثنائية على أنها مجموعة من النظم تترابط مع بعضها البعض عن طريق التمايز، ويشكل وصف هذه النظم وصفا للنظام اللغوي بأسره[3].

ولاشك في أن هذه الدراسة الشكلية الوصفية يمكن الإفادة منها في مجال تحليل النصوص، فبنائية النصوص تخضع لمجموعة من النظم يجب تحليلها إلى وحدات دنيا قبل دراسة المرتكزات الأساسية التي تقربها من بعضها البعض.

أما عن إسهامات المدرسة التوليدية التحويلية في هذا المجال؛ فقد كان لها أثر مباشر في الانتقال من مستوى الجملة ومكوناتها القاعدية إلى البحث المنظم في العلاقات بين الجمل في

---

(1) سعيد حسن البحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص 19، 20.

(2) فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، ط1، 1998، ص 19.

(3) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص 15.

إطار بنية كبرى يمثلها النص، ومن هنا يبرز الاختلاف الجوهري بين الاتجاه الوصفي والاتجاه التحويلي التوليدي؛ وهذا الاختلاف مرده إلى أن المدرسة التوليدية لم تنظر إلى النص على أنه وحدة أكبر حجما من الجملة المعتادة، وإنما نظرت إليه على أنه سلسلة متتابعة من الجمل الصحيحة، وعلى الرغم من أن " كاتز Katz " و" فودور Fodor " بحسب رأي دو بوجراند قد ذهبا إلى اعتبار النص في أول الأمر جملة طويلة مقسمة إلى مسافات زمنية ولا تترابط بواسطة الروابط المعروفة، فإذا كان هذا هو تحديدهما لمفهوم النص؛ فليس هناك ما يدل على أنهما اقتربا من مفهوم النصية الذي قدمه " دو بوجراند " وذلك بسبب وجود كثير من النصوص التي تخالف هذا المفهوم(1).

ويشير كثير من الدارسين إلى أن محاولة " نعوم تشومسكي N.chomesky " تعد المحاولة القوية والأخيرة للدفاع عن هذا الاتجاه وعن هذا الإرث اللغوي الذي تربعت الجملة على عرشه ردحا من الزمن، وبدأت تلوح في الأفق معالم علم جديد يعتبر البديل المنهجي القوي والجديد لما كان يعرف بلسانيات الجملة La linguistique de la phrase، هذا الناشئ الجديد من رحم اللسانيات البنيوية يحاول جاهدا أن يشق طريقه نحو وحدة أكبر يمثلها النص، ليكشف عن دوره في عملية الاتصال وظروف إنتاجه، وأنواع النصوص، وغيرها من المهام التي أبى إلا أن يحملها على عاتقه متجاوزا كل قصور وقعت فيه الدراسات اللسانية التي سبقته زمنيا، حيث ضيقت مجال دراستها، فتقوقعت على الجملة، وعدتها أكبر وحدة للدراسة، كما أهملت السياق ومنتج الخطاب، وكل ما هو خارج عن البنية اللغوية.

إن هذا التحول من " الجملة إلى النص " ليس مجرد تحول حجمي من وحدة صغرى إلى وحدة كبرى، بل تحول في المنهج وإجراءاته وأدواته.

أما عن أهم المحاولات الجادة لنشأة هذا العلم فيمكن أن نشير إلى محاولة " زليخ هاريس Z. Harris " سنة 1952، في عمله " تحليل الخطاب " Discours Analysis، حيث استخدم إجراءات اللسانيات الوصفية بهدف اكتشاف بنية النص، وقد ركز في بحثه على

---

(1) سعيد حسن البحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص 16، 17.

نقطتين رئيسيتين:

-- العلاقات التوزيعية بين الجمل.

-- الربط بين اللغة والموقف الاجتماعي[1].

ورغم أن هاريس Hariss نبه إلى العلاقة بين النص وسياقه الاجتماعي، إلا أن الانطلاقة الفعلية كانت تحديدا مع علماء لغويين أمثال " هيمبولدت Himboldt " و" مالينوفسكي Malinwiski " الذي تحدث عن مفهوم سياق الموقف، والذي عنى به البيئة الشاملة التي يدور عليها النص، وقد أدخل مفهوما آخر هو مفهوم سياق الثقافة؛ الذي رآه مع سياق الموقف ضروريين لفهم اللغات والثقافات، وقد أخذ هذا المفهوم فيما بعد وطوره " فيرث Firth "[2]، دون أن ننسى محاولات " هارتمان Hartman " في محاضرته: " النصوص موضوع لغوي " يعد فيه النص علامة لغوية أصلية، إذ ينبغي أيضا أن يحدد سلفا اتجاه التحليل اللغوي للنص، إذ يجب أن يكون الانطلاق من الوحدات الأصغر الأدنى من جهة التدرج (الجمل وأجزاء الجمل) إلى الوحدات الأكبر الأعلى[3].

إن هذه المحاولات الجادة لعلماء اللغة قد أخرجت الدراسات اللغوية من بوتقة التحليل البنيوي، بل وكسرت عوده لتتملص من دائرته الضيقة، فلم تعد اللغة مجرد بنية مغلقة قابلة للتجزئة والانقسام إلى وحدات صغرى، وصار الاهتمام واضحا بالدلالة الكلية للنص والسياقات المتعلقة به، وبكل ظروف إنتاجه.

ويظهر كل ما ذكرناه واضحا في أعمال " رولاند هارفج Roland Harweg" الذي اهتم بالكيفية التي يتماسك بها النص؛ وقد بنيت فكرته على نظرية " الاستبدال " والتي تقول بأن كل جملة في النص إنما تأتي لتحل محل الجملة التي سبقتها، وذلك في توجهها نحو الغاية النهائية للنص، لذلك يعرف النص بأنه تتابع من الوحدات اللغوية المبنية بسلاسل إضمار

---

(1) جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص 65، 66.

(2) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص 29.

(3) سعيد حسن البحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص 57.

متصلة[1].

وتوالت الدراسات والأعمال في هذا الحقل المعرفي على يد أكثر من عالم، وفي أكثر من بلد (لأن نشأته لم ترتبط ببلد معين ولا بنظرية محددة)، ومن بين الذين ساهموا في تطوره نذكر: كوسيرو Koseriu الذي نادى بعدم الوقوف عند مدى معرفة المتحدث باللغة، وضرورة تجاوز ذلك إلى استخدامها في مواقف الاتصال، لكن هذا التطور لم يلتفت إلى أهميته إلا أخيرا[2]، بالإضافة إلى جهود " سورل Searl " و" غرايس Grice " و" هاليداي Halliday " و" رقية حسن R. Hassan " التي شاركته في معظم أعماله وغيرهم... فهؤلاء وغيرهم هم الذين وضعوا الحجر الأساس لهذا العلم، محاولين دك ركائزه من خلال إعلائهم لشأن النص، لتنتهي هيمنة لسانيات الجملة التي دامت ردحا من الزمن.

ويرى دو بوجراند في معرض حديثه عن تاريخ هذا العلم أن الخطوة الكبرى قد جاءت عندما اجتمع عدد من العلماء في مقدمتهم " هارتمان " و" رايزر Reiser "و" بتوفي Bitofi " و" فان دايك Van dyk " وغيرهم في جامعة " كونستانز " في ألمانيا لدراسة ما أصبح يعرف بلسانيات النص Linguistique textuelle وكان الاتجاه أول الأمر هو إنشاء نحو لتوليد النصوص من خلال عمل " برخت " «ديوان السيد ك المفضل" وقد تبين أن العملية أكثر تعقيدا مما تصور الجميع، وذلك لصعوبة كتابة نحو للنص يشبه نحو الجملة، وقد بدا من ذلك أنه لابد أن تتركز العملية إذن في كيفية إنتاج النصوص واستقبالها من أجل توضيح الفرق بين ما هو نص وما هو غير نص[3].

يشير الطرح السابق إلى أن الحاجة أصبحت ملحة لقيام علم جديد يعتبر بديلا موضوعيا للسانيات الجملة، فتغير نظرة اللسانيين للغة، وذلك للإحساس الطاغي بضرورة وجود علم يدرس النصوص من كل زواياها، من دراسة للعلاقات الداخلية والخارجية

---

(1) فولفجانج هاينه من وديترفيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص 27.

(2) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص16. وللاستزادة انظر: سعيد حسن البحيري: علم لغة النص، ص 33-34.

(3) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص 17.

للأبنية النصية، وتحديد دور النصوص في عملية التواصل، والنظر في كيفية إنتاجها واستقبالها، والتمييز بين أنواعها وأنماطها في السياقات المختلفة لاستنباط المعايير التي يتحدد بها ما هو " نص " وما هو " غير نص ".

إن هذه الحاجة لا تسوغ انفصام العلاقة بين العلمين (لسانيات الجملة، لسانيات النص) كما لا يسوغ أن يتداخل العلمان (بمعنى أن يشتمل أحدهما على الآخر) فالعلاقة بينهما يجب أن تكون علاقة تكاملية، حيث يجب أن ينظر إلى أبحاث علم اللغة الجملي على أنها تمهيد ضروري لأبحاث علم اللغة النصي[1].

3- الإسهامات العربية في مجال لسانيات النص:

يعتقد بعض الدارسين العرب أن هذا الحقل المعرفي الجديد -لسانيات النص- قد نشأ وترعرع في محاضن الثقافة الغربية، فالغرب هو الذي أسهم إسهاما كبيرا وواضحا في إنتاج هذه المعرفة الجديدة والخصبة، وهو الذي عمل على إنتاج اصطلاحاتها، ثم شحن هذه الاصطلاحات بدلالات واضحة ومحددة.

إن حيازة الغرب لمثل هذه العلوم وغيرها وسيطرتهم المحكمة على مقولاتها متأتية من كونه منتجا للمعرفة لا مستهلكا لها، فقد خطا الآخر خطوات بعيدة جدا في مجال تحليل الإنسان والتاريخ والمجتمع ومختلف النشاطات التي نجمت عن علاقات الإنسان بالعالم، وكان على المثقف العربي أن يتفاعل مع هذه المعرفة الغربية من محيطه وسياقه الثقافيين[2].

يندرج النص الذي نحن بصدد إنجاز مقاربة لسانية له ضمن فن المقامات، مما تدفعنا خصوصية هذا اللون النثري المستحدث في القرن الرابع الهجري إلى مساءلة التراث اللغوي العربي القديم، والوقوف تحديدا عند النشاطات المرتبطة منه بالممارسة النصية، محاولين انتهاج سبيل الموضوعية، والتحلي بروح العلمية في سبر أغوار المعرفة -أيا كانت هذه المعرفة-، وكذلك للفت الانتباه إلى الإسهامات العربية من أمثال الجاحظ (ت 255هـ)، والإمام عبد

---

(1) فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص 08.

(2) سعيد يقطين وفيصل دراج: آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2003، ص 19، 20.

القاهر الجرجاني (ت 471هـ)، وجهود أبي يعقوب السكاكي (ت 626هـ)، وحازم القرطاجني (ت 684هـ)، التي لا تقل أهمية وخصوبة عما قدمه الغربيون من أمثال " فان ديك Van dyk " و" هارتمان Hartman " و" كوسيرو Coseriu " و" آدام Adam "... الخ.

أ- الإسهامات العربية القديمة في مجال التحليل النصي:

لقد كانت للغويين العرب أول ممارسة نصية واعية مع كتابهم المعجز القرآن الكريم، وتتمثل هذه الممارسة في الوقوف على النص في ذاتيته النصية بتعبير بارت فيصبح النص بذلك «خلية حية تتحرك من داخلها مندفعة بقوة لا ترد لتكسر كل الحواجز بين النصوص...»[1].

كما أولوا اهتماما خاصا بالشعر والخطبة، إلا أن باقي الفنون النثرية نالت أقلّ حظا من الاهتمام، وولد تعاملهم مع هذه النصوص جملة من الملاحظات التي تدور كلها في فلك الدراسات اللسانية النصية، فأفرز ذلك سجلا اصطلاحيا متنوعا يتعلق أساسا بمفهوم الانسجام " الحبك " الذي يعد من أبرز المفاهيم اللسانية النصية التي تناولوها بالدراسة، وقد لحق بهذا المصطلح دلالات مجاورة من مثل: الاتصال والامتزاج والالتزام والالتحام والتلاحم والاتساق والائتلاف والاقتران والارتباط والملاءمة والمناسبة، والتناسب[2].

ونحاول من خلال هذه الدراسة الكشف عن خاصية " الحبك " من منظور القدماء من خلال مساءلة مباحث ثلاثة هي البلاغة والنقد الأدبي والتفسير باعتبار أن هذه الفروع اللغوية والبلاغية لها صلة وثيقة بمجال تحليل الخطاب، وبعد أن ثبت أن قضايا البلاغة بفروعها المختلفة قضايا لغوية الطابع في مجملها، وأنها لا تقترب من الطابع النقدي إلاّ في مواضع محددة[3].

وهذا الطرح يؤكد افتراض أحمد المتوكل (1982) بأن النشاط اللغوي العربي القديم

---

(1) عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط4، 1998، ص 78.

(2) محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، مصر، ط1، 2005، ص 100.

(3) المرجع نفسه، ص 88-89.

ينقسم إلى " لسانيات جملة " و" لسانيات خطاب " (البلاغة) والتفسير وأصول الفقه[1].

وتسعى هذه الدراسة لاستخلاص أهم الإشارات العامة التي تثبت وعي القدماء بخاصية الحبك من خلال مساءلة هذه الفروع الثلاثة.

أ-1- البلاغة:

تعامل البلاغيون مع أنواع خطابية تمثلت في القرآن والشعر والخطبة، ولاشك أن كل نوع من هذه الأنواع يحمل سماته المميزة له، إلا أن هناك مظاهر خطابية مشتركة بينها جميعا، والذي يهمنا من كل هذا هو إبراز مدى وعي البلاغيين بتماسك مضامين هذه الخطابات، ومدى ترابط أجزائها والتحام أواصرها.

شكل القرآن الكريم محور الدراسات اللغوية عامة، والبلاغية خاصة، فقد انكب البلاغيون على كشف أسراره ودلائل إعجازه، وسر نظمه، وأسهبوا في دراستهم تلك، ومن هنا تبرز جهود الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) أحد أعلام البلاغة العربية، والذي يعد بحق مؤسس هذا العلم، والذي على نهجه سار رجال البلاغة من بعده فأتموا بنيانه ورسموا حدوده ومعالمه وأركانه، وتفرده هذا أوصله إلى تشكيل نظرية كاملة استغرقت مؤلفين كبيرين هما: " دلائل الإعجاز " و" أسرار البلاغة ".

انبنت هذه النظرية على ركائز بلاغية ونحوية، ويمكن تجسيد مضمون هذه النظرية التي عرفت فيما بعد باسمه في أركانها العامة[2].

- النظم هو التأليف وسبيل التصوير والصياغة.
- النظم ليس في اللفظة المفردة.
- النظم ليس في اللفظ أو في المعنى يستقل كل عن الآخر.
- النظم هو التعليق.
- النظم هو توخي معاني النحو.

إن التفصيل في هذه الأركان يستغرق مؤلفات عدة، ولذا سنقصر حديثنا على الركن

---

(1) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 95.

(2) صالح بلعيد: نظرية النظم، دار هومة، الجزائر، د ط، 2002، ص 143.

الأخير " النظم هو توخي معاني النحو "، يقول الجرجاني «إعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجَتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لكَ فلا تُخِلَّ بشيء منها»(1).

إن علم النحو من منظور الجرجاني ليس مجرد قواعد شكلية صارمة يعرف بها صواب الكلم من خطئه، وإنما توخيه في الكلام يحقق هدفا نظميا (أي نظم الكلام ونسجه على منوال العرب) دون إغفال الناتج الدلالي.

كما أورد الجرجاني مصطلح " التضام " الذي يعتبر من أشهر مبادئ النصية عند حديثه عن أن الكلمة لا تكون ذات فائدة إلا بضم كلمة إلى كلمة، ورص لفظة بجوار لفظة، ومن ثمة يمكن القول إن هناك لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة، ويقصد الجرجاني بمصطلح التمكن توافق الألفاظ من جهة المعنى، وبالقلق سوء التلاؤم، وأن الأولى لم توافق الثانية في معناها(2).

وفي معرض حديثه عن قضية الفصل والوصل يقول الجرجاني: «إعلم أن العلم بما ينبغي أن يُصْنَعَ في الجمل، من عطف بعضها على بعض، أو تَرْكِ العطف فيها والمجيءِ بها منثورة تُسْتَأنَفُ واحدةٌ منها بعدَ أُخرى»(3).

يعتبر (الجرجاني والسكاكي) أن قضية الفصل والوصل من أدق وأصعب المسائل البلاغية، وأن عدم مراعاتهما في الكلام يؤثر في النظم سلبا، وأن الداعي إليهما قد يبدو أمرا معنويا، كما يعتبران أيضا إحدى التجليات السطحية العميقة لانسجام الخطاب واتساقه(4).

ويبدع عبد القاهر الجرجاني في تحليل آيات من سورة هود تحليلا يقترب كثيرا من التحليل النصي المعاصر، إذ يقول: «... وهل تشك، إذا فكّرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ

---

(1) دلائل الإعجاز في علم المعاني، شكله وشرح غامضه وقدم له ووضع فهارسه ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 28.

(2) المرجع نفسه، ص 30.

(3) المرجع نفسه، ص 239.

(4) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 97-99.

ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، فتَجلَّى لك منها الإعجاز... إلاّ لأمرٍ يَرجِعُ إلى ارتباط هذه الكَلِمِ بعضها ببعض، وأنْ لم يَعرِضْ لها الحُسنُ والشَّرفُ، إلاّ من حيث لاقَتْ الأُولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟... وأن الفَضْلَ تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها... ثم مقابلة " قيل " في الخاتمة " بقيل " في الفاتحة... لما بين معاني الألفاظِ من الاتّساق العجيب...»[2].

وضح الجرجاني أن هذه القواعد النحوية التي شكلت عالما تترابط فيه وحدات النص مثل بناء الفعل للمجهول، وإضمار الفاعل، ومقابلة قيل في الفاتحة بقيل في الخاتمة وغيرها، كل هذه المظاهر النحوية ليست مجرد قواعد شكلية صارمة، ولكنها معان ومشاعر، وهي بتفاعلها مع غيرها قد شاركت في نقل الصورة العامة التي تريد الآية تبليغها للناس بكل ما تنطوي عليه من إحساس وانفعال.

ثم يعالج نصا (وقد نظر إليه على أنه كل متكامل في بنيته ودلالته) ولم ينظر إليه على أنه تتابعات من الجمل أو أجزاء جمل، وهذا من صميم الدراسات النصية المعاصرة.

وغير الجرجاني بلاغيون آخرون أمثال أبي يعقوب السكاكي (ت 626هـ) الذي تعمق في الحديث عن قضايا بلاغية تتعلق أساسا بالفصل والوصل والإيجاز والإطناب[3] لا يتسع المجال للتفصيل فيها.

أ-2- النقد:

وردت في تضاعيف كتب النقد العربي إشارات ونظرات عامة لوجوب الالتئام والالتحام والتناسق، وهذه الإشارات العامة تثبت في مجملها مدى وعي النقاد بخاصية الحبك اللغوي للكلام أو النص، فيمكن لنا أن نعرضها على النحو التالي:

يقول الجاحظ (ت 255هـ): «وأجودُ الشّعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء، سهلَ المخارج،

---

(1) هود: 11/ 44.

(2) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 98.

(3) مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ص 248 وما بعدها.

فتعلمُ بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدًا وسبك سبكاً واحدًا، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدِّهان»[1].

أشار الجاحظ إلى أن جودة الشعر تقتضي تلاحم أجزائه، ومبدئيا يمكن حصر الأجزاء فيما يلي[2]:

- الأبيات التي تتشكل منها القصيدة.
- الأجزاء التي يتشكل منها البيت (الصدر والعجز).
- الوحدات اللغوية التي ينبني عليها الشطر (المفردات).
- العناصر الصوتية التي تتركب منها اللفظة- الحروف (الأصوات).

إن الحديث عن تلاحم الأجزاء يفضي إلى ضرورة الترابط الدلالي بين سلسلة المنطوقات والمتواليات الكلامية، حتى يصير النص كلا موحدا دالا، وكل هذا لا محال يعكس جودته.

وقال أبو الهلال العسكري (ت 395هـ): «... وينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها...»[3].

يفيد كلام أبي هلال وعيه بخاصية الحبك الدلالي للنص، ففي إشارته إلى اشتباه أو الكلام بآخره، ومطابقة هواديه لأعجازه...الخ، إشارة إلى اتصال أجزاء الكلام بعضها ببعض مما يفضي إلى انتظام معاني النص، ولا شك أن هذه الاستمرارية المعنوية توفر خاصية الحبك الدلالي للنص.

وتبقى كل هذه الإشارات لهؤلاء النقاد وغيرهم عبارة عن نظرات عامة لوجوب التئام النص وتلاحم أجزائه، وخلا الأمر من بلورة حقيقية لأسس يقوم عليها التماسك والتلاحم.

---

(1) البيان والتبيين، ج1، ص 67.

(2) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 143.

(3) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1989، ص 160.

أما من كان له فضل الريادة في وصف كيفية تماسك الخطاب،فهو الناقد حازم القرطاجي (ت 684هـ) فمن خلال إنتاجه النقدي تمكن من تقديم أسس نظرية شاملة في كيفية تماسك فصول القصيدة.

تحدث حازم عن المطالع والمقاطع، ويقصد بالمطالع أوائل الأبيات، وبالمطالع آخرها، وقد اشترط في المطلع أن تكون ألفاظه جزلة قوية، وأن تكون ذات معان شريفة، واضحة الدلالة، واشترط في المقطع أن يكون ذا معنى شريف، غير منفر ولا تشمئز منه الطباع، حتى لا ينفر السامع مما استمالت إليه نفسه في حشو القصيدة[1]، وعما يجب في تقديم الفصول وترتيبها ووصل بعضها ببعض، وما تعتبر به أحوال النظم في جميع ذلك، أسهب الحديث في المعلم(أ) «معلم دال على طرق العلم بإحكام مباني الفصول وتحسين هيآتها ووصل بعضها ببعض»[2].

يشترط القرطاجني في بناء الفصل اعتماده على الألفاظ الفصيحة، الخالية من الحروف المتنافرة، أو الثقيلة على السمع، فنظم القصيدة من منظوره يعتمد على الأبيات الحسان، وهذه الأخيرة تعتمد على الألفاظ الفصيحة المناسبة للمعاني، التي يريد الشاعر أن يضمنها كلامه[3].

يمكن أن نصنف وصف حازم القرطاجي لتماسك القصيد إلى[4]:

*** ترابط الفصل:**

- أن يكون محكم النسج.
- أن تتناسب طريقة النظم مع الغرض.
- تقديم ما هو أهم.

---

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحسين بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص 282.

(2) المرجع نفسه، ص 288.

(3) المرجع نفسه، ص 289.

(4) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 56.

- أن تكون بين أبيات الفصل علاقات دلالية منطقية: كالسببية والمحاكاة والتفسير... إلخ.

*** ترابط الفصول:**

- أن يستمر غرض الفصل السابق في اللاحق.
- أن تكون الفصول متصلة العبارة والغرض.
- أن تكون الفصول متصلة الغرض دون العبارة.
- أن تكون الفصول متصلة العبارة دون الغرض.

*** العلاقات بين الفصول:**

- الانتقال من الوحدات الصغرى إلى الكبرى أو العكس.
- أن يكون رأس الفصل الأعلى على بقية الفصل.
- أن يكون آخر الفصل عبارة عن نتيجة منطقية لما تقدم منه.

إن ما قدمه حازم القرطاجي يبدو معلما يهتدي به كل شاعر أو كاتب، لهندسة بناء قصيدة مشكلة من فصول حسنة النظم، جيدة السبك، لأن «النظم صناعة آلتها الطبع، والطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرار الكلام...»[1]، فقد اعتنى هذا الناقد الفذ بكل ما يخص بناء هذه القصيدة (ببدايتها ونهايتها ومرورا بوسطها).

أ-3- التفسير وعلوم القرآن:

شكل النص القرآني في صلب الثقافة العربية الإسلامية محورا أساسيا، فقد أنشئت حوله علوم كثيرة مثل: الفقه وأصوله، التفسير، النحو، البلاغة...الخ، بل يمكن أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة " النص "، بمعنى أنها حضارة شيدت أسسها وازدهرت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز النص فيه[2].

---

(1) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 199.

(2) نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1996، ص 09.

وأكثر من اشتغل بقضاياه المفسرون، وأبرزها: " علم المناسبة " بين الآيات والسور، ورغم أن هذا العلم لم يحظ باهتمام كبير من قبل المفسرين، إلا أنه قد وجدت إشارات له في تضاعيف بعض الكتب، ثم توالت التنبيهات إلى ضرورة الاهتمام به، يرى بعض المفسرين أن تعالق آيات القرآن وارتباط بعضها ببعض، حتى تبدو كالكلمة الواحدة، منسجمة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم[1].

وبهذا يكشف هذا العلم عن أن جميع آيات القرآن متماسكة ومترابطة، بل لشدة تماسك آياته وسوره عد كالكلمة الواحدة.

ويتحدث الزركشي (ت 745هـ) عن مزية هذا العلم فيذهب إلى أن فائدته تكمن في جعل الكلام يرتبط بعضه ببعض، فيدعم بذلك التماسك ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتراص الأجزاء[2].

إن إشارة الزركشي إلى قوة الارتباط والتأليف وتلاحم الأجزاء يدل على وجوب النظر إلى هذا النص على أنه بناء قوي متين الأسس، وهذه النظرة الثاقبة لضرورة تماسك أجزاء القرآن تعد من صميم التحليل النصي المعاصر.

يتحدث الطاهر بن عاشور (ت 1379هـ) في مؤلفه " التحرير والتنوير " عن تعالق الحروف والآيات في القرآن، يقول بأن: «الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه، أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل، ومما يدل عليه وجود حروف العطف المفيدة الاتصال مثل الفاء ولكن وبل...»[3].

يشير الطاهر بن عاشور إلى أهمية التناسب في الغرض عند ربط آي القرآن ببعضه، حتى يؤدي ذلك إلى استمرارية معنوية، كما يشير أيضا إلى أهمية أدوات العطف (الفاء، بل،

---

(1) البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، 1988، ج1، ص 36.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص 36.

(3) تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1991، ج1، ص 79، 80.

لكن...) هذه الأدوات الرابطة تعد من التجليات السطحية العميقة لاتساق النص وانسجامه من منظور التحليل النصي المعاصر، وتعبر الإحالة الضميرية في نظر علماء لسانيات النص من أشهر الأدوات التي تعمل على تماسك نسيج النص كما في هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[1].

يقول ابن عاشور: «الضميران في (أقررتم) و(وأنتم تشهدون) راجعان لما رجع له ضمير (ميثاقكم) وما بعده، لتكون الضمائر على سنن واحد في النظم»[2].

فوظيفة الإحالة الضميرية التي تظهر في الآية تعد من الروابط التماسكية الدلالية، وهذا يمثل إدراكا واعيا لدى المفسرين بقضية التماسك النصي.

وتوجد غير هذه الإشارات في كثير من الكتب التراثية، تحيل إلى وعي القدماء من المفسرين وغيرهم بضرورة تماسك النص، أيا كانت طبيعة هذا النص (شعر/ نثر).

وتبقى العودة إلى التراث والتنقيب فيه محاولة دؤوبة ومتواصلة، وهذا ليس تعصبا لموروثنا، ولكن لتسليط الضوء على بعض الحقائق الخفية، والمفاهيم الجادة لإخراجها إلى الوجود ثانية، ولمقاربتها بالمفاهيم المعاصرة.

ب- الجهود العربية الحديثة في مجال اللسانيات النصية:

تمكن العرب في العصر الحديث من الاطلاع على المنجزات الغربية في جميع المجالات الحياتية، بما فيها التطورات الخاصة في ميدان " اللسانيات " بجميع فروعها، وقد تحقق لهم ذلك من خلال[3]:

- الاطلاع عليها في منابعها عبر تعلم لغاتها أو الدراسة في معاهدها.

---

(1) البقرة: 02/ 84، 85.

(2) تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص 586.

(3) سعيد يقطين وفيصل دراج: آفاق نقد عربي معاصر، ص 20.

- اعتماد الترجمة أو تلخيص بعض تجلياتها ونقلها إلى العربية.

اهتم اللسانيون العرب المعاصرون في سياق مناهج النقد الأدبي الحداثية بالنص في أعمال رائدة مثلها كل من:

* إبراهيم خليل: في اللسانيات ونحو النص: قدم في القسم الأول من الدراسة، توطئة وجيزة حول المدارس اللسانية المعاصرة، تليها دراسة مكثفة عن مستويات اللغة المختلفة (من صوت وصرف ونحو) ثم تناول في القسم الثاني من الكتاب، دراسات في نحو النص، وأشار في خضم ذلك إلى قواعد التماسك النحوي عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء علم النص.
* الأزهر الزناد: نسيج النص (بحث فيما يكون به الملفوظ نصا).

تندرج محاولة هذا الدارس في بحث نحو النصوص، وقد انطلق فيه من مفهوم النص على أنه نسيج من الكلام، وقد بحث خصائص هذا النسيج في النصوص بالتركيز على ثلاث مجموعات من الروابط اللفظية والمعنوية والروابط الزمنية والروابط الإحالية مراوحا في ذلك بين التنظير والتطبيق.

* محمد العبد: " اللغة والإبداع اللغوي ".

قسم هذا الباحث الكتاب إلى جزءين، أحدهما نظري أشار فيه إلى وجهات نظر المدارس الغربية الأسلوبية منها والنصية حول تحليل النص الأدبي، وثانيهما تطبيقي قدم فيه دراسات تطبيقية على أجناس أدبية مختلفة كالشعر والرواية والمسرح من منظور لغوي نصي.

ونذكر من مؤلفاته الهامة أيضا كتاب " النص والخطاب والاتصال " الذي صدر سنة 2005 حيث ضم فيه بحوث هامة تندرج ضمن اللسانيات النصية وتحليل الخطاب بوجه عام.

* أحمد عفيفي: الذي نشر كتابا عنونه بـ" نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ".

تناول في مباحثه الستة الحديث عن مفهوم نحو النص وعلاقته بنحو الجملة ومفهوم الترابط النصي، وقد توصل الباحث إلى نتائج هامة في هذا المجال.

ومن أهم الكتب المترجمة نذكر في هذا المجال ما قدمه الدكتور سعيد حسن البحيري

حيث قام بترجمة كتاب " علم النص مدخل متداخل الاختصاصات " لفان دايك، وكذلك ما أصدرته الدكتورة إلهام أبو غزالة وزميلها علي خليل الحمد مؤلفا بعنوان " مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية روبرت دي بوغراند وفولفانج دريسلر ". وهو عبارة عن ترجمة مشروحة لنظرية دي بوغراند ودريسلر، وكتاب تحليل الخطاب لـ ج. براون G. Brown وج. يول G. Yule حيث قام بترجمته من الإنجليزية إلى العربية الدكتور لطفي الزليطني والدكتور منير التريكي، والكتاب في مجمله يتحدث عن القضايا المتصلة بالتحليل النصي أو الخطابي.

ورغم أن البحث النصي جد واسع، ويحتاج إلى جهود مضنية وإلى عمل مستمر ومتواصل، إلا أن هذه الدراسات الجادة والوافية التي ذكرناها جديرة بأن تضم إلى قائمة أهم المراجع التي تتعلق بالدراسات النصية المعاصرة.

رابعا- أهمية الدراسة النصية (أهداف علم النص):

شهد نحو الجملة أعنف الحملات، ووجد معارضة قوية وشديدة من قبل علماء آمنوا بضرورة وجود بديل منهجي لهذا الغرض، الذي تربع على عرش الدراسات اللسانية حقبة طويلة من الزمن، وبذلك توسع مجال الدراسة، ليمتد إلى علم أشمل هو علم النص.

إن الانتقال من الجملة إلى النص ليس مجرد نقلة في الحجم من وحدة أصغر إلى وحدة أكبر، بل هو تغيير في النظرة اللسانية إلى مفهوم اللغة ككل.

إن ما أنتجه هذا الحقل المعرفي الجديد من فوائد جمة هو الذي أكد أهميته في حقل العلوم الإنسانية وغيرها، وأثبت حاجتنا إليه، وفيما يلي سنتكلم عن ذلك بإيجاز.

1 - يعد علم النص وسيلة لنقل الأفكار والمفاهيم، فهدفه تطوير الاتصال اللغوي بين البشر وتحسينه وتقويته لأن «المبرر الأكبر للدراسات اللغوية هو تحسين الاتصال»[1].

كما ترى " أومن Omen " أنه: «دون الوظيفة التواصلية لا يتكون نص»[2].

وتنتج الوظيفة التواصلية من مبدأين مكونين للنص هما:

- مبدأ خاص بالحوار.

---

(1) مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، ص 241.

(2) زتيسلاف ووارزنياك: مدخل إلى علم النص، ص 39.

- مبدأ الدمج اللغوي[1].

تعني الباحثة بمبدأ الحوار أنه قد يكون الحوار من شخص لآخر، وقد يتجسد في شكل رسالة، كتابة، صحيفة... الخ، وقد يكون حوارا مع الذات حيث يكون منتج النص هو متلقيه، وتمثل أومن لهذا النوع من الحوار بدفتر الذكريات، مناجاة النفس.

وتشرح مبدأ الدمج اللغوي حيث تنطلق من مفهوم سياق النص الذي يتحقق حسب أومن من مكونات النص التي يمكن عزلها وتحليلها لغويا[2].

ومن الملاحظ أن أومن تؤكد على الوظيفة الاجتماعية للغة، وإلى ضرورة وجود الدور التواصلي الذي يعده الدرس اللساني الحديث جوهر العمليات الاجتماعية.

ولأهمية النظرة النصية وجدنا: " هاليداي " و" رقية حسن " يؤكدان أن «فهم اللغة يكمن في دراسة النصوص»[3].

إن تأكيد اللسانيين على الوظيفة الاجتماعية للغة، ودورها التواصلي يفسحان الطريق إلى النحو أن يتسع مفهومه، ليصبح مكونا من مكونات نظرية شاملة تفسر السلوك الإنساني، وهذا لا يتم إلا من خلال نص مرتبط بسياق تواصلي وليس من خلال جملة[4].

2- أثبتت الدراسات اللسانية المتعلقة بالجملة عجزها عن تفسير كثير من الظواهر التركيبية تفسيرا كافيا ومقنعا، فقد وقفت عند بعض الجوانب الخاصة بالعلاقات بين أجزاء الجملة والمتواليات الجملية، وشروط الفصل والوصل ومعاني الأساليب، ولم تخرج الدراسة عن إطار الجملة إلا في إشارات دقيقة إلى العلاقات الدلالية العميقة، التي تربط بين الجمل والمتواليات الجملية، وأنه ربما تغيرت الحال إذا اتجه الوصف إلى الحكم على هذه الظواهر في إطار وحدة أكبر من الجملة، ويمكن أن تكون تلك الوحدة هي النص[5].

---

(1) المرجع نفسه، ص 39.

(2) المرجع نفسه، ص ن.

(3) صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2000، ج1، ص 50.

(4) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 40.

(5) سعيد حسن البحيري: علم لغة النص، ص 134.

ومن هنا تغيرت الأهداف، وتحددت أهداف كبرى جديدة نصية، حيث عني هذا العلم في دراسته لظواهر نحوية للنص بظواهر تركيبية نصية مختلفة، منها علاقات التماسك النحوي النصي، وأبنية التطابق والتقابل، والتراكيب المحورية، والتراكيب المجتزأة، وحالات الحذف، والجمل المفسرة، والتحويل إلى الضمير، والتنويعات التركيبية، وغيرها من الظواهر التركيبية التي تخرج عن إطار الجمل المفردة، والتي لا يمكن تفسيرها تفسيرا كاملا دقيقا إلا من خلال وحدة النص الكلية[1].

إن تغير أهداف الدراسة وتحديد أهداف كبرى جديدة نصية يؤكد التحول في المنهج وإجراءاته، بل يؤكد تغير النظرة إلى اللغة نفسها.

3- يرى بعض الدارسين أن علم النص بإمكانه أن يضطلع بمهام لا تستطيع لسانيات الجملة أن تؤديها، وهي التمييز بين أنواع النصوص؛ حيث منها ما هو إخباري وما هو علمي، وما هو قصيدة، وغير ذلك، مما يستلزم وجود علم النصوص Science du textes الذي يجب أن يكون باستطاعته تقديم وصف وشرح للخصائص والسمات الجوهرية التي تفرق نص ما عن آخر[2].

4- إن من المهام المناطة بهذا العلم قدرته على صياغة مجموعة من القواعد والقوانين التي تمكن من حصر النصوص النحوية في لغة ما بوضوح، كما يعمل على وصف أبنيتها اللغوية ومن ثم يمكن أن يعد هذا النحو إعادة بناء شكلية للكفاءة اللسانية الخاصة بمستعمل اللغة في إنتاج عدد غير متناه من النصوص[3].

5- يقوم هذا العلم بوصف الأبنية النصية بمستوياتها المختلفة وعلاقاتها الداخلية والخارجية، والتمييز بين الأشكال المتعددة للتواصل، واستخدام اللغة، كما يتم تحليلها في العلوم المتنوعة[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص 135.

(2) جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص 68.

(3) سعيد حسن البحيري: علم لغة النص، ص 135، 136.

(4) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 247.

6- تساهم النصوص في ترابط وتكامل النشاط الإنساني، بحيث يتم الإعداد لأحداث كثيرة وتنفيذها، و توجيه السلوك الاجتماعي عند الآخرين إلى غايات محددة، بهذه الكيفية تعزز النصوص فهم الواقع، وبهذا المعنى تصبح هذه النصوص أيضا أداة مهمة لدى البشر لامتلاك الواقع والسيطرة عليه، كما تعد أساسا جوهريا لتحقيق التطور البشري، في كل الميادين الاجتماعية[1].

7- إن دراسات علم اللغة النصي تستطيع أن تعطي القارئ إدراكا لصفات صيغ التنظيم في بعض أصناف النصوص، ولتوظيف نصوص معينة في السياق الاجتماعي الملموس، وهذا يفضي بالقراء دون شك إلى درجة عليا من التغلغل الواعي المستقل في كيان النص[2]، لأن القراءة الواعية للنص هي بعث وإحياء له من جديد، وما يهدف إليه هذا العلم هو تنمية القدرة التأويلية عند القارئ، وإذا توقف القارئ عند حد القراءة فقد أراد أن يظل محتفظا لذاته بالمتعة التي تحققت له من هذه العملية على حد تعبير بارث.

8- يستهدف هذا العلم تحقيق التعاون والتداخل بين عدد من العلوم الاجتماعية والسيكولوجية والحاسوبية، ولا يمكن أن ينظر إليه على أنه امتداد للسانيات الجملة فقط، فقد نشأ من رحم علوم متداخلة.

9- إن الغرض من هذا العلم ليس إنشاء علم على غرار العلم الذي سبقه (لسانيات الجملة) وإنما الغرض منه هو توسيع مجال الدراسة لمعرفة الكيفية التي تحقق بها بعض الأسس اللازمة لتماسك النص وترابطه مثل: البحث عن الأدوات التي تساعد على تماسك بنائه واتساقه، والنظر في آليات انسجامه وترابطه الفكري، بالإضافة إلى المعايير الأخرى (الموقفية، الإعلامية، التناص... الخ).

10- يستطيع هذا العلم بإجراءاته وأدواته ومنهجه المغاير، أن يعيد النظر في كثير من المفاهيم اللغوية، لتعميقها وتثبيتها، فقد قدم الدكتور إلهام أبو غزالة وعلي خليل الحمد

---

(1) فولفجانج هاينتمن، ديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص 12.

(2) المرجع نفسه، ص ن.

دراسة تطبيقية قيمة وجادة لنص قرآني، يقول تعالى فيه: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] أسقط الباحثان أهم المقولات اللسانية النصية على هذا النص القرآني، ليثبتا مدى تماسكه وترابط أجزائه، وإحكام نسيجه، وكيف لا يكون كذلك وهو نص معجز[2].

واستطاعا أن يكشفا بواسطة الاتساق والانسجام عن ثراء النص والقدرة الكافية والفعالة فيما هو نتاج إبداعي.

تبقى أهداف هذا العلم متعددة، وفوائده متنوعة بعد أن أصبحت الحاجة ماسة إلى وضع مفاهيم ومقولات جديدة، تضم عناصر لغوية وغير لغوية تأخذ في الحسبان ظروف المتلقي وثقافته وأشياء كثيرة تحيط بالنص أثناء تحليله.

وقد تضافرت آراء اللسانيين، وتعالت صيحاتهم من مختلف أنحاء العالم، ونذكر من بينهم ج.م. آدم (فرنسا)، هاليداي ورقية حسن (بريطانيا)، فان ديك (هولندا)، وغيرهم، على أن نحو النص بالنسبة لأي لغة بعينها، هو أكثر شمولا وتماسكا واقتصادا من النحو المصور في حدود الجملة، لذلك كله أصبح هذا العلم عند كثير من اللسانيين المعاصرين ضرورة لا اختيارا إذ أن تطبيقه في حقول شتى أثمر نتائج ذات قيمة عالية خاصة في حقل التعليم، والطب والاقتصاد[3].

خامسا- مجالات تطبيق لسانيات النص:

يرى كثير من الدارسين أن السمة الجوهرية لهذا الحقل المعرفي الجديد أنه غير تخصصي أي متداخل الاختصاصات Interdisplinaire فقد استقى مفاهيمه وتصوراته وأدواته من حقول معرفية شتى.

وبالرغم من أن هذا العلم هو نتيجة لخليط متباين من المعارف إلا أن تطبيقه أثمر نتائج

---

(1) هود: 11/ 44.

(2) مدخل إلى علم لغة النص، ص 282.

(3) سعيد حسن البحيري: علم لغة النص، ص 143.

مهمة، بل ساعد على حل مشكلات عميقة نوجزها فيما يلي:

1- تمكن هذا العلم من معالجة مشكلات تتعلق خاصة بتعليم اللغة وتعلمها سواء أكانت هذه اللغة لغة أم أو لغة ثانية، إن اكتساب قدر كبير من العلم يكون بواسطة النصوص، غير أن هذا لا يتحقق إلا إذا بنيت هذه النصوص وفق مبادئ تربوية ونفسية، فيكون تحصيل العلم بواسطتها أكثر شفافية؛ إن الهدف من توظيف هذه النصوص في مجال التعليم هو تنمية وتطوير الكفاءة اللغوية للمتعلم، ولا تعني الكفاءة هنا امتلاك قواعد النحو والصرف والمعجم، وإنما تعني إلى جانب ذلك التواصل مع الآخرين باعتبار أن المهمة الجوهرية للغة تتمثل في تحسين الاتصال البشري وتطويره.

2- طبق هذا العلم تطبيقا مثمرا للغاية في مجال علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع، بعد أن تمكن من إيضاح الإشكالات التالية مثل: كيف نغير سلوكنا الشرائي تحت تأثير نص دعائي معين، أو نغير سلوكنا الانتخابي بسبب خطاب سياسي أو معلومة في الصحيفة، أو أية وسيلة أخرى، وكيف نعزف عن تفاعلنا مع مجموعات معينة تالية في المجتمع بسبب المعرفة التي نمتلكها من أناس آخرين من هذه المجموعات، وأخيرا كيف تتشكل عاداتنا وأحكامنا ومعاييرنا وأعرافنا وتقييماتنا من معلومة نصية[1].

3- أفاد هذا العلم علوم القانون[2] والاقتصاد والسياسة من جوانب كثيرة خاصة المتعلقة منها بصياغة القوانين وإبرام العقود، «وفي كل هذه الحالات تكون للنصوص سواء أكانت شفاهية أو كتابية صيغة اصطلاحية قانونية ثابتة دقيقة للغاية، مع تعبيرات خاصة وقواعد مميزة»[3].

يفيد هذا العلم في إنتاج نصوص من خلال خبرة التناص Intertextualité خاصة في

---

(1) نون فان ديك: علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ص 27.

(2) لأن هذه النصوص التي تتضمن مصطلحات قانونية، تنطوي على أحكام تتعلق بإدانة شخص معين أو الإفراج عنه، ومن هذا المنطلق لابد أن تصاغ القوانين صياغة واضحة ومحددة، بحيث تخدم الغرض، دون المساس بالآخرين.

(3) المرجع نفسه، ص 29، 30.

المجالات التي تتطلب خبرة خاصة مثل كتابة التقارير والبروتوكولات والتلخيصات ونحو ذلك[1].

4- يعد علم النص الركيزة الأساسية في إعداد برامج الترجمة في الجامعات والمؤسسات التعليمية، إذ ثبت أن التطور الحديث في الدراسات الترجمية قد تأثر إلى حد كبير بالتطور الذي لحق الدراسات الألسنية، وقد أثر التطور في هذا المجال في تكوين النماذج المختلفة التي تكون عليها نظرية الترجمة المعاصرة[2].

ويشير بعض الدارسين إلى أنه يمكن للسانيات النص أن تفيد مجال الترجمة كثيرا، بعكس لسانيات الجملة التي تنظر إلى اللغة على أنها بنية شكلية مغلقة لا علاقة لها بالسياق، لأن الترجمة من أمور الأداء، وليس التحكم في قضايا النحو والمعجم فقط كافيا للقيام بالترجمة، بسبب الحاجة إلى الترابط في استعمالات اللغة، وذلك من الوظائف الأساسية لهذا العلم[3].

وفي هذا السياق يرى باسل حاتم[4] أن أخطاء الترجمة لا تنجم من عدم معرفة الوحدات المعجمية أو القواعد النحوية، إنما تنجم من جانب طال إهماله في مجال تدريس اللغات والترجمة، وهو الجانب الذي يتعلق بمعرفة السياق Context والبنية Structure والنظم Testure[5].

5- كما طبق هذا العلم تطبيقا مثمرا أيضا في مجال تحليل المحادثة أو الحوار في الطب النفسي والعلاج النفسي ومعالجة أمراض الكلام وغيرها.

إن المحاورة التي يجريها الطبيب النفساني مع المرضى المصابين بالحبسة، أو الفصام،

---

(1) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص 47. وللاستزادة انظر زتيتيسلاف واور زينياك: مدخل إلى علم النص، ص 159.

(2) المرجع نفسه، ص 05.

(3) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 41.

(4) باسم حاتم: مشرف على برامج الترجمة في جامعة هاربوت البريطانية، اتجاهاته في عملية الترجمة تعتمد على نظرية " علم النص ".

(5) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص 105.

وكذلك المرضى المصابين بالأمراض العصبية، والأشخاص الذين يعانون من مشكلات نفسية، في هذه الحالات لا تقدم المحاورة للطبيب معلومات حول أسباب ودوافع الاضطراب فحسب، بل يمكن أن تمارس في الوقت نفسه تأثيرا طبيا مهما، وهذه المحادثات والتقارير تتصل بعلم النص اتصالا وثيقا؛ بل تمثل موضوع اهتمام هذا العلم، لأنها تزودنا ببيانات حول العلاقات بين الأبنية النصية والأبنية النفسية[1].

وبعد أن قمنا بسرد سلسلة من النتائج التي قد يفيد بها علم النص حقول معرفية متنوعة، وبعد تحديدنا للجهاز المصطلحي، والتقسيم النظري الذي سيقوم عليه التحليل، نحاول في القسم الثاني من الدراسة إسقاط هذه المفاهيم النظرية على النصوص المقامية المختارة، لنثبت مدى تماسكها وتلاحم أجزائها وإحكام نسيجها حتى تبدو نصا واحدا. ويلتزم تحليل أبعاد هذا النص التراثي قدر الإمكان منهجا علميا يمكن من خلاله أن نرى النص التراثي القديم بعين مغايرة عن تلك التي اعتدناها.

ومن هنا فإن التوجه بالتحليل نحو المقامات -الهمذانية أو غيرها- هو ما يفتح إمكان التعمق في إدراك وفهم أبعاد هذا النموذج السردي الذي ربما استمر لو توافرت له الظروف الملائمة، إنه وبكل اختصار كنز يقتضي الكشف عنه جهود مستمرة ومتواصلة.

(1) نون أفان دايك: علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ص 35.

القسم الثاني

مقاربة تطبيقية

دراسة لسانية نصية

لمختارات من مقامات بديع الزمان الهمزاني

مدخل
شخصية بديع الزمان
ودورها في الفن المقامي

- **تمهيد**

1- شخصية بديع الزمان الهمذاني

2 - نشأة المقامات

3 - الخصائص العامة لفن المقامات

قال الثعالبي (ت 469هـ):

«نصوص الأدب كثيرة، ونكتها قليلة، وأنوار الأقاويل موجودة، وثمارها عزيزة، وأجسام النثر والنظم جمة، وأرواحها نزرة، وقشورهما معرضة، ولبوبهما معوزة».

تمهيد

تقتضي الدراسة النصية Textualité تجاوز حدود ما تخبر به لغة النص إلى محاولة معرفة منتج النص، ومتلقيه، والظروف الاجتماعية والنفسية وغيرها التي أبدع فيها، ومن هنا يحق لنا أن نتساءل: كيف يمكن أن يكون للبيئة تأثير على مبدع النص؟

وللإجابة على هذا السؤال يكفي أن نشير إلى ما بينه " جيفلور Gifflor " في دراسته الجادة عن الإبداع Créativité[1] إذ يرى أن ما يحس به الفنان من مشكلات عميقة يدفعه ذلك إلى أن ينتقي من محيطه ما يشاء، وبواسطة إدراكه يعيد تنظيم تلك المشكلات في صور فنية، ساعيا لوضع حلول افتراضية لها إذا شاء، وهو في كل ذلك يستخدم ما أوتي من طلاقة ومرونة وأصالة[2].

ولعل هذا ماينطبق على كاتب المقامات، إذ نجد أن بديع الزمان الهمذاني (ت 398هـ)، قد أدرك بسعة عقله الواقع المرير الذي آل إليه المجتمع الإسلامي، بعد قيام الدولة العباسية، ذلك الواقع الذي عاش فيه بديع الزمان، وتأثر به غاية التأثر، مما دفعه إلى تصوير تلك الأوضاع الفاسدة في مجتمعه، فحدث عنها بقلمه.

كما نقلت مقامات الهمذاني الأوضاع المزرية التي آل إليها أهل العلم ورجال الأدب، حيث تحول الكثير منهم إلى مكدين أمام أعتاب البلاط.

ومما لاشك فيه أن هذه الأوضاع قد تركت في نفس البديع أعمق الأثر وحركت ذاته ليبدع فن المقامات.

---

(1) يختلف مفهوم الإبداع عن مفهوم الإبداعية عند تشومسكي؛ تمثل الابداعية créativité إحدى الصفات الأساسية التي تتمتع بها اللغة بحيث يمكن أن توفر للإنسان الوسائل اللازمة لكي يعبر بصورة غير متناهية عن أفكار متعددة، ويتعلق مفهوم الإبداع بالقدرات والمواهب التي يمتلكها الفنان، بواسطتها يستطيع أن يبدع فنا.

(2) انظر يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص 3، 14.

أما فيما يتعلق بشخصية الهمذاني الذي هو مبتغى دراستنا، فعلى الرغم من شهرته وذيوع صيته، ووجود ترجمات عدة له[1] موزعة في كتب الأدب والتراجم، إلا أن جوانب كثيرة من حياة بديع الزمان لا تزال غامضة، ولا يزال الدارس في جهد متواصل حتى يلم بأبعاد كثيرة تتعلق بشخصيته.

وما زالت الآراء تتضارب حول أصله، ومعتقده، وظروف معيشته، وهل هو من أبدع فن المقامات أم أن هناك من سبقه إليه؟ وما هي أسباب تفوق الحريري (ت 516هـ) على الهمذاني رغم اعتراف الحريري بأن بديع الزمان له أفضلية السبق والريادة في هذا المجال، وأن المنشئ بعده مقامة، ولو اغترف من بلاغة قدامة، لا ينهل إلا من بحره، ولا يسري إلا بدلالته[2].

فالهمذاني قدوة الحريري، وقريع الخوارزمي (ت 383هـ)، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وفريد دهره، وغرة عصره، ما أنجبت همذان بعده مثله حسب ما وصفه بذلك كثير

---

(1) من الكتب القديمة التي وردت فيها ترجمات للهمذاني نذكر:

أ- أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ج4، ص 293.

ب- ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب من 325هـ إلى 463هـ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج3، ص 286.

ج- أبو العباس أحمد بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق يوسف علي الطويل ومريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، مج1، ص 367.

ومن المراجع الحديثة نذكر:

د- مارغليوث: دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة أحمد الشتناوي وابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ط، د ت، مادة الهمذاني، مج3، ص 471.

هـ- حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط3، 2003، مج 2، ص 91.

و- مارون عبود: أدب العرب مختصر من تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1979، ص 318 وغيرها من الكتب الحديثة.

(2) أبو العباس الشريشي: شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج1، ص 07.

من العلماء من مثل أبي منصور الثعالبي (ت 469هـ)[1].

عاش أديبا فذا ومات شابا، بعد أن قدم للفكر العربي آثارا جليلة وفنونا بديعة، ولا يزال السؤال قائما لماذا عده كثير من المستشرقين فارسي الأصل وليس عربيا؟ ولماذا لم يتفطن نقاد عصره (أي نقاد القرن الرابع الهجري) إلى قيمة إبداعاته؟

كل هذه الأسئلة وغيرها ما زالت تشغل بال الدارسين، وسنحاول من خلال هذه الدراسة الإجابة على بعضها، معتمدين على ما توفر لنا من مراجع.

أولا- شخصية بديع الزمان:

1- المولد والمنشأ:

أثنى المؤرخون كثيرا على ترجمة الثعالبي لبديع الزمان الهمذاني[2] فقد عقد الثعالبي في كتابه " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " بابا خاصا لبديع الزمان، وهو في عمومه إطراء لموهبته، الذي فاق أقرانه بفضل سرعة خاطره، وقوة بديهته، ونفاذ قريحته.

يذكر الثعالبي أن بديع الزمان الهمذاني هو أحمد بن يحي بن سعد بن بشر الصفار المكنى بأبي الفضل[3] المشهور ببديع الزمان الهمذاني ولقبه هذا دليل على ذيوع صيته وسمو مكانته في عالم الأدب، لما قدم للفكر العربي من آثار جليلة وفنون رفيعة جديرة بكل عناية، قال الشاعر[4] (بسيط):

وَقَلَّمَا أَبْصَرتُ عَيْنَاكَ مِنْ رَجُلٍ إِلَّا وَمَعْنَاه إِنْ فَتَشْتَ فِي لَقَبِهِ

ومع ذلك فإن ثمة اعتقادا بأن الهمذاني لم يحصل على هذا اللقب " بديع الزمان " إلا في مرحلة متأخرة من حياته وتحديدا مع الثعالبي والحصري[5].

---

(1) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج4، ص 293.

(2) المرجع نفسه، ص 258.

(3) نادر كاظم: المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 80.

(4) المرجع نفسه، ص ن.

(5) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني، رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 2003. وللاستزادة انظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين،=

ويذكر الثعالبي أيضا أن مولده كان في شمالي فارس وبالتحديد في همذان ومن ثم اكتسب نسبته إليها، إلا أنه لم يحدد موعدا لتاريخ ميلاده غير أن بعض المراجع تشير إلى أنه كان في ثلاث عشرة (13) جمادى الثانية سنة 358هـ الموافق لسنة 968م.

نشأ الهمذاني في أسرة اشتهرت بالعلم والاستقامة والتدين، وكان أخوه " أبو سعد محمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفار " يشغل منصب مفتي همذان[1].

تتلمذ بديع الزمان على يد أبي الحسين أحمد بن فارس (ت 395هـ) عالم اللغة الكبير[2]، فأخذ منه العلم النافع، وقد ظل هذا الأديب محافظا على أواصر العلاقة بينه وبين أستاذه، وفيا له، مداوما على الكتابة إليه حتى بعد مفارقته همذان، ويدل هذا على ما اتسم به هذا الرجل من الإشراق النفسي والخلقي والاستقامة.

أتقن بديع الزمان العلم باللغتين الفارسية والعربية، ولم يترك أديبا في همذان إلا أخذ عنه واستفاد من علمه[3].

وقد ظن بعض الدراسين أن الهمذاني فارسي الأصل، لسبب بسيط هو أن هذا الأديب عاش في بلاد فارس، ولم يخرج عن البيئة الفارسية طيلة حياته إلا قليلا، والحقيقة أنه عربي الأصل، سني المذهب على الرغم من أنه عاش في منطقة فارسية، يغلب عليها المذهب الشيعي.

يقول البديع فيما نقل عنه وهو يعتز بعروبته أنه وإن لم يكن خرساني الأصل، فإن خرسان هي مدينته التي عاش فيها، والإنسان لا يثبت نسبه من حيث المكان الذي نشأ فيه، وإنما من حيث الطينة التي تشكل منها[4].

= بيروت، لبنان، ط1، 1968، ص 408.

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص 162.

(2) هو أبو الحسين بن فارس بن زكريا بن الحبيب القزويني الهمذاني الرازي اللغوي ولد سنة 206هـ، كان بارعا في علوم كثيرة، من مؤلفاته " الصاحبي في فقه اللغة " و" أصول الفقه " و" المجمل في اللغة "، وله شيء من الشعر.

(3) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط8، 2004، ص 175.

(4) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص 202.

ولم يقف به الأمر عند هذا الحد، وإنما جرى قلمه بالتعريض بأعياد الفرس مثل السذق[1] فهو يرى أن عيد الوقود عيد كفر وإفك وأن الاحتفال بالنار لدليل على الضلالة والغواية لأن الله ما أنزل بالسذق سلطانا[2].

ومن ثمة فقد أخطأ من عده من كتاب الفرس وأدبائها وبخاصة المستشرقين[3].

عاش بديع الزمان فقيرا[4] على الرغم من إجماع المؤرخين على نبوغه، وتفوقه على أقرانه، يقول الثعالبي في شأنه: «... بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر، وغرة العصر ... ولم ير ولم يرو أن أحدا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره»[5].

فإذا كانت هذه هي حال بديع الزمان فلماذا اتصل البؤس والشقاء بحياته؟ يرجع بعض الدارسين بؤس وشقاء الهمذاني في حياته رغم علو مرتبته في الأدب إلى الأسباب الآتية[6]:

* قلة حيلته.
* عروبته.
* انحيازه إلى المذهب السني، في بيئة يسيطر عليها الشيعة.

فأنى يكون لهذا الرجل سلطان، أو مكانة رفيعة في بلاد الفرس أو في معقل الشيعة وهو دائم الاعتزاز بعروبته، كثير الانحياز إلى مذهبه السني؟

غير أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن بديع الزمان، بعد أن حط رحاله بهراة فاتخذها دار إقامة، وبعد مصاهرته لأبي علي الحسين بن محمد الخشنامي أحد أعيان هذه المدينة وسادتها،

---

(1) كان البديع ينكر على العرب احتفالهم بالأعياد الفارسية وبليلة السذق وهي عيد من الأعياد الفارسية والسذق ليلة الوقود، كان الفرس يشعلون فيها النيران ويضيئون الشموع.

(2) ينظر عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص 409.

(3) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، ص 18.

(4) يذهب يوسف نور عوض إلى القول بأن بديع الزمان عاش طول حياته فقيرا وهذا يخالف ما ذهب إليه ياقوت الحموي بأن البديع أصاب خيرا كثيرا في فترة متأخرة من حياته.

(5) أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ص 293.

(6) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 48.

تحسنت أحواله وأصاب خيرا كثيرا[1].

2- رحلاته وتنقلاته:

بدأ بديع الزمان الهمذاني رحلاته، في سن مبكرة لم يتجاوز الثانية والعشرين من سني عمره، وكان ذلك سنة 380هـ/ 990م[2].

كانت أصبهان أولى المدن التي حط فيها رحاله، واتصل فيها بالصاحب بن عباد[3]، فأصاب عنده جاها ومكانة وسرعان ما ساء ما بينهما وتهاجيا[4]، فغادرها إلى جرجان وأقام فيها مدة على مداخلة الإسماعيلية وفيها توفر على ملازمة أبي سعيد بن منصور الإسماعيلي الذي كان يوصف بـ" الرئيس العلامة أو الرئيس الفذ "[5].

ولم تدم إقامة بديع الزمان في جرجان حتى قدم إلى مدينة أخرى هي نيسابور، التي اشتهرت آنذاك بالعلم والأدب، وكان يسكنها أبو بكر الخوارزمي (ت 384هـ) الأديب المشهور، حاول الهمذاني الاتصال به لينال شيئا من الحظ الأدبي على يديه إلا أن الخوارزمي صده ولم يحسن وفادته، فأخذ يراسله معاتبا فحدثت بينهما جفوة، أدت إلى المناظرة الشهيرة التي كان الفوز فيها لبديع الزمان بفضل سرعة خاطره، ونفاذ قريحته، فذاع بعدها صيته وطبقت شهرته الآفاق[6].

زار بديع الزمان سجستان، فأكرمه أميرها خلف بن أحمد، وأحسن وفادته، لأنه كان مولعا بالأدباء والشعراء، فأهداه أديبنا مقاماته ثم انتقل إلى غزنة واستقر فيها حينا ثم حط رحاله أخيرا في هراة ليتخذها دار إقامة في حياته ومماته.

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص 167.

(2) حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ص 191.

(3) هو كافي الكفاة أبو القاسم اسماعيل بن أبي الحسن عباد (ت335هـ) ابن العباس أحمد بن ادريس، ولد في الطالقان من أعمال قزوين سنة 326، تلقى العلم على يد أحمد بن فارس وابن العميد، كان أديبا مترسلا وشاعرا وعالما (ت385هـ).

(4) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، ص 18.

(5) المرجع نفسه، ص ن.

(6) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص 166.

3- الهمذاني وفن المقامات:

أملى الهمذاني أربعمائة مقامة في الكدية وغيرها، ولم نحصل منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده (ت 1905هـ)[1].

إلا أن بعض الدارسين يذهب إلى أن عدد المقامات الذي وصلنا هو اثنتان وخمسون مقامة فقط، وقد تعمد ناشرو مختلف طبعات هذه المقامات ترك المقامة الشامية لما احتوته من ألفاظ فاحشة، فلم يبق منها سوى إحدى وخمسون مقامة[2].

لم تحظ مقامات البديع باهتمام نقاد القرن الرابع الهجري، لانشغالهم بالأدب العربي القديم، وإغفالهم مؤلفات عصرهم بما فيها من حداثة وجدة وحلاوة القرب من العهد[3].

لم يلتفت إلى القيمة الفنية لهذا اللون النثري، ولم تستشعر جدته إلا في أواخر القرن الرابع الهجري، وبالتحديد مع أبي منصور الثعالبي (429هـ) وأبي إسحاق الحصري (ت 413هـ)، فقد توج هذان الناقدان الهمذاني بديعا للزمان، ومقاماته نصا أدبيا رفيعا، ونموذجا في الكتابة النثرية بديعا.

تبوأ بديع الزمان مكانة رفيعة، لدى الثعالبي في كتابه " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " ولـدى الحصري في مؤلفه " زهر الآداب " ويعلل ذلك نموذجية ما اختارا[4].

طار صيت الهمذاني في الآفاق، واتسعت شهرته، وغدا نص المقامات نموذجا فنيا يسحر العقول ويملك القلوب.

ويذكرياقوت الحموي (ت 626هـ) في شأنه أن همذان ما أنجبت بعده مثله، وكان فريد دهره ومن مفاخر بلده[5].

وما كاد القرن الخامس يأفل حتى أفل معه نجم الهمذاني بسرعة، لتتصدر مقامات

---

(1) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص 176.

(2) الهمذاني: مقامات الهمذاني، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 1988، ص 02.

(3) أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج1، ص 04.

(4) نادر كاظم: المقامات والتلقي، ص 82.

(5) معجم الأدباء، ج2، ص 162.

الحريري الواجهة، وتتوارى مقامات الهمذاني في الظل فأقبل على مقامات الحريري خاصة الناس وعامتهم، حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة[1].

إن هذا الكلام يفضي بنا إلى طرح السؤال الآتي:

لماذا حظيت مقامات الحريري باهتمام العلماء والأدباء، وإقبال الخاصة والعامة؟ وما الأسباب التي أدت إلى تفوق الحريري على الهمذاني، رغم اعتراف الحريري بأسبقية البديع وريادته في هذا المجال؟

يرجع الدارسون أسباب هذا التفوق إلى:

- أن الحريري ومن حذا حذوه لم يقفوا عندما أبدعه الهمذاني ومعاصروه، بل مضوا بما اجترحه الهمذاني ومعاصروه إلى ذروته القصوى[2].
- كان الحريري يشرف على مطابقة تدوينات مؤلفه ودقتها، وكان هو وأولاده وأحفاده يمنحون إجازات السماع[3] والإقراء للعلماء الراغبين في قراءتها وتدوينها[4].

أما مقامات الهمذاني فلم تحظ بنصيب وافرمن الاهتمام والتدوين، وأن استنساخها كان بعد وفاته، وقد كان ذلك اختيارا فرديا من أحد المتعصبين له، أو من أحد أصحابه، وقد كانت هذه النسخ عادية، بخلاف نسخ الحريري التي زينها محمود الواسطي بمنمنمات، وتصاوير شارحة في مخطوطته المشهورة لمقامات الحريري[5].

إن تضافر كل هذه العوامل أدى إلى إحاطة مقامات الحريري بالرهبة ومن ثم شق الحريري طريقا واسعا للشهرة في بلاد المغرب وغيرها.

---

(1) أحمد بن علي بن القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج14، ص 125.

(2) نادر كاظم: المقامات والتلقي، ص 125.

(3) إجازات السماع: تعني الإذن والترخيص الذي يمنحه المؤلف أو ما ينوب عنه، برواية للكتاب ونقله وتعليمه، تطرق جلال الدين السيوطي في كتابه المزهر لإجازات السماع وقد قسمها إلى ستة أنواع انظر المزهر، ج1، ص 144 و167.

(4) نادر كاظم: المقامات والتلقي، ص ن.

(5) المرجع نفسه، ص 129.

4- وفاته:

عاش بديع الزمان حياته متنقلا في بلاد فارس، بين همذان، وأصبهان، وجرجان ونيسابور، وسجستان، وغزنة ليحط رحاله أخيرا في هراة، ليتخذها دار إقامة في حياته ومماته، وكما تذكر كتب التاريخ فقد كانت هذه البلدة جميلة ذات زروع وزهور، فلا عجب أن يختارها الهمذاني ليلفظ أنفاسه الأخيرة بها وهو رجل فنان بطبعه.

ولقد اتفق المؤرخون على أن أبا الفضل أحمد بن الحسين وافته المنية يوم الجمعة في جمادى الآخرة سنة 398هـ الموافق لـ 1007م قبل أن يجاوز سن الأربعين.

ويُذكر رأيان في وفاته: أنه مات مسموما، وثانيا وهو ما ذهب إليه كثير من مؤرخي الأدب أنه أصيب بالسكتة، وعجل بدفنه، فأفاق في جدثه، وسمع صوته في الليل فنبش عنه فوجدوه قد مات قابضا على لحيته بيده من هول القبر[1].

5- آثاره:

عاش الهمذاني أديبا كبيرا، ومات شابا، بعد أن أوجد في مجال النثر ديباجة تعدل في شرفها ديباجة القصيدة الجاهلية[2] فحاول من جاء بعده اقتفاء أثره وله من المؤلفات:

* رسائل مجموعة في كتاب يعرف برسائل بديع الزمان، طبعت في الأستانة سنة 1890هـ، مع رسائل الخوارزمي، تعد هذه الرسائل «النص الموازي لمقامات البديع»[3].

وتكشف هذه الرسائل عن علاقات شخصية، واجتماعية للهمذاني ورأيه في بعض المسائل الأدبية وتنبىء أيضا عن طريقة إبداعه لهذا الفن، وكيفية تلقي معاصريه له، وموقفهم منه.

* ديوان شعر منه نسخة خطية في مكتبة باريس، وقد طبع بمصر سنة 1321هـ.

---

(1) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج3، ص 287.

(2) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 10.

(3) يسمى سعيد يقطين هذا النوع من النصوص التي يتم إنتاجها بموازاة النص الأصلي " المناص الخارجي " انظر كتابه: " الرواية والتراث السردي "، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص162.

* مقامات تعرف باسمه، بلغ عددها أربعمائة مقامة، حسب ما ذكره المؤرخون وصلت إلينا منها واحد وخمسون مقامة[1].

إن كل من يطلع على هذه المقامات يدرك أن هذا الفن النثري يستعوب عددا هائلا من الأنواع الأدبية، إنه يستوعب مختلف فنون القول والكتابة، حيث نجد فيه: الشعر، والرجز، والألغاز، والأحاجي، والأمثال، والنوادر، والوصف، والمدح، والجد، والهزل، والمواعظ، والأضاحيك.

ثانيا- فن المقامات:

1- المقامة في اللغة:

تعريفها يصادفك في تضاعيف المعاجم العربية القديمة، نجده في الصحاح للجوهري (ت 393هـ)[2]، وفي أساس البلاغة للزمخشري (ت 538هـ)[3]، وفي لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ)[4]، وغيرها من المعاجم العربية، أن المقامة تعني المجلس ومقامات الناس مجالسهم.

ويرى ابن منظور[5] أن كلمة مقامة استعملت بمعناها المجازي لتدل على القوم الذين يجلسون في المجلس.

---

(1) طبعت مقامات الهمذاني، وعليها شرح لمحمد عبده لأول مرة سنة 1889 وقد أنجز محمد عبده تحقيقه وشرحه للمقامات، أثناء إقامته بمنفاه في بيروت، وقد سبقت طبعة محمد عبده بطبعات عديدة، فقد طبعت على الحجر في طهران (1296هـ/ 1889هـ)، وفي الهند في السنة ذاتها، وطبعت كذلك في بولاق (1291هـ/ 1874هـ)، وفي اسطنبول القسطنطينية (1298هـ/ 1881هـ)، وفي القاهرة (1304هـ/ 1886هـ)، وطبعت مع ترجمة هند ستانية لوكيل أحمد اسكندر بوري في لكنو (1306هـ/ 1889هـ)، وطبعت في القاهرة وعليها شرح لمحمد محمود الرافعي سنة 1910م.

(2) أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل الطريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ج5، مادة (ق.و.م)، ص 396.

(3) جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، قدم له وشرح غريبه وعلق عليه محمد الأحمد قاسم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 710. مادة (ق.و.م).

(4) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، د ت، مج 12، ص 224. مادة (ق.و.م).

(5) المرجع نفسه، مج 12، ص ن.

ويضيف أيضا[1] أن المقامة بضم الميم (الإقامة) يقال أقام الرجل إقامة ومقامة (كالمقام والمقام) بفتح الميم وضمها.

وبديع الزمان نفسه يستعمل المقامة بمعنى مجلس قال في المقامة الوعظية[2]: «قَالَ عِيسَى بنُ هِشَامٍ: فَقُلْتُ لِبَعْضِ الحَاضِرِينَ: مَنْ هَذا؟ قَالَ: غَرِيبٌ قَدْ طَرَأَ لاَ أَعْرِفُ شَخْصَهُ، فَاصْبِرْ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ مَقَامَتِهِ، لَعَلَّهُ يُنْبِئُ بِعَلاَمَتِهِ...».

2- المقامة البديعية أو الفنية:

تعني المقامة الفنية الجنس الأدبي الذي ظهر في القرن الرابع الهجري وبالتحديد في العصر العباسي، الذي ازدهرت فيه مختلف الفنون النثرية، ويعود فضل إنشائها إلى بديع الزمان الهمذاني[3] ولذلك نسبناها إليه.

والمقامة قصة أو حكاية قصيرة بطلها شخصية خيالية تتصف بالكدية والاحتيال، تقوم على حدث طريف أو ملحة، وتتميز بأسلوب أنيق، وليس الغاية من إنشائها تذوق جمال القصص ولا إفادة الوعظ ولا تحصيل العلم، وإنما هي قطعة أدبية فنية قد يقصد بها " الفن للفن" وتجمع شوارد اللغة ونوادر التركيب في أسلوب مسجوع وموشى بحلل البديع، يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد ولم تراع قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع وإنما صرفوا جهودهم إلى تحسين الألفاظ وتزيينها[4].

يرى كثير من الدارسين أن موضوعات المقامة تدور أغلبها حول الكدية والاحتيال والحقيقة أن الكدية صفة لصيقة بالبطل وحده، وأن لكل مقامة موضوعا خاصا؛ اجتماعيا، دينيا، وفلسفيا،...[5].

---

(1) المرجع نفسه، مج 12، ص ن.

(2) أبو الفضل أحمد بن الحسين: مقامات بديع الزمان الهمذاني، قدم لها و شرح غوامضها الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2003، المقامة الوعظية، ص 151.

(3) يسمي يوسف نور عوض المقامة التي أنشأها بديع الزمان المقامة البديعية لأنه يعود له فضل إنشائها. انظر: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 08.

(4) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص 292.

(5) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 08.

أسند بديع الزمان الهمذاني البطولة في مقاماته إلى أبي الفتح الاسكندري، وأسند رواية أحداثها إلى عيسى بن هشام، وتجمع البطل والرواية صلة وثيقة ومعرفة قديمة، فهو يراه في كل حادثة ويسمعه في كل مجلس، ثم يروي ملحه وطرائفه واحتياله للناس.

3- نشأة المقامة[1]:

اختلف الدارسون حول هذا الفن: هل هو عربي خالص أم أنه صدى للأدب الفارسي؟ وهل منشئه الحقيقي بديع الزمان أم أن هناك من سبقه إليه؟ وهل تأثر بديع الزمان بنماذج إنسانية ألهمته إبداع هذا النموذج الفني أم أنه أوجده من عدم؟

للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها، لابد من استعراض أراء الباحثين حول هذه القضية.

يرى الأستاذ أحمد ضيف[2] أن المقامة أصلها فارسي، وأنها انتقلت من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، وهذا القول مردود عليه، باعتراف مؤلف فارسي هو محمد تقي بهار في كتابه " سبك شناسي يا تاريخ تطور نثر فارسي "[3]: الذي يرجح أن لفظ مقامة من ابتكار بديع الزمان الهمذاني، ذلك أن لكل اختراع في الأدب العربي إلا وله صدى في الأدب الفارسي.

ويرى المؤلف أن ظهور المقامات في النثر الفارسي يعود[4] إلى القرن السادس الهجري، ومثل بمقامات القاضي حميد الدين عمر بن محمد المحمودي البلخي (ت 559هـ) كنموذج لذلك.

وأضاف أن القاضي حميد الدين أراد تقليد مقامات كل من بديع الزمان والحريري، ولكنه تأثر ببديع الزمان وقلده أكثر، كما يبدو ذلك من المقامة الثانية والعشرين المسماه "

---

(1) أول من اهتم من أدباء العربية بنشأة المقامة هو أبو إسحاق الحصري القيرواني، حينما كتب عن بديع الزمان الهمذاني في مؤلفه زهر الآداب إذ يذهب إلى أن الهمذاني عارض بمقاماته أربعون حديثا لابن دريد وإن ذهب من جاء بعده من الأدباء إلى القول بأن هذا افتراء على بديع الزمان.

(2) انظر: يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص09.

(3) انظر: مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، ص 300.

(4) المرجع نفسه، ص ن.

المقامة الشكباجية " التي هي نفس ترجمة وتقليد المقامة المضيرية لبديع الزمان[1].

إن هذه الشهادة القيمة، والاعتراف الموضوعي العادل، من قبل مؤلف فارسي فيهما إنصاف كبير للأدب العربي من ناحية، ولبديع الزمان الهمذاني من ناحية أخرى، بل يمكن الجزم أن هذه الشهادة تعد دليلا قاطعا على عروبة المقامات، وأنها ليست صدى للأدب الفارسي.

وعن المنشئ الحقيقي للفن المقامي، يذهب المستشرق الإنجليزي " مارغوليوث " في دائرة المعارف الإسلامية إلى أن بديع الزمان زعم أنه مبتكر فن المقامات، والحقيقة أن أبا بكر ابن دريد هو الذي أنشأ هذا الفن[2]. ويميل إلى هذا الرأي زكي مبارك الذي ذهب إلى أن عمل المقامات ليس من ابتكار الهمذاني ولكنه عارض بها أربعين حديثا أنشاها ابن دريد، ويقر " جورجي زيدان " أن أحمد بن فارس له فضل السبق في وضع المقامات؛ لأنه كتب رسائل نسج على منوالها العلماء، واشتغل عليها بديع الزمان الهمذاني[3].

ويجزم " مارون عبود " بكل وضوح أن فن المقامة من إبداع الهمذاني، فلا لابن فارس، ولا لابن دريد يد في إنشائها ويرى أن مبدعها الحقيقي هو بديع الزمان الهمذاني، وأن الكتاب الذين جاؤوا بعده قد وقفوا عند ما اجترحه البديع، ولم يزيدوا عليه فله فضل الريادة والأسبقية في هذا المجال، ولم يتفوق عليه إلا الحريري لما تتميز به لغته من شرف اللفظ، وجودة المعنى[4].

يتّضح من كلام مارون عبود أن البديع أنشأ هذا الفن من عدم، وأنه لم يتأثر بأي نموذج فني سبقه، وهذا الرأي لاشك أن فيه إعادة نظر. أما " عبد المالك مرتاض " فيذكر أن البديع هو مؤسس فن المقامة وهو نفس ما ذهب إليه مارون عبود، إلا أن مرتاض لا ينكر تأثر بديع

---

(1) المرجع نفسه، ص 301.

(2) دائرة المعارف الإسلامية: مادة الهمذاني، مج3، ص 471.

(3) تاريخ الآداب العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1993، ج2، ص 619.

(4) أداب العرب، ص 318.

الزمان بسواه؛ فمن التعسف أن يجزم أي باحث بأن البديع أوجد مقاماته من عدم[1].

فإذا لم يكن البديع قد أنشأ مقاماته من عدم، فلاشك أن هناك نماذج إنسانية قد تأثر بها، وساعدته على إلهام نموذجه المقامي، وهذا ما أكده يوسف نور عوض، إذ أشار إلى أن هناك جملة من المؤثرات الفنية، والأدبية أحدثت أثرها في صناعة المقامة، تمثلت أساسا في[2]:

- كتاب البخلاء للجاحظ.
- رسالة التربيع والتدوير.
- حكاية أبي القاسم البغدادي.
- رسائل إخوان الصفا.

بالإضافة إلى ما وجد في الأدب العربي من حكايات شعبية مثل حكاية عنترة بن شداد الذي عبر مؤلفو سيرته من خلال شخصيته عن القيم والعادات العربية، كما أبدعت مخيلتهم تصوير شخصيات حقيقية لتصبح ذات مدلولات رمزية كبيرة، من ذلك شخصية حاتم الطائي، كما كانت لديهم بعض القصص المترجمة كقصة كليلة ودمنة، وقصة ألف ليلة وليلة.

فإذا كان الأول نقلا للواقع الاجتماعي على لسان الحيوان، فإن الثاني يرمز إلى نوع من المقاومة السلمية.

وبعد هذا العرض للآراء المختلفة حول أصل المقامة، ومنشئها الحقيقي والمؤثرات التي أوجدتها، نخلص إلى أن هذا الفن ينحدر من أصل عربي، وأن بديع الزمان هو مبتكره، وأن هناك جملة من المؤثرات الفنية والأدبية هي التي أوجدته.

4- الخصائص العامة لفن المقامة:

يتميز النموذج المقامي لبديع الزمان الهمذاني ومن اقتفى أثره بمجموعة من الخصائص نجملها فيما يلي:

- لكل مجموع مقامات مجلس واحد لا تنقل منه إلا نادرا أي (وحدة مكان ضيقة)[3] ولها

---

(1) المقامات في الأدب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1988، ص 139.

(2) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 58.

(3) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص 414.

بطلان هما: الرواية والمكدي.

أما الراوية: فهو الشخص الذي ينقل أحداث المقامة عن المجلس الذي تحدث فيه.

وأما المكدي: فهو في الغالب شخص خيالي وظيفته النصب والاحتيال على الناس حتى يحصل على ما يرغب عليه، وشخصية البطل هذه في الحقيقة هي انعكاس لشخصية المؤلف الذي يتميز بذكائه الحاد، وفطنته الشديدة، واطلاعه الواسع على العلوم الكثيرة، وقدرته الكبيرة على نظم الشعر، وحل الألغاز، وتأليف الخطب وقول الأحاجي.

كما أن لكل مقامة اسم خاص بها، وأسماء المقامات في الغالب مأخوذة من أسماء المدن أو المحلات أو بعض الأكلات الشعبية كالمقامة المضيرية مثلا.

وللمقامات موضوعات متعددة ومتنوعة منها: الأدبي، والفقهي، والفكاهي، والخمري، والمجوني[1]، وهذه المواضيع في الغالب تخدم غرضا واحدا يتمثل في تقديم صورة شاملة لواقع البيئة، وتصوير أحوال الناس في ذلك العصر، ويزخر أسلوب المقامة بمختلف الألوان البيانية، من تشبيهات واستعارات وكنايات. أما المحسنات البديعية فهي مطردة ولا تخلو منها مقامة وبخاصة السجع فقد أكثر منه إلى حد الإفراط.

وقد حرص مؤلفو المقامات على انتقاء الألفاظ، وتوليد الصور، والإكثار من اقتباس الشعر، أما ظاهرة التضمين فواضحة لديهم، وأكثر ما تتجلى في المعنى القرآني، والحديث الشريف، والأمثال السائرة.

وتعد المقامات تحفة رائعة من تحف الأدب العربي، وفتحا جديدا لمحاولة كتابة القصة العربية، ورغم ما كتب عن هذا اللون النثري قديما وحديثا، إلا أنه لا يزال مجالا خصبا للمزيد من الدراسات، إنه في الحقيقة يمثل كنزا يقتضي الكشف عنه مجهودات مختلفة[2] ومتواصلة.

وإذا كانت الدراسات الحديثة التي اهتمت بهذا الفن ركزت جهودها في البحث عن

---

(1) حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ص 187.

(2) إبلاغ محمد عبد الجليل: شعرية النص النثري، مقاربة نقدية تحليلية لمقامات الحريري، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002، ص 05.

أصل المقامات، وما تحويه من نزعة تعليمية، وما تتضمنه من لفتات شعرية[1]، فإن دراستنا سوف تتناول الموضوع من زاوية أخرى، وذلك من خلال مقاربة هذا الخطاب مقاربة لسانية نصية، لنكشف مدى انسجام نصوصه واتساقها التي تبدو للوهلة الأولى نصوصا متفرقة لا رابط بينها.

(1) المرجع انفسه، ص 06.

الفصل الأول

ظواهر الاتساق والانسجام في المقامات المختارة

- تمهيد
- أولا: الاتساق
  1) الاتساق النحوي
  2) الاتساق المعجمي
- ثانيا: الانسجام
  1) العلاقات
  2) موضوع الخطاب
  3) التغريض

تمهيد

نقارب في هذا الفصل مستويين بهما يتجلى اتساق النص المقامي وانسجامه، وهما المستوى النحوي الذي يعنى بكيفية ربط مكونات النص السطحي من خلال رصد العلاقات بين الكلمات في الجملة أو في الجمل، وفي مقاطع الجمل، ولاشك أنه ثمة وسائل عديدة تعمل على تحقق صفة استمرارية النص وتتابعه وترابط أجزائه.

والمعيار المختص بالكشف عن هذه الوسائل والأدوات اللغوية التي تتمظهر على مستوى سطح النص هو معيار الاتساق Cohésion وقد قسمناه حسب خطة الدراسة إلى:

اتساق نحوي
و
اتساق معجمي

أما المستوى الدلالي للانسجام Cohérence فيتجلى في البنية العميقة ووظيفته الأساسية ربط التصورات التي تشكل عالم النص، وهذا الأخير يحتاج من المتلقي كفاءة عالية ومعرفة خلفية بالعالم لإبراز التماسك الدلالي للنص.

وقبل أن نتعرض بالتحليل للمقامات تجدر الإشارة إلى أن بديع الزمان الهمذاني ومن خلال هذا النموذج الفني الذي ابتدعه قد قدم لنا منوعات أدبية وفكرية واجتماعية تخدم غرضا واحدا -وهو تقديم صورة شاملة لواقع البيئة العباسية في القرن الرابع الهجري-.

وما دامت المقامات تدور كلها حول محور واحد، فإنه من الطبيعي أن لا نتناولها كلها بالدراسة إذ في هذا تكرار يتنافى وطبيعة البحث اللغوي، لذا سوف نحلل نماذج منها.

تناولت المقامات مواضيع مختلفة منها ما يتصل بالناحية الاجتماعية (المقامة الأزاذية، المقامة الكوفية، المقامة الأذربيجانية، المقامة المكفوفية، المقامة القردية، المقامة الصفرية، المقامة الساسانية، المقامة الأزدية) وتبرز في هذه المقامات ظاهرة اجتماعية عمت المجتمع العباسي آنذاك وهي ظاهرة " الكدية ".

ومقامات أخرى تصور أحوال الناس في ذلك الزمان نذكر منها (المقامة الشيرازية،

المقامة الأهوازية، المقامة الوعظية، المقامة القزوينية، المقامة الوصية، المقامة الخمرية، المقامة المضيرية).

ومنها ما يبرز بعض القضايا المتصلة بالفلسفة والدين (المقامة المارستانية) ويعالج بديع الزمان آراء تمت للأدب بسبب أو آراء شخصية ينتقد بها من يريد من الأدباء، وهذا الصنف من المقامات يندرج ضمن النقد الأدبي والفلسفي (المقامة الجاحظية، المقامة القريضية، المقامة الشعرية).

وهناك ناحية أخرى في المقامات الهمذانية وهي الناحية التعليمية، أو العلمية، وهذا النوع من المقامات يبرز منهجا عسرا في تحصيل العلم ويتضح ذلك في المقامة العلمية.

وتحليلنا سوف يعتمد في هذا الفصل على هذه النماذج الفنية[1] التي يمكن أن نحذو حذوها عند محاولة التحليل للمقامات الأخرى.

وما يفرضه علينا التحليل النصي المعاصر، هو الوقوف عند مختلف الظواهر النصية لهذا النص التراثي، من خلال رصد أهم أدوات اتساقه وانسجامه، ثم البرهنة على أنه يشكل وحدة نصية متكاملة، على الرغم من ظهوره المفرق في شكل مقامات، موزعة على موضوعات مختلفة، مع الاستعانة بالجداول الإحصائية كلما تطلب الأمر ذلك، إذ من الواجب أن تحمل تلك الإحصائيات دلالات تسهم في التحليل النصي.

أولا: الاتساق:

1- الاتساق النحوي: تتجلى أدوات الاتساق النحوي في:

أ- الإحالة Référence: إن ما يميز اللغات الطبيعية هو توفرها على عناصر تملك خاصية الإحالة[2].

تقوم الإحالة بوظيفة الربط بين الكلمات في المقامة الواحدة وما يميز هذا النوع من الإحالة هو خضوعها لقيود دلالية من خلال «وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر

---

(1) استعنا في دراسة هذه المقامات بكتاب " مقامات بديع الزمان الهمذاني " لأبي الفضل أحمد بن الحسين، قدم له وشرح غوامضه الإمام الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2003.

(2) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 17.

المحيل والعنصر المحال إليه»[1].

ومن وسائل الاتساق الإحالية الضمائر التي قامت بدور بارز في تشكيل نسيج المقامة، حيث ساهمت الإحالات الضميرية بأنواعها في الربط بين الكلمات في المقامة الواحدة وذلك بحسب طبيعة الموضوع الذي تتحدث عنه، ولنتأمل الأمثلة الآتية.

أ- «... ثُمَّ عَكَفْنَا عَلَى خِوَانٍ قَدْ مُلِئَتْ حِيَاضُهُ، وَنَوَّرَتْ رياضُهُ، وَاصْطَفَّتْ جِفانُهُ، وَاخْتَلَفَتْ أَلْوَانُهُ فَمِنْ حَالِكٍ بِإِزَائِهِ نَاصِعٌ، وَمِنْ قَانٍ تِلْقَاءَهُ فَاقِعٌ»[2].

ب- «... فَخَنَسَ شَيْطَانُ الصَّبْوَةِ، وَتَبَادَرْنَا إِلَى الدَّعْوَةِ، وَقُمْنَا وَرَاءَ الإِمَامِ، قِيَامِ البَرَرَةِ الكِرَامِ، بِوَقَارٍ وَسَكِينَةٍ، وَحَرَكَاتٍ مَوْزُونَةٍ، فَلِكُلِّ بِضَاعَةٍ وَقْتٌ، وَلِكُلِّ صِنَاعَةٍ سَمْتٌ...»[3].

ج- «قَالَتْ: إِنَّ لِي شَيْخاً ظَرِيفَ الطَّبْعِ، طَرِيفَ المُجُونِ، مَرَّ بِي يَوْمَ الأَحَدِ فِي دَيْرِ المِرْبَدِ، فَسَارَّنِي حَتَّى سَرَّنِي، فَوَقَعَتِ الخُلْطَةُ، وَتَكَرَّرَتِ الغِبْطَةُ... قَالَ: وَدَعَتْ بِشَيْخِهَا فَإِذَا هُوَ إِسْكَنْدَرِينَا أَبُو الفَتْحِ»[4].

تماسكت الجمل في [المثال الأول] وارتبط الكلام بعضه ببعض بعودة الضمائر المتصلة إلى الخوان وضمير المتكلم بصيغة الجمع [عكفنا] الذي يعود على الراوي ومن معه، فأحالت جميع أنواع هذه الضمائر إحالية داخلية قبلية.

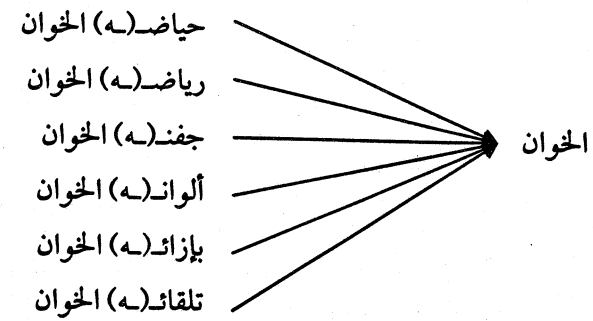

وقد ترابطت الوحدات اللغوية في المثال الثاني، من خلال وجود تطابق دلالي بين

---

(1) المرجع نفسه، ص ن.

(2) مقامات بديع الزومان الهمذاني، المقامة الجاحظية، ص 88.

(3) المرجع نفسه، المقامة الخمرية، ص 274.

(4) المرجع نفسه، ص 270.

العناصر المحلية والمحال إليها.

تنوعت الضمائر في المثال الثالث حسب أدوار المتكلمين فشملت ضمائر مستترة وأخرى متصلة، وقد أحالت كلها إحالة داخلية قبلية أما الضمير المنفصل " هو " فقد أحال إحالة داخلية بعدية وسنوضح ذلك من خلال الجدول الآتي:

نوع الضمائر	عددها	العناصر المحيلة	المحال عليها	نوع الإحالة
الضمائر المستترة	06	قالت مر فسار سر قال دعت	الجارية الشيخ الشيخ الشيخ عيسى بن هشام الجارية	إحالة داخلية قبلية
الضمائر المتصلة	06	لي بي سار بي سرني شيخها اسكندرنيا	الجارية الجارية الجارية الجارية الراوي ومن بصحبته	
الضمائر المنفصلة	01	هو	أبو الفتح الاسكندري	إحالة داخلية بعدية

يشرح أبو الفتح الاسكندري في " المقامة العلمية " سبل نيل العلم فيقول: «طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ بَعِيدَ المَرَامِ، لا يُصْطَادُ بِالسِّهَامِ، وَلا يُقْسَمُ بالأَزْلامِ، وَلا يُرَى في المَنَامِ، وَلا يُضْبَطُ بِاللِّجَامِ، وَلا يُورَثُ عَنِ الأَعْمَامِ، وَلا يُسْتَعَارُ مِنَ الكِرَامِ»[1].

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني، المقامة العلمية، ص 230.

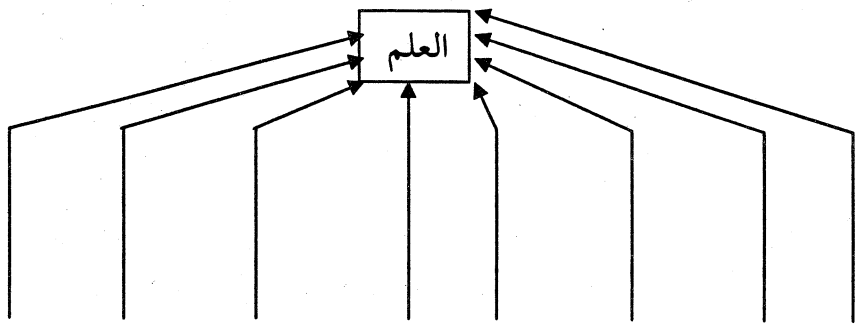

وما يلفت النظر في هذا المثال هو ذلك الانتشار المميز للضمير المستتر والمحيل كله إلى مرجوع واحد وهو " العلم "، فقد شكل نسيج الكلام من الأول إلى الآخر، وكذا الفعل المضارع المقترن بلام النافية " لا يصطاد، لا يقسم، لا يرى، لا يضبط، لا يورث، لا يستعار".

ولا شك أن هذه الأفعال المتضمنة ضمائر مستترة قد استحوذت على أفقية النص، أما الضمير المتصل (ت) فطلبته، فوجدته، فقد أحال إحالة داخلية قبلية لأبي الفتح الاسكندري، ومن هنا يتضح دور هذا العنصر الاتساقي في خلق تلاحم أجزاء الخطاب والحفاظ على استمراره[1].

تبدو شخصية أبي الفتح الإسكندري –بطل المقامات الهمذانية– في كثير من المقامات شخصية غامضة غير معروفة للراوي ليتكشف له في نهاية المقامة ولتتأمل الأمثلة الآتية:

يقول عيسى بن هشام:

أ- «فَانَلْتُهُ مَا تَاحَ. وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَاحَ. فَجَعَلْتُ أَنْفِيهِ وَأُثْبِتُهُ، وَأَنْكِرُهُ وَكَأَنِّي أَعْرِفُهُ، ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيهِ ثَنَايَاهُ، فَقُلْتُ: الإِسْكَنْدَرِيُّ وَاللهِ»[2].

(1)- أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان، الرباط، المغرب، دط، دت، ص 146.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني، المقامة القريضية، ص 11.

ب- «فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ فِي الكيسِ فَضْلاً فَأَبْرُزْ لِي عَنْ بَاطِنِكَ أَخْرُجْ إِلَيْكَ عَنْ آخِرِهِ، فَأَمَاطَ لِثَامَهُ، فَإِذَا وَاللهِ شَيْخُنَا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَندريُّ»[1].

ج- «فَفَتَحْنا لَهُ البَابَ وَقُلْنا: ادْخُلْ، فَإِذا هُوَ وَاللهِ شَيْخُنا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَريُّ»[2].

د- «فَنَاجَيْتُ نَفْسِي بِأَنَّ هذَا الرَّجُلَ أَفْصَحُ مِنْ إِسْكَنْدَرِيِّنَا أَبِي الفَتْحِ»[3].

تحيل أغلب الضمائر في الأمثلة السابقة سواء أكانت هذه الضمائر ظاهرة أم مستترة أم ألفاظ صريحة إلى شخصية أبي الفتح الاسكندري وسنبدأ بتحليل المثال الأول.

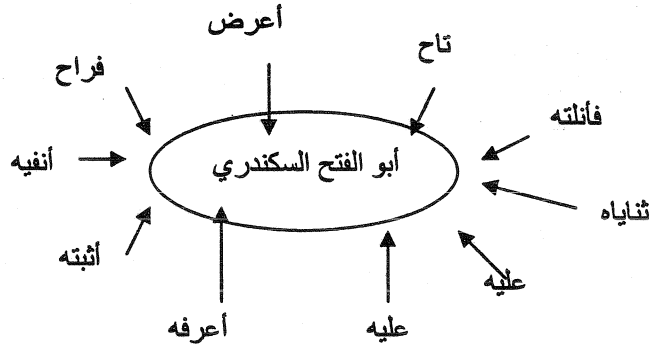

تماسك الكلام في المثال الأول وارتبط بعضه ببعض لعودة الضمير المستتر والضمير المتصل المرتبط بالوحدات التالية: أنلت، أنفي، أثبت، أنكر، أعرف، على، ثنايا، فقد أحالت كلها إحالة بعدية لتميط اللثام عن شخصية هذا البطل صانع أحداث المقامات.

ويستمر الحوار بين عيسى بن هشام وأبي الفتح الإسكندري الذي يرغب دائما في التستر وإخفاء حقيقة أمره حتى يصل إلى ما يصبو إليه، وبذلك لا يتوقف الراوي -عيسى بن هشام- على الإحالة إلى البطل لتغطي نص المقامة فيفصح عنه في نهايتها، ولنتأمل المثال الآتي:

---

(1) المرجع نفسه، المقامة الأزاذية، ص 14، 15.

(2) المرجع نفسه، المقامة الكوفية، ص 33.

(3) المرجع نفسه، المقامة الأذربيجانية، ص 54.

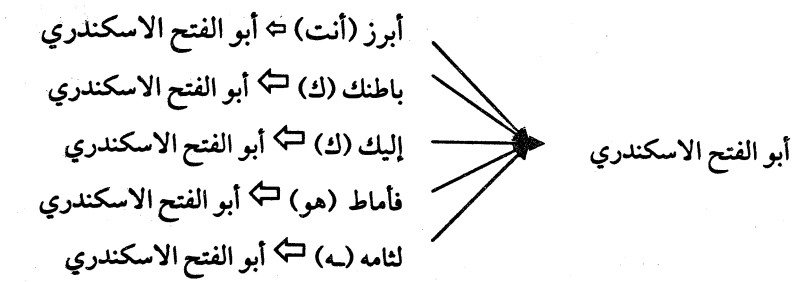

حققت الضمائر المستترة والمتصلة دورا بارزا في تماسك أجزاء الكلام، كونها تعود إلى مرجوع واحد هو" أبو الفتح الاسكندري "، فهي إذن مرتبطة به شكلا ودلالة. وقد أحال الضمير " هو " في المثال الثالث إحالة داخلية بعدية إلى أبي الفتح الاسكندري كما سبق وأن أشرنا في الأمثلة السابقة فأفادت الإحالات الضمائرية بذلك سمة الاختزال(1).

المقامة قصة قصيرة، راويها عيسى بن هشام، وبطلها أبو الفتح الاسكندري، وقد وردت في المقامات أسماء شخصيات بعضها من نسج الخيال، وبعضها حقيقي تختلف من مقامة إلى أخرى نذكر على سبيل المثال: (الجاحظ، أبو داود العسكري، عمران الطرائفي، علي بن الحسين،...)، إلا أن ورودها في النصوص المقامية المختارة كان بنسبة أقل حيث قدرت بـ 219 إحالة ضميرية ومن ثم تتوزع أغلب الضمائر على هذين المستويين:

* أبو الفتح الاسكندري
* عيسى بن هشام

نلاحظ أن الضمائر التي تحيل إلى شخصية أبي الفتح الاسكندري والتي استخرجناها من النماذج المقامية المختارة، وكذا الضمائر المحيلة إلى الراوي عيسى بن هشام بما فيها الإشارة والموصول يمكن تمثيلها في الجدول التالي:

نوع الإحالة	أبو الفتح الاسكندري	عيسى بن هشام
شخصية	701	413
	05	12
إشارته	03	04

(1) انظر محمد خطابي: لسانيات النص، ص 228.

نوع الإحالة	أبو الفتح الاسكندري	عيسى بن هشام
موصولية		
المجموع	709	429

نلاحظ من خلال الجدول أن أغلب الضمائر التي يصل مجموعها إلى 709 ضميرا، تعود كلها إلى أبي الفتح الاسكندري، والتي تفوق كثيرا عدد الضمائر التي تحيل إلى شخصية الراوي عيسى بن هشام، فهل لهذه الإحصائية دلالة في التحليل النصي المعاصر؟

يمثل البطل (أبو الفتح السكندري) النسيج الرابط[1] لعدد كثير من المقامات[2] فعلى عاتق هذه الشخصية يبنى كيان هذا النموذج الفني ونجاح مغامراته ونشاط حركته إنه وبكل اختصار يمثل أساس النص، نجد في المقامات البطل نفسه يتميز بـ:

- الذكاء / الفطنة
- الفصاحة
- الظرف / الفكاهة
- الاحتيال / التكدي
- أديبا / ناقدا
- متعصبا للمذهب السني ساخطا على المتكلمين والمعتزلة
- ماجنا مستهترا بالدين والقيم الأخلاقية
- مجنونا أو مدعيا الجنون

فهو يتلون بكل لون، ويلبس لكل حالة لبوسها، يصف نفسه فيقول[3]: (بحر المجتث)

أَنَـــا أَبُـــو قَلَمُـــونٍ فِي كُـــلِّ لَـــوْنٍ أَكُـــونُ
أَخْـــتَرْ مِـــنَ الكَسْـــبِ دُونـــاً فـــإِنَّ دَهْـــرَكَ دُونُ

(1) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 111.

(2) هناك مقامات لم يظهر فيها أبو الفتح الاسكندري، بل كان يقلل من شأن مغامراته أحيانا، ويغفل ذكره أحيانا أخرى كما هو في المقامة البغدادية، الغيلانية، النهدية.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة المكفوفية، ص 96.

زَجَّ الزَّمَـــــانَ بَحُمْـــــقٍ إِنَّ الزَّمَـــــانَ زَبُـــــونُ
لا تُكَـــــذَبَنَّ بِعَقْـــــلٍ مـــــا العَقْـــــلُ إِلاَّ الجُنُـــــونُ

ونحاول فيما يلي بيان حركة الضمائر التي تعود إلى شخصية البطل لنكشف عن السلوكات المتناقضة فيها، وكذا سبب تستره وإخفاء حقيقة نفسه.

يروي عيسى بن هشام في المقامة القريضية[1].

«فَقُلْتُ: يَا فَاضِلُ أَدْنُ فَقَدْ مَنَّيْتَ، وَهَاتِ فَقَدْ أَثْنَيْتَ، فَدَنَا وَقَالَ: سَلُونِي أُجِبْكُمْ، وَاسْمَعُوا أُعْجِبْكُمْ. فَقُلْنَا: مَا تَقُولُ فِي امْرِىءِ الْقَيسِ؟ قَالَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ بِالدِّيارِ وَعَرَصَاتِهَا، وَاغْتَدَى وَالطَّيرُ فِي وَكَنَاتِهَا، وَوَصَفَ الْخيلَ بِصِفَاتِهَا».

ويروي في المقامة الجاحظية[2]:

«وَضَحِكْتُ لَهُ لأَجلُبَ ما عِنْدَهُ، وَقُلْتُ: أَفِدْنا وَزِدْنا، فقَالَ: إنَّ الجَاحِظَ في أَحَدِ شِقَّيِ البَلاَغَةِ يَقْطِفُ، وفِي الآخَرِ يقَفُ، والبَليغُ مَنْ لَمْ يُقَصِّرْ نَظْمُهُ عَنْ نَثْرِهِ، ولَمْ يُزْرِ كَلامَهُ بِشِعْرِهِ، فَهَل تَرْوُونَ للْجاحِظِ شِعْراً رائِعاً؟ قُلْنَا: لاَ، قَالَ: فَهَلُمُّوا إِلَى كَلاَمِهِ، فَهُوَ بَعِيدُ الإِشارَاتِ، قَلِيلُ الاسْتِعَاراتِ، قَرِيبُ العِبَارَات، مُنْقادٌ لعُرْيَانِ الكَلاَمِ».

ولنلاحظ الكلمات التي تحمل ضمائر تعود إلى أبي الفتح الاسكندري والمستخرجة من النموذجين السابقين:

المقامة القريضية	المقامة الجاحظية
ادن – منيت – هات – أثنيت – دنا – قال – سلوني – أجبكم – أعجبكم – تقول – قال.	له – عنده – أفدنا – زدنا – فقال.

تحيل جميع هذه الضمائر إلى شخصية أبي الفتح الاسكندري، الذي بدا -من خلال هذين النموذجين- أديبا بليغا وناقدا فذا، ففي المقامة القريضية نجده يسأل عن رأيه في فطاحلة الشعراء، من أمثال امرئ القيس والنابغة وجرير والفرزدق وغيرهم، وفي المقامة

(1) المرجع نفسه، ص 08.
(2) المرجع نفسه، ص 89.

الجاحظية نجد الاسكندري يعيب على الجاحظ عجزه عن نظم الشعر، وأسلوبه المباشر البعيد عن الصنعة والتكلف وجنوحه إلى السهولة والاسترسال، إن هذا الكلام يفضي بنا إلى الحديث عن أسلوب الكتابة المستحدث في القرن الرابع الهجري، والذي يميل كثيرا إلى التصنع والتكلف والمبالغة في استخدام الزخارف اللفظية، كما يبدو ذلك في مقامات الهمذاني، ولعل هذا يكشف لنا عن بعض ملامح الحياة الأدبية والثقافية في ذلك العصر.

وما يشهد للاسكندري تفوقه في الأدب، وقوة فصاحته وبلاغته كما ورد في المقامة الأذربيجانية[1].

«اللَّهُمَّ يا مُبْدِئَ الأَشْيَاءِ وَمُعيدَهَا، وَمُحْيِيَ الْعِظَامِ وَمُبِيدَها، وَخَالِقَ الْمِصْباحِ وَمُدِيرَهُ، وفالِقَ الإِصْباحِ وَمُنِيرَهُ، وَمُوصِلَ الآلاءِ سابِغَةً إِلَيْنا... قَالَ عيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَنَاجَيْتُ نَفْسِي بِأَنَّ هذَا الرَّجُلَ أَفْصَحُ مِنْ إِسْكَنْدَرِيِّنَا أَبِي الفَتْحِ، وَالْتَفَتُّ لَفْتَةً فَإِذَا هُوَ واللهِ أَبُو الْفَتْحِ».

نلاحظ أن الضمير " هو " قد أحال إحالة داخلية بعدية إلى بطل المقامات الذي كان محتجبا عن نظر عيسى بن هشام، ليكشف عنه في نهاية النص المقامي بفضل حصافته.

أحالت أغلب الضمائر إلى أبي الفتح، الذي كان يبدو من خلال هذه الأمثلة (المقامة القريضية، المقامة الجاحظية، المقامة المكفوفية)، أديبا بارعا، وناقدا فذا، وهكذا تعمل الإحالات الضميرية السابقة في هذه المقامات على الربط ليس على مستوى المقامة الواحدة فحسب، بل على مستوى أكثر من مقامة.

تكشف حركة الضمائر في النماذج الفنية المختارة عن سلوكات أخرى مغايرة ولكن للبطل نفسه، وسنذكر من هذه النماذج: المقامة الأزاذية، الخمرية، المارستانية.

أ- يروي عيسى بن هشام في المقامة الأزاذية[2]:

«أَخَذَتْ عَيْنَايَ رَجُلاً قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ بِبُرْقُعٍ حَيَاءً، وَنَصَبَ جَسَدَهُ، وبَسَطَ يَدَهُ وَاحْتَضَنَ عِيَالَهُ... فَإِذَا وَاللهِ شَيْخُنَا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَندريُّ».

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 53.

(2) المرجع نفسه، ص 13.

ب- يروي عيسى بن هشام في المقامة الخمرية[1]:

أنه اتفق له وجماعة من أصحابه أن يصلوا خلف الإمام (السكندري) وهم مخمورون فانبرى لهم بقوله:

«خَلَطَ فِي سِيرَتِهِ، وانْبَتَلَ بِقَاذُورَتِهِ، فَلْيَسَعْهُ دِيماسُهُ[2]، دُونَ أَنْ تُنَجِّسَنَا أَنْفَاسَهُ...» ثم أشار إلى السكارى فأوسعهم الناس ضربا وفي اليوم الثاني يلتقي هؤلاء بالإمام الاسكندري في إحدى الحانات فينشد أبو الفتح قائلا[3](مجزوء الرمل):

أَنَـــا مِـــنْ كُـــلِّ غُبَـــارٍ ... أَنَـــا مِـــنْ كُـــلِّ مَكَـــانِ
سَـــاعَةَ أَلْـــزَمُ مِحْـــرَا ... بـاً، وَأُخْـرَى بَيْـتَ حَـانِ
وَكَـــذَا يَفْعَـــلُ مَـــنْ يَعْقِـــ ... ـلُ فِي هَـــذَا الزَّمَـــانِ

ج- ونجد في المقامة المارستانية[4]:

الاسكندري ينقد أساليب المتكلمين ومعتقداتهم وقد بدا البطل في هذه المقامة مدعيا الجنون يقول في وصفهم: «... وَأَنْتُمْ يا مَجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ تَعِيشُونَ جَبْراً، وَتَمُوتُونَ صَبْراً وَتُسَاقُونَ إِلى المَقْدُورِ قَهْراً...».

أحالت أغلب الضمائر في النماذج المختارة إلى شخصية أبي الفتح الاسكندري، لتكشف عن صفات متناقضة لشخص واحد.

تكشف المقامة الأزاذية عن حيل الاسكندري وبراعته في تكديه، ولا يخفى علينا أن الكدية ظاهرة عمت المجتمع العباسي، ودفعت كثيرا من الأدباء والنابغين إلى التسول والتفنن في ذلك، حتى يكسبوا قوت يومهم، وسنقف فيما يلي على المرجعيات الداخلية التي تحيل إلى شخص البطل:

---

(1) المرجع نفسه، ص 271.

(2) ديماسه: يعني البيت، أي فليلزم بيته.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الخمرية، ص 275.

(4) المرجع نفسه، ص 151، 252.

أبو الفتح السكندري

لف رأسه نصب جسده بسط يده احتضن عياله تأبط أطفاله أماط لثامه

(هو) (ـه) (هو) (ـه) (هو) (ـه) (هو) (ـه) (هو) (ـه) (هو) (ـه)

ضمير: .مستترمتصل مستتر متصل مستتر متصل مستتر متصل مستتر متصل

يذكر في هذه المقامة لفظ " رجل " ليشير إلى حرص أبي الفتح على تستره، حتى يجوز حيله على الآخرين، ثم تنتشر عبر كامل المقامة الضمائر المحيلة إليه، إلى أن يكشف عيسى بن هشام عن حقيقته في آخر الأمر، وما قام به الاسكندري في المقامة الأزاذية، لا يختلف كثيرا عما قام به في المقامة الخمرية؛ إذ تشير حركة الضمائر في هذه المقامة إلى أبي الفتح، الذي يبدو إماما تقيا وواعظا بارعا، ليكشف عيسى بن هشام أمره في آخر المطاف، فيبدو ماجنا مستهترا، والضمائر التالية تحيل إلى ذلك (تنجسنا(نا)، أنا، أنا، ألزم(أنا).

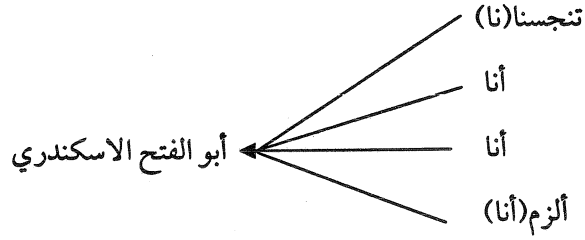

وتشير الضمائر في المقامة المارستانية دائما إلى الاسكندري، الذي تظاهر بالجنون في نقده للمتكلمين، والذين وصفهم بمجوس الأمة، وفيما يلي سنقف عند الوحدات اللغوية، التي ارتبطت بها الضمائر المحيلة إلى البطل: {عينه(ـه)، وتدعني(ي)، فقال(هو)، فقال(هو)، فقال(هو)}، فقد أحالت كلها إلى مرجوع واحد هو أبو الفتح الاسكندري وقد تطابقت معه شكلا ودلالة.

تحيل الضمائر في هذه النماذج إلى البطل الذي تحلى بسلوكات مختلفة ومتناقضة فهو: مكد، ومحتال، وإمام تقي، وماجن مستهتر، ومجنون أو مدعي الجنون، ولكن في الوقت نفسه

يناقش قضايا دينية وفلسفية عميقة، فالبطل هو النسيج الرابط لهذا النص المقامي؛ إذ تتوفر في هذه المقامات وحدة الراوي (عيسى بن هشام)، ووحدة البطل (أبو الفتح الاسكندري)، في الغالب[1]، ووحدة المكان (البيئة العباسية على امتداد مساحتها)، ووحدة الزمان (القرن الرابع الهجري)، بل ووحدة القضية أو الغرض والمتمثل في توجيه نقد لاذع للحكام وأصحاب السلطان والجاه في ذلك العصر، لأنهم دفعوا الكثير من المثقفين وأولي النبوغ إلى التفكير في كل أساليب الاحتيال والتكدي، من أجل كسب قوت يومهم، ولاشك أن الهمذاني كان واحدا من هؤلاء مما دفعه ذلك إلى ابتكار شخصية فنية من نسج خياله، لتعبر عن البؤس الذي اتصل بحياته، وبحياة الكثير من أمثاله، فكانت المقامات بمثابة السجل الذي يجمع بين دفتيه ذلك الواقع المرير والمؤلم.

ولعل اشتمال هذا النص التراثي على كل هذه الخصائص، ييسر السبيل أمام تحقيق ترابطه، واتساق أجزائه، على الرغم من ظهوره المفرّق في شكل مقامات، تندرج ضمن موضوعات مختلفة.

خصصنا حديثنا في هذا القسم من الدراسة عن الإحالة الضميرية، وما تقوم به من ربط على مستوى المقامة الواحدة، أو مجموعة من المقامات، وسنفصل الحديث عن الإحالة الإشارية والموصولية، وكذا الإحالة النصية الخارجية في معرض حديثنا عن مجمل أدوات الاتساق، في القسم الثاني من هذه الدراسة.

وإذا كانت الإحالات الضميرية التي تجلت في ظاهر النص، قد ساهمت كثيرا في ربط أول نسيج للنص المقامي بآخره ربطا أفقيا، وكشفت عن الدلالة العامة الكلية لموضوعه، إلا أنها لم تستأثر بكل ذلك لوحدها؛ إذ ساهمت أدوات الوصل Conjonction والفصل Disjonction في ربط أجزاء الكلام اللاحق منه بالسابق وبشكل منظم[2].

ونكشف فيما يلي أهمية هذه الوسائل الاتساقية في تحقيق استمرارية هذا النص التراثي

---

(1) توجد بعض المقامات لم يظهر فيها أبو الفتح الاسكندري وقام فيها بدور الراوي والبطل عيسى بن هشام، انظر المقامة البغدادية.

(2) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 23.

وترابط أجزائه.

ب- الوصل Conjonction والفصل Disjonction:

تفرض خطية الخطاب وجود سلسلة متتابعة من الكلمات والجمل، تربط بينها وسائل وأدوات لغوية، نذكر من بينها الوصل، الذي أسهمت فيه أدوات العطف بأنواعها، في تحقيق ربط أجزاء النص على مستويين:

«- ربط خطي يقوم على الجمع بين جملة سابقة وأخرى تلحقها، فيفيد مجرد الترتيب في الذكر، مثل الواو في العربية.

- ربط خطي يقوم على الجمع كذلك، ولكنه يدخل معنى آخر يتعين به نوع العلاقة بين الجملة والأخرى، مثل " الفاء " و" ثم " و" أو " وغيرها في العربية، حيث تربط وتعبر عن علاقة منطقية بين العنصرين المربوطين»[1].

إذا عدنا إلى بنية النص المقامي بالبحث في مواطن الربط بالأدوات وخصائصه نتبين عددا من الملاحظات نجملها ثم نفصل القول فيها:

* أدوات العطف متنوعة (الواو، الفاء، ثم، لكن، أو)، ولا يوجد تناسب في نسبة الاستعمال بينها، إذ ورد الربط بالواو بنسبة عالية جدا مقارنة بالأدوات الأخرى.
* تنوع أدوات العطف داخل النص الواحد، لتشير إلى الخصائص الدلالية التي تميز أداة عن غيرها.
* إن توضيح التماسك النصي من خلال هذه الأدوات يسير وفق ثلاثة مستويات:

- الربط بين الكلمات داخل الجملة الواحدة.
- الربط بين العبارات والجمل داخل المقامة الواحدة.
- الربط بين المقامات من خلال الربط بين الأفعال المسندة إلى البطل.

أسهمت الواو في الربط بين العناصر السابقة واللاحقة في النص من خلال الربط بين الكلمات داخل الجملة الواحدة، أو الربط بين أجزاء المقامة بعضها ببعض، ولنتأمل مثلا

---

(1) الأزهر الزناد: نسيج النص، ص 37.

النماذج المقامية التالية:

- يروي عيسى بن هشام على لسان أبي الفتح في المقامة الوصية، وهو يجهز ابنه للتجارة موصيا إياه يقول[1]: «وَدَعْنِي مِنْ قَوْلِهِمْ " إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ " إِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِّي عَنِ اللَّبَنِ، بَلَى إِنَّ اللهَ لَكَرِيمٌ، وَلَكِنَّ كَرَمَ اللهِ يَزِيدُنَا وَلا يَنْقُصُهُ، وَيَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّهُ، وَمَنْ كَانَتْ هذِهِ حَالُهُ، فَلْتَكْرُمْ خِصَالُهُ».

- ويروي في المقامة الشعرية[2] على لسان أبي الفتح:

«... وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَضْحَكُ وَنِصْفُهُ يَأْلَمُ؟... وَأَيُّ بَيْتٍ لَفْظُهُ حُلْوٌ وَتَحْتَهُ غَمٌّ؟... وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفَهُ مَدٌّ، وَنِصْفُهُ رَدٌّ؟... وَأَيُّ بَيْتٍ قَامَ، ثُمَّ سَقَطَ وَنَامَ؟... وَأَيُّ بَيْتٍ آخِرُهُ يَهْرُبُ، وَأَوَّلُهُ يَطْلُبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ أَوَّلُهُ يَهِبُ، وَآخِرُهُ يَنْهَبُ؟».

- ويروي في المقامة القزوينية[3] على لسان أبي الفتح:

«فَمَا بَلَغَ هَذا البَيْتَ قَالَ: يا قَوْمُ وَطِئْتُ دَارَكُمْ بِعَزْمٍ لا العِشْقُ شاقَهُ، وَلاَ الفَقْرُ سَاقَهُ، وَقَدْ تَرَكْتُ وَرَاءَ ظَهْرِي حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً، وَكَواعِبَ أَتْرَاباً، وَخَيْلاً مُسَوَّمَةً، وَقَنَاطِيرَ مُقَنْطَرَةً، وَعُدَّةً وَعَدِيداً، وَمَراكِبَ وعَبِيداً، وَخَرَجْتُ خُرُوجَ الحَيَّةِ مِنْ جُحْرِهِ، وَبَرَزْتُ بُرُوزَ الطَّائِرِ مِنْ وَكْرِهِ، مُؤْثِراً دِيني عَلى دُنْيَايَ».

- وفي المقامة الخمرية[4] تصف الجارية الخمر تقول (من مجزوء الكامل):

خَمْـــرٌ كَرِيقِـــي فِي العُـــذُو ... بَـــةِ وَاللَّـــذَاذَةِ وَالحَـــلاوَةْ

تَـــذَرُ الحَلِـــيمَ وَمَـــا عَلَيْـــهِ ... لِحِلْمِـــهِ أَدْنَـــى طُـــلاَوَةْ

تشير الإحصائيات الخاصة بأدوات الربط للمقامات المختارة، إلى أن ورود " الواو العاطفة " قد كان بدرجة عالية زهاء (1118) حالة ربط.

وقد تنوعت حالات الربط سواء كان ذلك بين كلمتين أم جملتين أم متتالية من الجمل.

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص 233، 234.

(2) المرجع نفسه، ص 254.

(3) المرجع نفسه، ص 105.

(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 273.

تشبه الجارية الخمر بريقها في العذوبة واللذاذة والحلاوة تقول:

خَمْـرٌ كَرِيقِـي فِي العُـذُو بَـةِ وَاللَّـذَاذَةِ وَالحَـلاوَةْ

في هذا المثال تم ربط بين الوحدات اللغوية التالية:

العذوبة (و) اللذاذة (و) الحلاوة

الغذوبة = اللذاذة = الحلاوة.

نلاحظ أن دافع الربط بين هذه الكلمات لاتساقها دلاليا، غير أن الربط شاع بكثرة بين جملتين، عادة ما تكونان متسقتين دلالين، أو متقابلتين متضادتين، ولنتأمل الأمثلة الآتية:

«وَلَكِنَّ كَرَمَ اللهِ يَزِيدُنَا وَلا يَنْقُصُهُ، وَيَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّهُ».

كرم الله ← يزيد = لا ينقص

كرم الله ← ينفع = لا يضر

نجد أن هذه الجمل قد ارتبط فيها السابق باللاحق من خلال حرف العطف (الواو)، وأن أفعالها قد اتسقت دلاليا {يزيد، لا ينقص}، {ينفع، لا يضر}.

أما في المثال الثالث فقد ارتبطت أجزاء النص وتماسكت فيما بينها بـ" الواو "، إلا أننا نلاحظ أن عطف الجمل على بعضها لتعاكسها دلالة؛ لغرض البيان والتوضيح ويتجلى ذلك في قوله «وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَضْحَكُ وَنِصْفُهُ يَأْلَمُ؟»، «وَأَيُّ بَيْتٍ لَفْظُهُ حُلْوٌ وَتَحْتَهُ غَمٌّ؟».

{نصفه يضحك ≠ ونصفه يألم}

{لفظه حلو ≠ وتحته غم}.

وهذا يتطابق مع ما أشار إليه الأزهر الزناد إلى أن: «كل جملتين متتاليتين في النص ثانيهما تخالف الأولى ترتبطان بأداة ربط»[1].

وفي المقامة القزوينية[2] نجده يعطف بين عدة جمل أو متتاليات من الجمل «وَقَدْ تَرَكْتُ وَرَاءَ ظَهْرِي حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً، وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً، وَخَيْلاً مُسَوَّمَةً، وَقَنَاطِيرَ مُقَنْطَرَةً، وَعُدَّةً

(1) الأزهر الزناد: نسيج النص، ص 28.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 102.

وَعَدِيداً، وَمَراكِبَ وعَبِيداً...»، وهكذا يتضح أهمية العطف بالواو في تحقيق تماسك سطح النص.

تبرز إلى جانب حرف العطف " الواو " وسائل اتساقية أخرى تقوم بالعملية نفسها مثل: الفاء، ثم، لكن، بل.

تنتشر الفاء بنسبة (25,96 ٪) حيث توفرت النصوص المختارة على ما يقارب (419) حالة ربط بالفاء، أشارت كلها إلى تعاقب الأحداث، منها ما هو مرتبط بالأفعال الماضية: فأداني، فرق، فقلت، فقبضت، فسرت، فخرجت، فاستظهرت، ومنها ما هو مرتبط بالأفعال المضارعة: فأنلته، فأحكيها، فتجيبه، فتطيعه، ومنها ما هو مرتبط بأفعال الأمر: فاستأنفوا، فاعتب، فألزموا، فقص، فاستعن،...، كانت الفاء المرتبطة بالحروف بأنواعها أكثر انتشارا: فإن، فما، فحين، فلا، فإذا، فلما، فمن، فلعل،...

ونوضح فيما يلي أهمية هذه الوسيلة في تحقيق التماسك النصي:

يروي عيسى بن هشام في المقامة المضيرية[1].

«حَدَّثَنا عِيسَى بْنُ هِشامٍ قَالَ: كُنْتُ بِالبَصْرَةِ، وَمَعِي أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ رَجُلُ الفَصَاحَةِ يَدْعُوهَا فَتُجِيبُهُ، وَالبَلاغَةِ يَأْمُرُهَا فَتُطِيعُهُ».

ربطت الفاء بين جملتين: -1- يدعوها فتجيبه.

-2- يأمرها فتطيعه.

أفادت الفاء في هذه الجمل تعاقب الأحداث مع سرعة تنفيذها، فإذا دعا الإسكندري الفصاحة أجابته، وإذا أمر البلاغة أطاعته، دون أن يكون هناك متسع من الزمن، يفصل فعل الدعوة عن فعل الإجابة، وفعل الأمر عن الطاعة، فقد ساهمت هذه الوسيلة الاتساقية في تحقيق التماسك بين الجمل، بضم بعضها إلى بعض، كما أنها ربطت بين أفعال مسندة إلى بطل المقامات.

يروي عيسى بن هشام في المقامة الصفرية[2] أنه دخل عليه أبو الفتح الاسكندري يقول:

---

(1) المرجع نفسه، ص 122.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 261.

«عِنْدِي رَجُلٌ مِنْ نِجَارِ الصُّفْرِ، يَدْعُو إِلَى الكُفْرِ، وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ، وَقَدْ أَدَّبَتْهُ الغُرْبَةُ، وَأَدَّتْنِي الحِسْبَةُ إِلَيْكَ، لأُمَثِّلَ حَالَهُ لَدَيْكَ... فَإِنْ أَحْبَبْتَ يَنْجُبُ مِنهما وَلَدٌ يَعُمُّ البِقَاعَ وَالأَسْمَاعَ، فَإِذَا طَوَيْتَ هَذا الرِّيطَ، وثَنَيْتَ هَذا الخَيْطَ، يَكُونُ قَدْ سَبَقَكَ إِلى بَلدِكَ، فَرَأْيُكَ فِي نَشْرِ مَا فِي يَدِكَ».

تنوعت وسائل الربط في المقامة الصفرية (ف، و)، وإذا عدنا لإزالة حروف العطف من هذه الجمل فإننا نقرأها قراءة خطية عادية، ولنتأمل فائدة الربط بالفاء في الجمل الآتية:

(ف)ـإن أجبت ينجب منها ولد يعم البقاع والأسماع، (ف)ـإذا طويت هذا الريط، وثنيت هذا الخيط يكون قد سبقك إلى بلدك، (ف)ـرأيك في نشر ما في يدك.

إن محاولة قراءة هذه الفقرة بدون هذه الأدوات يؤدي إلى تفكك واضح في أجزائه، فقد ساهمت هذه الأدوات في خلق امتداد متلاحم لعناصر النص.

بالإضافة إلى (الفاء)، هناك أدوات عطف أخرى، برزت في المقامات المختارة، نمثل لنسب تواترها في الجدول التالي:

أدوات الربط	العدد الإجمالي	النسبة
الواو	1118	% 69.26
الفاء	419	% 25.96
لكن	13	% 0.80
ثم	46	% 2.85
بل	03	% 0.18
أو	15	% 0.92

من استقرائنا للجدول يتضح أن نسبة تواتر حروف الربط: ثم، بل، لكن، أو، كان بنسبة قليلة مقارنة بالواو والفاء[1].

(1) تفيد الواو مطلق الجمع، أي أن المعطوف يشارك المعطوف عليه في الحكم الإعرابي دون مراعاة ترتيب زمني أو غيره، وتفيد الفاء الترتيب والتعقيب بمعنى أن الحكم يكون للمعطوف عليه أولا دون أن

وإذا كانت جميع هذه الأدوات تقوم بوظيفة الربط إلا أن السياق أكسبها معنى إضافيا.

بل: للعطف والإضراب[1] وقد وردت في المدونة بنسبة قليلة جدا.

ثم: للعطف والترتيب[2].

ونمثل للأداتين (لكن، أو) في المثالين الآتيين:

يقول أبو الفتح الاسكندري في المقامة الجاحظية[3](من مجزوء المجتث):

إِسْكَنْدَرِيَّةُ دَارِي ... لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي

لكِنَّ لَيْلِي بِنَجْدٍ ... وَبِالحِجَازِ نَهَارِي

وينشد في المقامة الأزاذية[4](من الرجز):

وَيْلِي عَلَى كَفَّيْنِ مِنْ سَوِيقِ ... أَوْ شَحْمَةٍ تُضْرَبُ بِالدَّقِيقِ

أَوْ قَصْعَةٍ تُمْلأُ مِنْ خِرْدِيقِ ... يَفْتَأُ عَنَّا سَطَوَاتِ الرِّيقِ

يُقِيمُنَا عَنْ مَنْهَجِ الطَرِيقِ ... يَارَازِقَ الثَّرْوَةِ بَعْدَ الضِّيقِ

تفيد لكن العطف والاستدراك[5]، فقد ربطت في المقامة الجاحظية السابق باللاحق مع استدراك المتكلم لما يقوله إذ اسكندرية داره لكن ليله بنجد ونهاره بالحجاز.

أما المثال الثاني فقد أفاد حرف العطف " أو " التخيير[6] بين مختلف الأطعمة التي

تكون هناك فترة طويلة للمعطوف. للاستزادة انظر عبده الراجحي: التطبيق النحوي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 443.

(1) تفيد العطف حيث تعطف بين مفردتين وتفيد الإضراب والإقرار ثم المخالفة. انظر المرجع نفسه، ص 447.

(2) تفيد الترتيب والمهلة أو التراخي، انظر المرجع نفسه، ص 444.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 92.

(4) المرجع نفسه، ص 13.

(5) تفيد الاستدراك ولا تكون حرف عطف إلا بشروط حددها النحاة من بين هذه الشروط أن يكون المعطوف بها مفردا، وأن لا تسبق بواو. انظر المرجع نفسه، ص 446.

(6) تفيد الإباحة والتخيير، وقد تفيد معان أخرى تفهم من السياق، ونعني بمصطلح الإباحة اختيار واحد من المعطوف أو المعطوف عليه أو الجمع بينهما، والفرق بينها وبين التخيير أن الثاني يعني اختيار واحد فقط. انظر عبده الراجحي: المرجع نفسه، ص 445.

يشتهي أكلها.

ساهمت الأداتين (ثم، لكن) في نسج الخيوط التي يتوصل بها الفكر إلى تنظيم العناصر المكونة لهذين النصين الشعريين، مع إضفاء معان جديدة (الاستدراك، التخيير)، لتخدم غرض المخاطب وسنمثل لهذه الوسائل بالمخططين التوضيحيين:

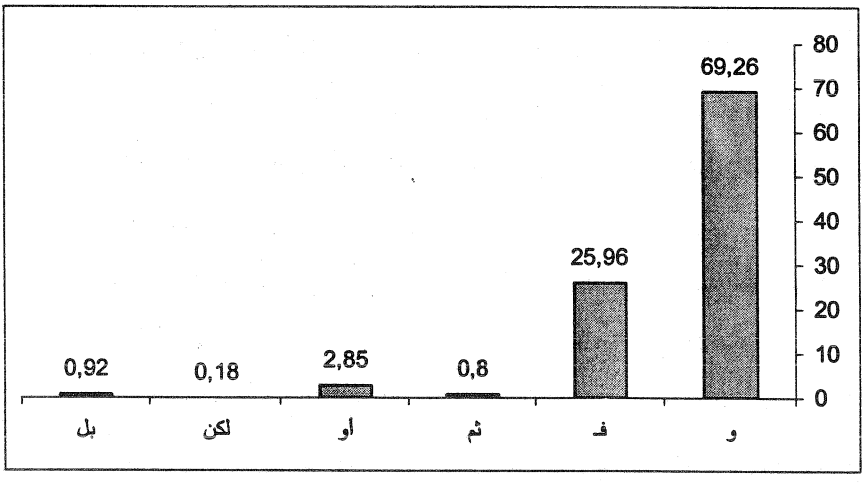

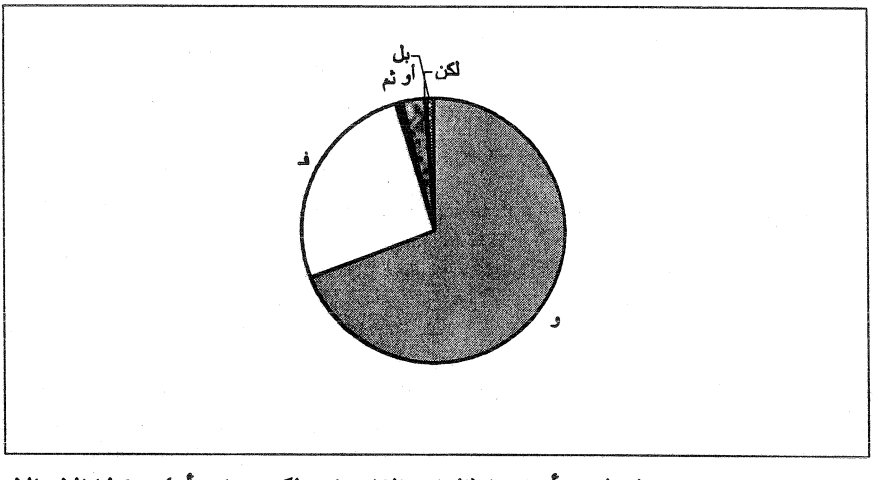

إذا كانت حروف العطف بأنواعها (الواو، الفاء، ثم، لكن، بل، أو)، وكذا الإحالات الضميرية قد حققت تماسكا على مستوى جمل المقامة الواحدة، أو مجموعة من المقامات، فإنها لم تستأثر بذلك لوحدها؛ إذ أسهمت وسائل اتساقية أخرى برزت على مستوى سطح النص المقامي، وعملت على الربط النحوي بين أجزائه، مما خلق استمرارية للنص وامتدادا متلاحما

لعناصره، ويمكن أن نشير لبعضها من خلال الجدول الآتي:

1- المقامة الأذربيجانية	بأن هذا الرجل	إحالة إشارية بعدية	أبو الفتح الاسكندري
2- المقامة المارستانية	فقلنا كذلك	إحالة إشارية سابقة	أنتم غرباء
3- المقامة الشعرية	فالزموا مكانكم هذا	إحالة إشارية سابقة	الحلقة التي يجلسون
4- المقامة العلمية	طلبته فوجدته بعيد المرام	حذف	أدركت العلم
5- المقامة الأذربيجانية	لا تلمني على كديتي وذق	حذف	لذة التكدي
6- المقامة الأزادية	على تلك الأوزار	إحالة إشارية سابقة لجملتين	{أصناف الفواكه، لأنواع الرطب}
7- المقامة الصفرية	إن أجبت	حذف	
8- المقامة الأسدية	وأتبعه بآخر فشقه في السماء	استبدال	خطبة الجارية
			سهم
9- المقامة الخمرية	وأخرى بيت حان	استبدال	ساعة
10- المقامة الأسدية	كم معك؟ قال عشرون رغيفا	حذف	معي...
11- المقامة الشيرازية	وقلت له إيه	حذف	زد من نحو قولك هذا
12- المقامة الوعظية	نذير ولكنه ساكت	حذف	هذا الشيب
13- المقامة العلمية	واستعنت في ذلك	استبدال	طلب العلم
14- المقامة المكفوفية	وإذا هناك	إحالة إشارية قبلية	حيث يجتمع القوم
15- المقامة المارستانية	اللهم أبدلني بهؤلاء	إحالة إشارية سابقة	مجوس الأمة، أعداء الكتاب، مخانيث الخوارج.

ساهمت أغلب أدوات الاتساق في الربط بين عناصر الجملة الواحدة تارة، وبين المتتاليات الجملية على مستوى المقامة الواحدة تارة أخرى، فغدت شديدة الاتساق، ولنتأمل المثالين الآتيين:

أ- «فَسِرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ إلى رَجُلٍ قَدْ أَخَذَ أَصْنَافَ الفَوَاكِهِ وَصَنَّفَهَا وَجَمَعَ أَنْوَاعَ الرُّطَبِ وَصَفَّفَهَا، فَقَبَضْتُ مِنْ كُلِ شَيءٍ أَحْسَنَهُ، وَقَرَضْتُ مِنْ كُلِ نَوعٍ أَجْوَدَهُ، فَحِينَ جَمَعْتُ حَوَاشِيَ

الإِزَارِ، عَلى تِلْكَ الأَوْزَارِ...»[1].

ب- «... ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَبْدِلْنِي بِهؤُلاءِ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَشْهِدْنِي مَلائِكَتَكَ...»[2].

أحالت أسماء الإشارة في هذين المثالين إحالة داخلية قبلية لأكثر من جملة.

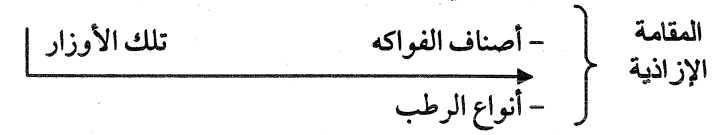

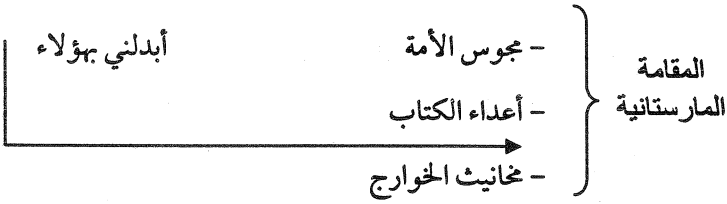

إذا كانت أسماء الإشارة في الأمثلة السابقة قد عملت على ربط أجزاء النص المقامي، من خلال الإحالة إلى السابق، فسوف نكشف في الأمثلة الآتية عن وظيفة " الإحالة الإشارية البعدية " في خلق اتساق النص المقامي الواحد والنصوص المقامية فيما بينها على اختلاف موضوعاتها:

يروي عيسى بن هشام يقول[3]:

«فَنَاجَيْتُ نَفْسِي بِأَنَّ هذَا الرَّجُلَ أَفْصَحُ مِنْ إِسْكَنْدَرِيِّنَا أَبِي الفَتْحِ، وَالْتَفَتُّ لَفْتَةً فَإِذَا هُوَ واللهِ أَبُو الْفَتْحِ...».

أحال اسم الإشارة المفرد " هذا " إحالة داخلية بعدية إلى البطل أبي الفتح الاسكندري، الذي كان يبدو متسترا عن العيان، ليكشف عن حقيقته الراوي عيسى بن هشام في نهاية المقامة، فحقق بذلك ربطا للعناصر السابقة باللاحقة على مستوى المقامة الواحدة.

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الأزاذية، ص 12.

(2) المرجع نفسه، المقامة المارستانية، ص 145.

(3) المرجع نفسه، المقامة الأذربيجانية، ص 54.

كما أحال اسم الإشارة " هذا " إحالة موسعة[1] إلى أكثر من مقامة؛ فأحالت مثلا المقامة الأذربيجانية إلى المقامة الخمرية[2] والمقامة الأزاذية[3]؛ بحيث لم يكشف في بداية هاتين المقامتين عن الاسم الصريح للبطل، وإنما خصه الهمذاني باسم عام " رجل إمام ".

أ- «فَنَاجَيْتُ نَفْسِي بِأَنَّ هذَا الرَّجُلَ أَفْصَحُ مِنْ إِسْكَنْدَرِيَّنَا أَبِي الفَتْحِ، وَالْتَفَتُّ لَفْتَةً فَإِذَا هُوَ واللهِ أَبُو الْفَتْحِ»[4].

ب- «... وَقُمْنَا وَرَاءَ الإِمَامِ، قِيَامِ البَرَرَةِ الكِرَامِ»[5].

ج- «... أَخَذَتْ عَيْنَايَ رَجُلاً قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ بِبُرْقُعٍ...»[6].

فإذا هو أبو الفتح [المقامة الأذربيجانية] ← فقمنا وراء الإمام [المقامة الخمرية]

فأخذت عيناي رجلا [المقامة الأزاذية]

عملت الإحالات الإشارية التي برزت على مستوى سطح النصوص المقامية على ربط أول خيط لهذا النسيج المقامي بآخره، من خلال الربط بين عناصر المقامة الواحدة، أو بين أكثر من مقامة فغدت شديدة الاتساق.

كما أسهمت أيضا في تعيين المشار إليه، من خلال النظر في البنية الأفقية للنص المقامي، فحققت بذلك صفة اختزال النص واختصاره مما أضفى على أسلوب المقامات سحرا بلاغيا.

يفتتح بديع الزمان الهمذاني مقاماته بجملة " حدثنا عيسى بن هشام قال: ... " وهي جملة الصدارة التي تميز هذا الفن عن الفنون النثرية الأخرى، وتشير إلى لون من ألوان الحياة الثقافية في ذلك الزمان.

يحيل ضمير الجمع " نا " المرتبط بالفعل " حدث " إحالة نصية خارجية إلى " راو" غير

---

(1) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 19.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الخمرية، ص 270.

(3) المرجع نفسه، المقامة الأزاذية، ص 12.

(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الأذربيجانية، ص 54.

(5) المرجع نفسه، المقامة الخمرية، ص 270.

(6) المرجع نفسه، المقامة الأزاذية، ص 12.

متعين في الزمان والمكان، وتكرار هذه الجملة في بداية كل مقامة يوحي بمدى ترابط المقامات فيما بينها على الرغم من ظهورها المفرق في شكل موضوعات مختلفة الأغراض.

وإذا كانت الإحالات بأنواعها، قد حققت تماسكا على مستوى الجملة الواحدة أو مجموعة من الجمل، فإنها لم تستأثر بذلك لوحدها، إذ أسهم كل من الحذف والاستبدال في اتساق النصوص المقامية وإن كان ذلك بنسبة أقل.

ج- الحذف Elimination:

يفيد الحذف إيجازا واقتصادا للغة، وعدم تكرار لمفرداتها وعباراتها، حتى لا يقع ثقل وترهل في الكلام[1].

تتعدد أنواع الحذف في المقامات بين حذف اسم أو فعل أو جملة، فنجد حذف الاسم في مثل قوله: «قُرِعَ عَلَيْنا البابُ، فَقُلْنا: مَنِ القارِعُ المُنْتابُ؟ فقالَ: وَفْدُ اللَّيْلِ وَبَرِيدُهُ، وَفَلُّ الجُوعِ وَطَرِيدُهُ»[2].

إن المتأمل لهذا المثال يجد أن الحذف يقع في جواب السؤال، فقال: وفد الليل وبريده، وتقدير المحذوف يكون كالآتي:

فقال القارع المنتاب، وفد الليل وبريده.

ونجد حذف الفعل في مثل قوله: «يَاغُلاَمُ الْخُوَانَ، فَقَدْ طَالَ الزَّمَانُ»[3].

يقع الحذف في جملة النداء " يا غلام الخوان " وتقدير المحذوف الفعل " أحضر " أو " هات " فيكون التركيب كالآتي: " يا غلام أحضر الخوان ".

كما نجد الحذف الجملي في مثل قوله: «فَقُلْتُ: أَيُّ الطَّرِيقِ شَدَّنَا فِي قَرَنٍ؟ قَالَ: طَرِيقُ اليَمَنِ»[4].

ونجد الحذف في هذا المثال يقع في جملة جواب السؤال.

---

(1) عزة شبل محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص 169.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الكوفية، ص 31.

(3) المرجع نفسه، المقامة المضيرية، ص 133.

(4) المرجع نفسه، المقامة الشيرازية، ص 196.

قال: طريق اليمن.

وتقدير المحذوف يكون كما يلي: " شدنا في قرن طريق اليمن ".

ومن أمثلة الحذف الجملي، ما ورد في المقامة العلمية[1]:

يقول عيسى بن هشام: «كُنْتُ فِي بَعْضِ مَطَارِحِ الغُرْبَةِ مُجْتَازاً، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَقُولُ لآخَرَ: بِمَ أَدْرَكْتَ العِلْمَ؟ وَهُوَ يُجِيبُهُ، قَالَ: طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ بَعِيدَ المَرَامِ...».

يقع الحذف في هذا المثال في جملة جواب السؤال " طلبته فوجدته بعيد المرام " وتقدير العنصر المحذوف يكون كما يلي:

{أدركت العلم} بأن طلبته فوجدته...

فالجملة الفعلية أدركت العلم ـ تمثل العنصر المحذوف

يقع الحذف في الأمثلة السابقة في جملة جواب السؤال، ويسبق وقوع الحذف قرينة في السؤال ترشد القارئ إلى وجود الحذف، ومكانه في الجملة الثانية (وهي جملة جواب السؤال)، ويشير تعدد أنواع الحذف في المقامة إلى اختلاف الوظيفة النحوية للمحذوف، مما يضفي تنوعا على البنية التركيبية للنصوص المقامية.

د- الاستبدال Substitution:

يؤدي الاستبدال الوظيفة نفسها التي يؤديها الحذف إذ يعد وسيلة من وسائل الاقتصاد في استخدام اللغة، كما يجنب المؤلف تكرار العبارات نفسها، حيث يسمح بحفظ المعنى مستمرا ومتواصلا في ذاكرة القارئ، دون الحاجة إلى إعادة التصريح به مرة أخرى[2].

وينقسم الاستبدال إلى استبدال اسمي، استبدال فعلي واستبدال قولي؛ يتم الاستبدال الاسمي من خلال عناصر لغوية اسمية مثل " آخر، آخرون، نفس "[3].

ومن نماذجه ما ورد في المقامة الأسدية[4]:

---

(1) المرجع نفسه، المقامة العلمية، ص 230.

(2) عزة شبل محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، ص 114.

(3) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 123.

(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص 36.

يقول عيسى بن هشام: «... فَعَمَدَ إِلَى قَوْسِ أَحَدِنَا فَأَوْتَرَهُ، وَفَوَّقَ سَهْماً فَرَمَاهُ فِي السَّماءِ، وَأَتْبَعَهُ بِآخَرَ فَشَقَّهُ في الهَواءِ، وَقَالَ: سَأُرِيكُمْ نَوعاً آخَرَ...».

إذا تأملنا المثال السابق وتحديدا قوله " وأتبعه بآخر " نلاحظ أنه تم استبدال كلمة " آخر " بكلمة " سهم "؛ أي وأتبعه بسهم، وتم الاستدلال على ذلك من النص نفسه.

ومن أمثلة الاستبدال الفعلي ما ورد في المقامة المارستانية[1]:

يقول عيسى بن هشام: «... لاَ واللهِ مَا أَدْرِي، غَيْرَ أَنِّي هَمَمْتُ أَنْ أَخْطُبَ إِلَيَّ أَحَدِهِمْ وَلَمْ أُحَدِّثْ بِها هَمَمْتُ بِهِ أَحَداً، وَاللهِ لا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَداً».

فكلمة " لا أفعل " استبدلت بكلام كان من المفروض أن يحل محلها وهو " هممت أن أخطب ".

ويتم الاستبدال القولي باستخدام (ذلك، لا)[2] ومن نماذجه ما ورد في المثال السابق لا أفعل ذلك أبدا.

وكلمة ذلك جاءت بدلا من الكلام السابق عليها مباشرة «... لاَ واللهِ مَا أَدْرِي، غَيْرَ أَنِّي هَمَمْتُ أَنْ أَخْطُبَ إِلَيَّ أَحَدِهِمْ وَلَمْ أُحَدِّثْ بِها هَمَمْتُ...». وقد أحال هذا العنصر اللغوي (ذلك) إحالة قبلية، فكان عاملا من العوامل المساعدة على التماسك النصي بين جمل المقامة.

ومن النماذج الأخرى للاستبدال القولي ما ورد في المقامة الأسدية[3]، يقول عيسى بن هشام على لسان الفتى التركي: «فَقَالَ: أَلاَ تَقِيلُونَ فِي الظِّلِّ الرَّحْبِ، عَلى هَذا المَاءِ الْعَذْبِ؟ فَقُلْنَا: أَنْتَ وَذَاكَ...».

فكلمة " ذاك " جاءت بدلا من السؤال السابق عليها، فأحالت إحالة داخلية قبلية لجملة سابقة عليها مباشرة، " أفلا تقيلون في الظل الرحب على هذا الماء العذب؟ " مما أسهم ذلك بوضوح في ربط أجزاء النص الواحد، دون الحاجة إلى تكرار العناصر اللغوية.

أفاد الحذف والاستبدال تحقيق إيجاز النص، وتماسك أجزائه، مما خلق استمرارية المعنى

---

(1) المرجع نفسه، ص 146.

(2) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 124.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 41.

السابق في اللاحق، دون تكرار الوحدات اللغوية.

ورد الحذف بأنواعه في النص بمجموع يقدر بـ 150 حالة حذف، وتقدر ظاهرة الاستبدال في النص بـ 42 حالة استبدال، ويتضح ذلك أكثر من خلال الجدولين الآتيين:

أنواع الحذف في المقامات المختارة

حذف اسم	حذف فعل	حذف جملة	حذف عبارة	المجموع
117	16	10	07	150

أنواع الاستبدال في المقامات المختارة

استبدال اسمي	استبدال فعلي	استبدال قولي	المجموع
22	07	13	42

يعمل كل من الحذف والاستبدال معا، في صورة شبكة متداخلة العلاقات؛ إذ أن العلاقة بينهما أشبه ما تكون بعلاقة التضمين، فالاستبدال يتضمن الحذف، ومن ثم يمكن عد الحذف شكلا من أشكال الاستبدال[1]، وإن كانت هاتان الظاهرتان قد خلقتا تلاحما لأجزاء النص، وإيجازا واقتصادا للغته، إلا أن حضورهما في المقامات المختارة كان بنسبة أقل، مقارنة بالإحالات الضميرية والإشارية، وظواهر نصية أخرى مثل الوصل.

ومن خلال استقرائنا للجداول السابقة نستخلص أن:

- الربط بين عناصر المقامة الواحدة تم بوسائل اتساقية شتى أشهرها " الواو " التي بلغت نسبة تواترها في النص أعلى نسبة (69.26٪).
- أن الربط بالفاء كان بنسبة أقل مقارنة بالواو حيث بلغ ورودها بنسبة (25.96٪).
- اتسقت النصوص المقامية وبدت نصا واحدا لارتباط أحداثها ببطل واحد أحيلت إليه أغلب الضمائر سواء أكانت هذه الضمائر ظاهرة أم مستترة وقد بلغ مجموعها (701 ضميرا).
- تماسكت أبنية هذا النص وارتبطت لأحادية الراوي " عيسى بن هشام " إلا أن مجموع

(1) عزة شبل محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، ص 115.

الضمائر المحيلة إليه كان بدرجة أقل (413 ضميرا).

- إن كانت أدوات الاتساق قد ساهمت في ربط نسيج النص المقامي، فإن الإحالات الضميرية والإشارية قد قامت بذلك بدرجة عالية، وبشكل أوضح، مقارنة ببقية الأدوات الاتساقية الأخرى مثل: الحذف والاستبدال.

وإن كنا -فيما سبق- أثبتنا أهمية وسائل الترابط النصي في تحقيق تماسك النص المقامي واتساقه، فإن نتائج البحوث اللسانية النصية أثبتت عدم كفاية هذه الوسائل في البرهنة على تماسك النصوص واتساقها؛ إذ لابد من النظر في زوايا أخرى للنص، تبرز لنا علاقات أخرى خفية كامنة في أرجائه، فهذا النوع من الاتساق الذي يخص الإحالة بأنواعها والحذف والاستبدال والمقارنة لا يعدو أن يكون وسيلة نحوية شكلية، تربط بين العناصر المكونة لسطح النص، من خلال البحث عن العنصر المفترض -كما أشرنا في الجدول السابق- ومن ثمة فإنه لا يعدو كونه ضروريا للولوج إلى عالم النص.

2- الاتساق المعجمي:

ويسمى أيضا الربط الإحالي الذي يقوم من خلال المعجم ويتحقق بواسطة اختيار المفردات عن طريق إحالة عنصر لغوي إلى عنصر آخر، فيحدث الربط بين أجزاء الجملة، أو المتتاليات الجملية، من خلال استمرار المعنى السابق في اللاحق، بما يمنح النص صفة النصية، حيث تتضافر الوحدات المعجمية على نحو منتظم في اتجاه بناء الدلالة الكلية للنص[1].

يمثل هذا النوع من الاتساق مظهرا من مظاهر التحليل النصي المعاصر؛ إذ يسهم بشكل واضح في ربط العناصر اللغوية المشكلة للنص.

ويختلف عن الاتساق النحوي الشكلي في كونه لا يبحث عن العنصر المفترض أو المفترَض[2] كما سبق الإشارة ولا عن علاقات نحوية " Des Relation grammaticales " تشكل نسيج النص، بل يتحقق الاتساق المعجمي عبر ظاهرتين لغويتين تكشف عنهما خطية

---

(1) المرجع نفسه، ص 105.

(2) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 24.

النص: التكرار Récurrence والمطابقة dénotation.

أ- التكرار Récurrence:

يطلق بعض الدارسين على هذه الوسيلة الاتساقية " الإحالة التكرارية " ويتمثل في إعادة عنصر أو عدد من العناصر اللغوية في بداية كل جملة من جمل النص لغرض التأكيد[1].

تشير الدراسات اللسانية إلى أن هذه الظاهرة اللغوية تسهم بشكل واضح في ربط عناصر النص المتباعدة، كما تحقق استمرارية النص وتلاحما بين عناصره من خلال استمرارية عنصر لغوي من أول النص إلى آخره، وهذا العنصر يربط أجزاء النص مع تضافر عوامل تماسك النص الأخرى[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا العرض النظري الموجز: كيف يمكن لهذه الوسيلة الاتساقية (التكرار) أن تسهم في تحقيق التماسك النصي للنماذج المقامية المختارة؟

هذا ما نحاول بحثه عبر النماذج التالية من المقامات.

عني بديع الزمان الهمذاني في مقاماته بانتقاء الألفاظ الباهرة، والأساليب الساحرة إنه رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه، كما وصف نفسه على لسان أبي الفتح الاسكندري.

ومن أشرف ما امتازت به لغته، أنها تبدو للوهلة الأولى عبارة عن ألاعيب لفظية تحمل في طياتها إمارات العقل والذكاء وخفة الروح ما يوجب الإعجاب[3].

إن هذه اللغة الساحرة، توحي بعبقرية ناظمها، فقد حشد الهمذاني لموضوعه الأكبر زخما من المفردات لخدمة أغراضه ومقاصده، وإذا كان التحليل النحوي للنماذج المختارة قد كشف عن سيطرة الإحالات الضميرية التي تشير أغلبها إلى أبي الفتح الاسكندري صانع أحداث المقامات، فالأمر هنا لا يختلف عن سابقه، إذ تكرر اسم البطل بصور مختلفة عن

---

(1) الأزهر الزناد: نسيج النص، ص 119.

(2) صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي، ج2، ص 22.

(3) إكرام فاعور: مقامات بديع الزمان الهمذاني على أحاديث ابن دريد، دار اقرأ، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص 69.

طريق (الاسم الظاهر، وصفاته، أو الضمائر المحيلة إليه).

من خلال استقرائنا للمدونة تبين أن اسم البطل قد تكرر (28 مرة) تكرارا واضحا عبر كامل النماذج المختارة، كما تكرر ذكره بصفات ونعوت مختلفة شاب وقد تكررت (مرتين)، يا فاضل (1 مرة)، فتى (4 مرات)، رجل (16 مرة)، سيدي (مرتين)، مولاي (5 مرات)، شيخ (8 مرات)، إمام (3 مرات)، زعيم (مرة واحدة)، رفيق (مرة واحدة)، ومن صفاته أيضا أنه: (مجنون، متعام، أعمى، مكفوف، أشحذ رجل، الرجل التقي، ظريف الطبع، ظريف المجون، قراد، ضيف وطؤه خفيف، جار يستعدي على الجوع، غريب، رجل الفصاحة، رجل البلاغة). كل هذه الصفات تحيل إحالة نصية داخلية إلى شخص الاسكندري.

إن التصريح باسم البطل، وتكراره مرات عدة، والإشارة إلى صفاته يولد «قوة في اللفظ، وقوة في الدلالة»[1]. وهذا يسهم في تحقيق استمرارية النصوص المقامية وترابطها على اختلاف موضوعاتها.

تكررت الضمائر المحيلة إلى شخص البطل وأغلبها ضمائر متصلة بحروف الجر، وقد أحالت كلها إحالة داخلية نصية لأبي الفتح الاسكندري، وقد بلغ مجموع تواترها في النماذج المختارة كما يلي:

الضمائر المتصلة والمحيلة كلها إلى أبي الفتح الاسكندري

لي، علي، عني، في، مني ← على لسان أبي الفتح

↓ ↓ ↓ ↓ ↓

6م 5م 2م 3م 3م

عليه، به، معه، له، عنه، إليه ← على لسان الراوي

↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓

4م 2م 1م 10م 2م 7م

تكرر حرف " الكاف " الدال على المخاطب وفي ذلك توجيه النظر إلى الحوار الذي جرى أغلبه بين قطبين بارزين في النص (بطل المقامات، أبو الفتح الاسكندري – الراوي

(1) صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي، ج2، ص 29.

عيسى بن هشام).

ومن أمثلة ذلك:

- «فَأَبْرُزْ لِي عَنْ بَاطِنِكَ أَخْرُجْ إِلَيْكَ عَنْ آخِرِهِ...»[1].
- يروي عيسى بن هشام فيقول: «يا أَبَا الفَتْح، شَدَّ مَا بَلَغتْ مِنْكَ الخَصَاصَةُ. وَهذَا الزِّيُّ خَاصَّةٌ...»[2].

نلاحظ أن كاف الخطاب قد اتصلت مرة بالاسم (باطن)، ومرة بحروف الجر (لـ، بـ).

ويمكن أن نشير هنا إلى أن التكرار أسهم في تحقيق الترابط النصي عبر الأنواع الآتية:

1 - التكرار المحض.

2 - التكرار النحوي (التوازي).

3 - شبه التكرار.

4 - التكرار الجزئي.

5 - التكرار بالمرادف.

تكشف بنية النظام اللغوي للنص المقامي على وجود صور عدة للتكرار هدفها تدعيم التماسك النصي، سواء أكان ذلك على مستوى المقامة الواحدة أو المقامات ككل، ولنتأمل المثال الآتي:

- «يَا غُلاَمُ الطَّسْتَ وَالمَاءَ... وَتَقَدَّمَ الغُلاَمُ... تَرى هذَا الغُلاَمَ؟... تَقَدَّمْ يَا غُلاَمُ وَاحْسِرْ عَنْ رَأْسِكَ، وَشَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ،... فَفَعَلَ الغُلاَمُ ذَلِكَ... فَوَضَعَهُ الغُلاَمُ... يَا غُلاَمُ الإِبْرِيقُ... أَرْسِلِ المَاءَ يَا غُلاَمُ... يَاغُلاَمُ الخُوَانَ... فَأَتَى الغُلاَمُ... عَجِّلْ يَاغُلاَمُ الطَّعَامَ...»[3].

تكررت لفظة " غلام " (إحدى عشرة مرة)، وردت معرفة بالألف واللام (أربع مرات) ونكرة (سبع مرات)، وتتفق جميعها في المعنى؛ إذ تحيل كلها إلى الخادم الذي يعمل في

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الأزاذية، ص 14.

(2) المرجع نفسه، المقامة الكوفية، ص 33.

(3) المرجع نفسه، المقامة المضيرية، ص 131، 132، 133.

بيت التاجر.

إن تكرار لفظة " غلام " مرات عدة في نص المقامة المضيرية، كان خدما للمعنى؛ إذ حقق استمرارية لهذا لنص، وتماسكا بين عناصره المتباعدة، وهذا النوع من التكرار يطلق عليه التكرار المحض مع وحدة المرجع[1]، ونمثل له في النماذج الآتية ولنتأمل المثال[2]:

«فَأَخَذْنَا فِي وَصْفِ الجَاحِظِ... ولِكُلِّ زَمَانٍ جَاحِظٌ... إنَّ الجَاحِظَ في أَحَدِ شِقَّيِ البَلاَغَةِ يَقْطِفُ... فَهَل تَرْوُونَ للْجاحِظِ شِعْراً رائِعاً؟...».

تكرر اسم " الجاحظ " أربع مرات في نص المقامة الجاحظية، بالإضافة إلى تكرار الضمائر المحيلة إليه، ومن ثم يسهم هذا النوع من التكرار (التكرار المحض مع وحدة المرجع) في خلق المعنى وتحديده.

- يرد عيسى بن هشام في المقامة المارستانية على أبي داوود المتكلم فيقول: «هَالِكٌ؟ أَتَعْلَمُونَ يَقِيناً، أَنَّكُمْ أَخْبَثُ مِنْ إِبْلِيسَ دِيناً؟ قَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَني، فَأَقَرَّ وَأَنْكَرْتُمْ وَآمَنَ وَكَفَرْتُمْ، وَتَقُولونَ: خُيِّرَ فَاخْتَارَ، وَكَلاَّ فَإِنَّ المُخْتارَ لاَ يُبْعَجُ بَطْنَهُ»[3].

تكرر لفظ " الاختيار " ثلاث مرات بمختلف اشتقاقات اللفظة: (خير، اختار، مختار) فالأول مبني للمجهول والثاني فعل ماض والثالث اسم فاعل.

تكررت هذه الكلمات بصور مختلفة مع وحدة المرجع، فأفادت ربط أجزاء الكلام السابق منه باللاحق، إذ أسهم ذلك في تأكيد المعنى وتقويته، كما أضفى تنويعا على البنية التركيبية.

ونجد تكرار الجمل (التكرار المحض مع وحدة المرجع)، ونبدأ بما تفتتح به كل المقامات جملة " حدثنا عيسى بن هشام قال "، تكررت هذه الجملة في بداية كل مقامة من مقامات الهمذاني، فكانت بذلك خيطا رابطا للمقامات جميعا.

---

(1) هو شكل من أشكال التماسك المعجمي، والتكرار المحض نوعان:

- تكرار مع وحدة المرجع (أي يكون المسمى واحدا)، مثال: لفظة غلام في المتن تكررت ولكن تشير إلى مسمى واحد.
- تكرار مع اختلاف المرجع (أي المسمى متعدد). للاستزادة انظر أحمد عفيفي: نحو النص، ص 107.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الجاحظية، ص 89.

(3) المرجع نفسه، المقامة المارستانية، ص 143.

يؤدي تكرار الجمل (التكرار المحض مع وحدة المرجع) إلى الربط بين أكثر من مقامة ولنتأمل الأمثلة الآتية:

يروي عيسى بن هشام في [المقامة القريضية][1] و[المقامة الشعرية][2] فيقول: «فَجَلَسْنَا يَوْماً نَتَذَاكَرُ القرِيضَ وَأَهْلَهُ، وَتِلْقَاءَنا شَابٌ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ بَعِيدٍ يُنْصِتُ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ، وَيَسْكتُ وَكَأَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ».

«فَجَعَلْنا نَتَذَاكَرُ الشِّعْرَ فَنُورِدُ أَبْيَاتَ مَعَانِيه، وَنَتَحاجى بِمَعَامِيهِ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَيْنَا فَتَىً يَسْمَعُ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ، وَيَسْكُت وَكَأَنَّهُ يَنْدَمُ».

نتذاكر القريض شاب ينصت كأنه يفهم، ويسكت وكأنه
↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓
نتذكر الشعر فتى يسمع وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه

نجد تكرار محضا لهاتين الجملتين مع وحدة المرجع الفتى أو الشاب تحيل إلى أبي الفتح الاسكندري. إن تكرار هذه المتواليات اللسانية أسهم في تأكيد المعنى، وخدمة غرض المخاطب في الربط بين مقامتين [المقامة القريضية، والمقامة الشعرية].

ويربط التكرار أيضا بين مقامات متباعدة وهذا ما سنمثل له في الجدول الآتي:

اسم المقامة	الجملة المكررة
المقامة الأزاذية	فإذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري
المقامة الكوفية	فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري
المقامة الأذربيجانية	فإذا هو والله أبو الفتح
المقامة المكفوفية	فإذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري
المقامة القزوينية	فإذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري
المقامة القردية	فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري
المقامة الخمرية	فإذا هو اسكندرينا أبو الفتح

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 07.

(2) المرجع نفسه، ص 252.

يحيل التكرار إلى مرجوع واحد هو أبو الفتح، الذي يرغب أحيانا في التستر والاختفاء، عندما يريد أن يمرر حيله على ضحاياه، حتى يصل إلى ما يصبو إليه، إلا أن عيسى بن هشام سرعان ما يكشف ألاعيبه وحيله، فيردد هذه الجملة في نهاية بعض المقامات: «فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري»، مع بعض التغيير أحيانا في صياغة الجملة؛ إما بحذف الضمير " هو " أو " الشيخ " أو " القسم ".

أحكمت هذه الوسيلة الاتساقية (التكرار) في الربط بين مقامات مختلفة الأغراض والمواضيع، إذ هذا الربط دليل على أن هذه المقامات تحوم حول فكرة واحدة، وتعالج قضية واحدة تتمثل في مكانة المثقف البائس وسط مجتمع جائر لا يقيم وزنا لا للأدب ولا للأدباء، مما دفع الكثير منهم للاستجداء في أعتاب البلاط، حتى يتمكنوا من كسب قوت يومهم.

يسيطر التكرار على النص المقامي لبديع الزمان الهمذاني سيطرة واضحة، إذ باتت هذه الوسيلة الاتساقية متحكمة أشد التحكم في النسيج المقامي، فبدت الألفاظ والعبارات المكررة بكثرة لازمة، ولافتة للانتباه، مما صبغ النص بصبغة خاصة، ميزته عن النصوص التراثية الأخرى.

من صور التكرار الواردة في النص أيضا:

اسم المقامة	التكرار الجزئي	اسم المقامة	التكرار بالمرادف
1 – المقامة القريضية	{طرحتني، مطارحها} {وصف، صفاتها} {أغزر، غزرا} {يغرنك، الغرور} {در، تدور}	المقامة القريضية	رفقة = صحابة المحدثون = المتأخرون
2 – المقامة الأسدية	{يخد، خد} {أحسب، حسابك} {التمس، الملتمس} {أنف، أنفا}	المقامة الأسدية	خطب = حادث

اسم المقامة	التكرار الجزئي	اسم المقامة	التكرار بالمرادف
3- المقامة الكوفية	{كوفي، الكوفة} {قرع، القارع} {قبضت، قبضة} {زدنا، نزدك}	المقامة الكوفية	فر = طريد الجود = الفضل
4- المقامة الإذربيجانية	{سلكت، مسالك} {سرت، السير} {المقام، أقمنا} {فطرته، الفطرة}	المقامة الإذربيجانية	اعتضدها = اعتمدها جوالة = جوابة
5- المقامة الجاحظية	{تنتقي، انتقت} {بساطها، بسطت} {صرنا، صاروا} {تهدمني، هد}	المقامة الجاحظية	تنتقي = تنتخب تهدمني = هد بسط = مد تلقائه = إزائه ساكت = لا ينبس
6- المقامة المكفوفية	{إيقاع، الإيقاع} {يستمعون، السماع، أسمع} {ناله، نالوه}	المقامة المكفوفية	الثناء = الإطراء
7- المقامة القزوينية	{غزوت، غزاه، غزوها} {تسيح، سيح} {خرجت، خروج} {قناطير، مقنطرة} {برزت، برزت}	المقامة القزوينية	مرافده = مساعدة

ومن صور التكرار أيضا، شبه التكرار، والتكرار الجراماتيكي:

اسم المقامة	شبه التكرار	اسم المقامة	التكرار الجراماتيكي
المقامة القريضية	لفظت، أفصحت أحبكم، أعجبكم صخرا، فخرا أفتخر، احتقر	المقامة القريضية	ينصت وكأنه يفهم ويسكت وكأنه لا يعلم
المقامة الأزاذية	الإزار، الوزار قبضت، قرضت	المقامة الأسدية	جاد بنفسه، وصار لرمسه فأثبته في بطنه، وأبنته من متنه
المقامة الكوفية	شائعة، سابغة المروضة، المفروضة	المقامة الوصية	خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك فإن قبلت فالله حسبك وإن أبيت فالله حسيبك
المقامة المكفوفية	يسرك، سترك قدر، قدر	المقامة المكفوفية	أزحم هذا وأدفع ذاك فرق له قلبي واغرورقت له عيني
المقامة المارستانية	مرة، مرة شيطان، أشطان بغيضكم، يغيضكم	المقامة الصفرية	تعجب الحاضرين وتسر الناظرين
المقامة الخمرية	للمقة، للنفقة الخلوة، الحلوة الندمان، الدنان	المقامة الشعرية	يسمع وكأنه يفهم ويسكت وكأنه يتكلم فإما أن تقعد وإما أن تبعد نفضنا الكبائن وأفضينا الخزائن

من خلال استقرائنا للجدول يتضح أن ظاهرة التكرار تحققت أكثر في المستوى الصوتي وتمثل في تكرر " بعض الوحدات الصوتية "[1] خاصة في المقامة الشعرية، إن تكرر نفس الوحدات الصوتية يعد من السمات الهامة التي تميز نص (المقامات) عن النصوص النثرية الأخرى، ويجسد هذا النوع من التكرار على المستوى الصوتي الظواهر الآتية: السجع، الجناس، القافية، حيث تؤدي كل هذه الظواهر دورا مهما في إنتاج النصوص المقامية وتلقيها، مما ييسر سبل تداولها واستيعابها وحفظها وروايتها، باعتبار أن هذا الفن أنشئ لغرض تعليمي، سواء على مستوى الألفاظ الفصيحة أو الأساليب البليغة[2].

ساهم هذا النوع من التكرار في هذا المستوى من النظام اللساني على إضفاء مسحة فنية شاعرية للنص، كما ألقى بظلال شفافة ليصبح النص المقامي أجمل نسجا، وآنق حبكا، وأنضر تعبيرا، مما يدل على أن الهمذاني حاذق بصنعته، ماهر باستعماله للكلمات والعبارات، فهو يقبلها وينوعها كما يشاء.

إن انتحاء الهذاني هذا السمت من الإبداع، يعكس بوضوح الواقع الذي آل إليه النثر في القرن الرابع الهجري، حيث تحول الأسلوب من البساطة في الكتابة إلى التعقيد، فاعتنى الأدباء بالزخرف اللفظي أكثر من اهتمامهم بالمعاني[3].

وإن كانت المقامات تسحر متلقيها بأسلوبها الجميل، وكلامها المزخرف، فقد حققت بذلك غاية منشئها؛ إذ جاءت لتسلي القارئ بحوادثها وتقدم له أكبر طاقة ممكنة من اللغة والبيان؛ إنها استجابة لهدف تعليمي بالدرجة الأولى[4].

أسهم النوع الثاني من التكرار (التكرار النحوي) الذي تمثل في تكرار الجمل وشبه الجمل المبنية بشكل متواز مع اختلاف الوحدات المعجمية، في توليد الدلالات الخاصة

---

(1) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 110.

(2) عزة شبل محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، ص 125.

(3) إكرام فاعور: مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد، ص 41.

(4) إبلاغ عبد الجليل: شعرية النص النثري، ص 06.

بالوحدات اللغوية[1] المشكلة لنسيج النص.

وقد كان انتشار هذا النوع من التكرار على مستوى سطح النص المقامي، لافتا لانتباه القارئ، مما أضفى إحساسا بمعنى الترابط النصي، ولنتأمل قوله مثلا:

«لِكُلِّ عَمَلٍ رِجَالٌ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ»[2].

«أَزْحَمُ هَذا وَأَدْفَعُ ذَاكَ»[3].

وإذا كانت المقامات تفتتح بعبارة " حدثنا عيسى بن هشام قال " فإن بعضها ختم بعبارة " فإذا هو شيخنا أبو الفتح الإسكندري " وقد أشرنا إليها سابقا. وقد تكررت هذه العبارة مرات عدة لتعمل أيضا على ربط مقامات متقاربة أو متباعدة من حيث الغرض والموضوع.

حقق التكرار النصي بصوره المتعددة ترابطا لعناصر النص المقامي، إذ أسهم وبشكل واضح في لحم أجزائه، فجمع بين عدة مقامات متقاربة ومتباعدة من حيث الغرض والموضوع، ومن خلال وحدة الراوي ووحدة القضية التي يدور حولها هذا اللون النثري، ويمكننا أن نؤكد أنه وبالإضافة إلى ما حققته العلاقات النحوية من ترابط على مستوى سطح النص المقامي، فقد أضاءت هذه الوسيلة الاتساقية المعجمية جوانب أخرى من النص، سواء أكان ذلك بتكرار لفظة أم جملة أم فقرة بكاملها، وحقق بذلك أهم غرض يسعى إليه التحليل النصي المعاصر وهو التماسك النصي.

ب- المطابقة Dénotation:

تعد المطابقة نوع من أنوع الاتساق المعجمي، حيث ترابط العناصر اللغوية بعضها مع بعض، من خلال علاقة التقابل أو التعارض، ويتم الربط من خلال توقع القارئ للكلمة المقابلة، فالكاتب يمنح القارئ فرصة الإبحار في عالم النص من خلال السلسلة المتتابعة

---

(1) أحمد عفيفي: نحو النص، ص 111.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الجاحظية، ص 89.

(3) المرجع نفسه، المقامة المكفوفية، ص 93،

للكلمات، والتي تسهم بشكل واضح في خلق تماسك النص[1].

ونحاول إبراز مدى إسهام هذه الوسيلة الاتساقية في تحقيق ترابط النصوص المقامية المختارة.

تتوضح المطابقة بشكل بارز من خلال ظهور أبي الفتح الاسكندري بطل المقامات، بصور وهيئات مختلفة، وفي الحقيقة إن كل مظهر أو صفة تلوح في أفق حياة البطل، هي انعكاس لملابسات وظروف ذلك الواقع المعقد، الذي عاش فيه بديع الزمان نفسه، ذلك الواقع البائس الذي دفع الكثير من المثقفين الفقراء والنابغين بأن يجيدوا ألوانا من الحيل تساعدهم على الارتزاق، وكسب قوت يومهم، ومن هنا بدأ التجاوب واضحا بين مأساة تلك الفئة المغلوبة على أمرها ومأساة المجتمع العباسي الذي يعيش فيه الهمذاني وأمثاله.

وقد رأينا ومن خلال التحليل النحوي للمدونة – مجموعة من السلوكات المتناقضة تحملها شخصية البطل، والتي تعكس المتناقضات الموجودة في الواقع المعيش، فيبدو أبو الفتح في بعض المقامات إماما تقيا، وفي مقامات أخرى يبدو ماجنا مستهترا يصور حاله فيقول (من مجزوء الرمل):

سَـــاعَةَ أَلْـــزَمُ مِحْـــرَا بـاً، وَأُخْـرَى بَيْـتَ حَـانِ[2]

ويقول في موضع آخر(من مجزوء الرمل):

أَغْتَـدِي فِي الـدَّيْرِ قِسِّيساً وَفِي المَسْـــجِدِ رَاهِـــبْ[3]

ويقول أيضا: «وَجَعَلْتُ النَّهَارَ لِلنَّاسِ، وَاللَّيْلَ لْلكاَسِ»[4].

إنه يلبس لكل حالة لبوسها، ويتلون بألوان تتناسب مع ظروف وملابسات تلك البيئة التي يعيش فيها، يقول(من مجزوء الخفيف):

أَنَـــا أَمْسِي مِـــنَ النَّبِيـــ ـطِ وأُضْـــحِي مِـــنَ العَـــرَبْ[1]

---

(1) عزة شبل محمد: علم لغة النص بين النظرية والتطبيق، ص 109.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الخمرية، ص 269.

(3) المرجع نفسه، المقامة المارستانية، ص 141.

(4) المرجع نفسه، المقامة الخمرية، ص 269.

ويقول في موضع آخر(من مجزوء الرمل):

أَنَـــا فِي الحَـــقِّ سَـــنَامٌ لَنَـــا فِي البَاطِـــلِ غَـــارِبْ[1]

ومن ناحية ثانية، نجده يغزو القلوب ويسحر العقول بقدرته البيانية، ليحقق مبتغاه، وينال من ضحاياه، إنه «رَجُلُ الفَصَاحَةِ يَدْعُوهَا فَتُجِيبُهُ، وَالبَلاغَةِ يَأْمُرُهَا فَتُطِيعُهُ»[2].

إنه يستعمل براعته الأسلوبية[3] للتكدي والاحتيال على الناس، يقول: «اللّهُمَّ يا مُبْدِئَ الأَشْيَاءِ وَمُعيدَهَا، وَمُحْيِيَ الْعِظَامِ وَمُبِيدَها، وَخَالِقَ الْمِصْباحِ وَمُدِيرَهُ، وفالِقَ الإِصْباحِ وَمُنِيرَهُ، وَمُوصِلَ الآلاءِ سابِغَةً إِلَيْنا، وَمُمْسِكَ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَيْنَا، وَبَارِئَ النَّسَمِ أَزْواجاً وَجَاعِلَ الشَّمْسِ سِرَاجاً...»[4].

ونجده في مقامات أخرى أديبا بليغا وناقدا فذا، كما اتضح ذلك من خلال المقامة القريضية والمقامة الشعرية والمقامة الجاحظية.

ولو واصلنا بحثنا في ثنايا المقامات لوجدنا تناقضات كثيرة، سنبرز بعضا منها في المطابقة بين الكلمات في الأمثلة الآتية:

المقامة المضيرية[5]: (افتخر ≠ احتقر)، (يثلب ≠ يمدح)، (رغب ≠ رهب)

(المتقدمون ≠ المتأخرون)، (فارقنا ≠ وافانا)

(المزاح ≠ الجد)، (ساع ≠ قاعد)، (أقبل ≠ أدبر)

(أعلاه ≠ أسفله)، (قدم ≠ خدث)، (الأراذل ≠ الأخيار)

المقامة المكفوفية[6]: (فقر ≠ غنى)، (عسر ≠ يسر)

ومن أمثلة الجمل المتضادة (المقابلة):

---

(1) المرجع نفسه، المقامة القزوينية، ص 102.

(2) المرجع نفسه، المقامة المارستانية، ص 141.

(3) المرجع نفسه، المقامة المضيرية، ص 122.

(4) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 90.

(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الأذربيجانية، ص 53.

(6) المرجع نفسه، ص 122.

(7) المرجع نفسه، ص 93.

المقامة المارستانية[1]: (تعيشون جبرا ≠ وتموتون صبرا)

(فأقر ≠ وأنكرتم)

(تؤمن ببعض ≠ وتكفر ببعض)

(أنا في الحق سنام ≠ وفي الباطل غارب)

(أغتدي في الدير قسيسا ≠ وفي المسجد راهب)

المقامة الوصية[2]: (كن مع الناس كلاعب الشطرنج خذ كل ما معهم ≠ واحفظ كل ما معك)

(... إذا قبلت فالله حسبك ≠ وإن أبيت فالله حسيبك)

المقامة الشعرية[3]: (وأي بيت سمح وضعه ≠ وحسن قطعه)

(وأي بيت نصفه يضحك ≠ ونصفه يؤلم)

(وأي بيت لفظه حلو ≠ وتحته غم)

(وأي بيت طرده مدح ≠ وعكسه قدح)

(وأي بيت آخره يطرب ≠ وأوله يطلب)

المقامة القريضية[4]: (فجعلت أنفيه وأثبته ≠ وأنكره وكأني أعرفه)

المقامة القزوينية[5]: (أنا أمسي من النبيط ≠ وأضحى من العرب)

المقامة الجاحظية[6]: (بعيد الإشارات ≠ قريب العبارات)

ولنتأمل هذا المثال من المقامة الجاحظية[7](من مجزوء المجتث):

لكِـــنَّ لَـــيْلِي بنَـجْـــدٍ وَبالحِجَـــازِ نَهَـــارِي

أ ب

---

(1) المرجع نفسه، ص 141.

(2) المرجع نفسه، ص 235.

(3) المرجع نفسه، ص 254.

(4) المرجع نفسه، ص 11.

(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 107.

(6) المرجع نفسه، ص 90.

(7) المرجع نفسه، ص 92.

فالتقابل هنا بين مجموعتين (أ) و(ب) ليس على أساس الوزن الصرفي فقط، وإنما يلاحظ: تناظر مكاني، وتناظر زماني.

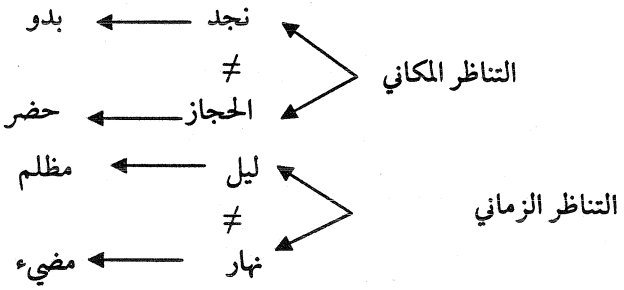

أضفت المطابقة على المقامات صبغة جمالية، وسحرا بيانيا، فقد لجأ الهمذاني لإصابة المعاني بأقرب المسالك، ولم يقصد البديع المطابقات لذاتها فحسب؛ بل يريد إلى جانب ذلك الظلال الكثيفة التي تغلف قوله، والإيحاءات والدلالات الصادرة عن هذا القول.

ولاشك أن توافر النصوص المقامية على مطابقات كثيرة، قد أحدث رونقا لظهور بعضها ببعض، لأن الضد يظهر الحسن في ضده.

يحقق الاتساق المعجمي استقرارا ورسوخا لهذه النصوص النثرية، إذ أن أهميته تكمن في عدم تشتيت الدلالات الواردة في الجمل المكونة للنص، فعلاقة التكرار والمطابقة مع غيرها من العلاقات النحوية، أسهمت بشكل واضح في تحقيق الترابط والتماسك بين الأجزاء المكونة لهذا النموذج الفني، وهذا ما يسعى إليه التحليل النصي المعاصر.

ثانيا: الانسجام Cohérence:

إذا كان اتساق النص يعتمد على متتالية من الجمل تربط بينها أدوات ووسائل لغوية تكشف عنها "خطية النص" Liénarité du texte، فإن الانسجام Cohérence يعتمد على الاتساق Cohésion[1] وظواهر أخرى غير خطية، سنتدرج في رصدها في هذا القسم من الدراسة.

غير أن النص قد يكشف عن مؤشرات الاتساق التام Les signes d'une cohésion

(1) DOMINIQUE Mainguenaux: Les termes clés de l'analyse de discours, p 16.

parfaite، إلا أنه مع ذلك لا يكون منسجما[1]، يتغير الحكم الذي يفضي بانسجام النص أو عدم انسجامه حسب المتلقين ومدى إدراكهم للسياق Connaissance du contexte، الذي أنتج فيه[2].

1- العلاقات Relations:

إن البحث عن الانسجام النصي يحيلنا إلى رصد مجموعة من العلاقات الدلالية، التي تسعى إلى جمع الأجزاء المتباعدة للنص، دون الاعتماد على أدوات أو وسائل شكلية.

وسوف نقف عند مجموعة من العلاقات التي أكدت عليها الدراسات اللسانية الحديثة.

أ- الإجمال والتفصيل:

يخضع النص المقامي إلى علاقة الإجمال والتفصيل، سواء أكان ذلك على مستوى المقامة الواحدة أم على مستوى أكثر من مقامة، إذ تمثل المقامات فيما بينها نسيجا نصيا عاليا[3]، إذ أنها تبرز قدرة أدبية فريدة، وتنبئ عن عبقرية ناظمها.

والسؤال الآن: كيف أسهمت علاقة الإجمال والتفصيل في إضفاء مسحة جمالية على النص المقامي؟ وكيف يمكن اعتبار هذه العلاقة من المقومات الأساسة التي ترتكز عليها البنية الدلالية للمقامات؟

أجمل الهمذاني الدوافع التي تحرك تصرفاته في أشعاره، والتي ختم بأغلبها مقاماته هذه التصورات في الحقيقة هي تعبير عن فلسفة الاسكندري في الحياة[4]، وطبيعة نظرته لهذا الواقع المشؤوم، الذي رماه بالفقر والجوع ودفعه للاحتيال والتكدي، إنه يحاول أن يجلي حقيقة وهي أنه لم يسلك كل تلك المسالك بدافع الشر بل كان مدفوعا إليها بجور الأيام، يقول[5](من الهزج):

---

(1) Ibid, p17.

(2) Ibid, p18.

(3) صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي، ج2، ص 162.

(4) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 112.

(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الأزاذية، ص 15.

أَرَى الأَيَّـــامَ لا تَبْقَـــى عَـــلَى حَـــالٍ فَأَحْكِيهَـــا
فَيَوْمـــاً شَرُّهَـــا فِـــيَّ وَيَوْمـــاً شِرَّتِي فِيهَـــا

يجمل الهمذاني لفظ " الأيام" في هذا البيت، وأشار فقط إلى أنها لا تدوم على حال ثابتة، ثم يفصل في البيت الثاني ما صنعته به يقول:

الأيـام ← فيوما شَرُّها فيّ
ويوما شِرَّتي فيها

إنه يعتب على الأيام التي ضاع فيها أصحاب العلم والنبوغ، وفاز فيها كل متحامق، فإذا كانت الأيام قد رمته بالفقر والاحتياج فإنه قد تحداها بنشاطه وخفته بما يدفع البؤس عنه.

إن هذا التحدي في الحقيقة يبرز جوانب الثورة في شخصية أبي الفتح، الذي أبى أن يقف موقفا سلبيا، وينأى بنفسه لكي يفترسه الجوع والفقر[1].

يحاول الهمذاني من خلال هذه الشخصية الفنية، أن يرسم ملامح نفسية متحركة ومتفاعلة مع واقع البيئة العباسية، هذا الواقع المعقد الذي تحول فيه الكثير من الأدباء إلى مكدين أمام أعتاب البلاط.

وإذا كانت علاقة الإجمال والتفصيل قد أسهمت في ربط المعاني بعضها ببعض، وتكثيف البنية الدلالية لهذه المقطوعة الشعرية، فسوف نبرز دور هذه العلاقة في المقامة الجاحظية[2] يقول أبو الفتح الاسكندري في وصف الجاحظ:

«إنَّ الجَاحِظَ في أَحَدِ شِقَّيِ البَلاَغَةِ يَقْطِفُ، وفِي الآخَرِ يقَفُ» فالفعل المركزي " يقف " فصلته الأفعال اللاحقة له مباشرة:

«والبَليغُ مَنْ لَمْ يُقَصِّرْ نَظْمُهُ عَنْ نَثْرِهِ، ولَمْ يُزْرِ كَلامَهُ بِشِعْرِهِ».

وهي " لم يقصر " و" لم يزر ".

فتأويل الفعل يقف ينبغي أن يتم في حدود هذين الفعلين حيث يقومان بتفصيله

---

(1) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 115.

(2) المرجع نفسه، ص 89.

وتحديد مغزاه.

فالجاحظ يقف في الشق الثاني من البلاغة وهو " الشعر "؛ وهذا ما يعيبه عليه بديع الزمان، إذ أن البليغ يشترط فيه أن يجيد في النثر والنظم معا، فلا يزري نثره بشعره.

وهكذا يتضح أن الفعلين المفصلين " لم يقصر " و" لم يزر " غير مستقلين عن الفعل المجمل " يقف ".

ولنتأمل المثال الثالث[1]: ينشد أبو الفتح فيقول(من الرمل):

إِنْ أَكُ آمَنْتُ فَكَمْ لَيْلَةٍ ... جَحَدْتُ رَبِّي وَأَتَيْتُ المُرِيبْ

يَا رَبَّ خِنْزِيرٍ تَمَشَّشْتُهُ ... وَمُسْكِرٍ أَحْرَزْتُ مِنْهُ النَّصِيبْ

ثُمَّ هَدَانِي اللهُ وَانْتَاشَنِي ... مِنْ ذِلَّةِ الكُفْرِ اجْتِهَادُ المُصِيبْ

فَظَلْتُ أَخْفِي الدِّينَ فِي أُسْرَتِي ... وَأَعْبِدُ اللهَ بِقَلْبٍ مُنِيبْ

أَسْجِدُ لِلاَّتِ حِذَارَ العِدَى ... وَلا أَرَى الكَعْبَةَ خَوْفَ الرَّقِيبْ

وأسأل الله إذا جنني ... ليل وامتنا في يوم عصيب

رب كما أنك أنقذتني ... فنجني إنني فيهم غريب

إلى أن يقول:

فَقُلْتُ: إِذْ لاَحَ شِعَارُ الهُدَى ... نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبْ[2]

نتدرج في رصد علاقة الإجمال والتفصيل وفق نمو هذه القصيدة، إذ بدأ البديع قوله بـ:

إِنْ أَكُ آمَنْتُ فَكَمْ لَيْلَةٍ ... جَحَدْتُ رَبِّي وَأَتَيْتُ المُرِيبْ

فمركز الثقل هنا معنوي، والدلالة الناتجة عن هذا السطر تنبني على المفارقة بين " الإيمان والكفر "؛ إذ أن أبا الفتح لجأ إلى تفصيل حقيقة إيمانه بعد جحوده بربه، وكفره في الأبيات الموالية لهذا البيت، ولمزيد من التوضيح ننتقل إلى التحليل:

جحدت ربي أتيت المريب ـــــــــــ (كفر)

يا رب خنزير تمششته ـــــــــــ (كفر)

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة القزوينية، ص 103، 104.

(2) المرجع نفسه، ص 105.

ومسكر أحرزت منه النصيب ـــــــــــــ (كفر)

ثم هداني الله وانتشاني ـــــــــــــ (إيمان)

من ذلة الكفر اجتهاد المصيب ـــــــــــــ (إيمان)

فظلت أخفي الدين في أسرتي ـــــــــــــ (إيمان)

وأعبد الله بقلب منيب ـــــــــــــ (إيمان)

يقودنا التحليل إلى أن السطور المفصلة للمجمل، الذي يتعلق بالثنائيتين (الإيمان/ الكفر)، تلح على ضرورة بقاء الأصل الصحيح والثابت وهو " الإيمان "، لأنه الطريق المستقيم وهو سبيل النجاة في الدنيا والآخرة، غير أن أبا الفتح الاسكندري في الحقيقة، لا يصبو إلى هذه الغاية، التي تكشف عنها الدلالة المتنامية لهذا النص الشعري، إنما أراد -بإشهاره لإيمانه بعد كفره- الوصول إلى تحقيق متاع الدنيا، فهو يتخذ من الدين وسيلة لتجديد مواطن الكسب والاسترزاق، فإنه لا يتورع عن المساس بالمقدسات للوصول إلى ما يصبو إليه، فهو يتلون بكل لون ويلبس لكل حالة لبوسها، يقول في نهاية هذه المقامة[1](من مجزوء الخفيف):

أَنَـــا حَـــالِي مِـــنَ الزَّمَـــا ... نِ كَحَـــالِي مَـــعَ النَّســـبْ

نَسَـــبِي فِي يَـــدِ الزَّمَـــا ... نَ إِذَا سَـــامَهُ انْقَلَـــبْ

أَنَـــا أَمْسِي مِـــنَ النَّبِيـــ ... ـطِ وأُضْـحِي مِـنَ العَـرَبْ

والأمثلة الآتية التي سنضربها لعلاقة الإجمال والتفصيل تسلك سبيلا مخالفة للأمثلة السابقة، ذلك أننا سنوضح دور هذه العلاقة في التماسك بين المقامات.

نجد الهمذاني يجمل ويفصل على مستوى المقامة الواحدة، ليتابع تفصيل ما تحدث عنه في المقامات الأخرى، والأمثلة على هذا كثيرة نشير إلى بعضها:

*- الحديث عن التستر والتقنع وإخفاء حقيقة الذات، لتمرير الحيلة على الناس في المقامة الأزاذية[2] يقول(من الهزج):

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة القزوينية، ص 102.

(2) المرجع نفسه، ص 15.

فَقَـضِّ العُمْـرَ تَشْـبيهَاً عَـلَى النَّـاسِ وَتَمْويهَـا

ج

ليأتي تفصيل ذلك في المقامات الآتية:

المقامة الكوفية[1](من مجزوء الخفيف):

لاَ يَغُرَّنَـكَ الـذِي لَنَـا فيـهِ مِـنَ الطَّلَـبْ
أَنَـا فِي ثَـرْوَةٍ تُشَـقُّ هَـا بُـرْدَةُ الطَّـرَبْ
أَنَـا لَـوْ شِـئْتُ لاَتَّخَـذْ تُ سُـقُوفاً مِـنَ الـذَهَبْ

المقامة المكفوفية[2](من مجزوء المجتث):

أَنَـا أَبُـو قَلَمُـونٍ فِي كُـلِّ لَـوْنٍ أَكُـونُ
أَخْـتَرْ مِـنَ الكَسْـبِ دُونـاً فـإِنَّ دَهْـرَكَ دُونُ
لاَ تَلْتَـزِمْ حَالَـةً، وَلكِـنْ دُرْ بِاللَّيَـالِي كَـمَا تَـدُورُ

المقامة المارستانية[3](من مجزوء الرمل):

أَنَـا يَنْبُـوعُ العَجَائِـبْ فِي احْتِيَـالِي ذُو مَرَاتِـبْ

*- الحديث عن معاني القريض ومعاميه في المقامة القريضية[4] وتفصيل ذلك في المقامة الشعرية[5].

*- الحديث عن الطرق المختلفة للتكدي والاحتيال في المقامة الأزاذية، وتفصيل ذلك في المقامة الأذربيجانية والكوفية والقردية والمكفوفية.

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 33.
(2) المرجع نفسه، ص 96.
(3) المرجع نفسه، ص 146.
(4) المرجع نفسه، ص 07.
(5) المرجع نفسه، ص 252.

*- وسنوضح هذه العلاقة من خلال وصفه غدر الزمان حيث أجمل الحديث عنه في المقامة القريضية، ويفصل ما فعله به في المقامات الأخرى، والتحليل يوضح ذلك:

زَجَّ الزَّمَانَ بَحُمْقِهِ إِنَّ الزَّمَانَ زَبُونُ

(المقامة المكفوفية[1])

أَنَا حَالِي مِن الزَّمَا نِ كَحَالِي مَعَ النَّسْبْ

نَسَبِي فِي يَدِ الزَّمَا نَ إِذَا سَامَهُ انْقَلَبْ

(المقامة القزوينية[3])

المقامة القريضية[2]: هذا الزمان زور

سَاعَةً أَلْزَمُ مِحْرَا باً، وَأُخْرَى بَيْتَ حَانِ

(المقامة الخمرية[4])

يعتب أبو الفتح على الزمان ويصفه بأنه " زمان زور " [المقامة القريضية] بل ويحمله مسؤولية تصرفاته اللاأخلاقية، لأنه دفعه إلى ذلك فلم يجد من حيلة يواجه بها زور هذا الزمان إلا الحمق [المقامة المكفوفية]، وحمق الاسكندري يفرض عليه تغيير ذاته أي نسبه [المقامة القزوينية]، ليصل في الأخير إلى النتيجة الآتية(من مجزوء الرمل):

وَكَذَا يَفْعَلُ مَنْ يَعْقِ لُ فِي هَذَا الزَّمَانِ(5)

لأن الذي لا يقابل حمق الزمان بحمقه لن ينال منه كسبا خاصة وأن سلعة العقل نافقة وسلعة الحمق رائجة[6].

تشغل هذه العلاقة الدلالية (الإجمال/ التفصيل) حيزا كبيرا من النص المقامي، إذ تعمل على توضيح ما غمض من معانيه، و تتأكد وظيفتها من خلال تلاحم العناصر المتباعدة

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 96.
(2) المرجع نفسه، ص 11.
(3) المرجع نفسه، ص 107.
(4) المرجع نفسه، ص 257.
(5) المرجع نفسه، ص ن.
(6) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 115.

للنص، وضمان ارتباطها ببعضها، عن طريق استمرار دلالة معينة في الأجزاء اللاحقة منه[1].

ب- الأسماء العامة والخاصة:

من ضمن العلاقات الدلالية التي اهتم بها علماء لغة النص علاقة العموم والخصوص، إذ أسهمت الأسماء العامة والخاصة في خلق التماسك بين أجزاء المقامات بعضها ببعض، ويمكن أن نرصد هذه الأسماء من خلال النقاط التالية:

- «فَجَلَسْنَا يَوْماً نَتَذَاكَرُ القرِيضَ وَأَهْلَهُ، وَتِلْقَاءَنا شَابٌ...»[2].
- «أَخَذَتْ عَيْنَايَ رَجُلاً قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ بِبُرْقُعٍ...»[3].
- «وَقُمْنَا وَرَاءَ الإِمَامِ، قِيَامِ البَرَرَةِ الكِرَامِ...»[4].
- «نَتَذَاكَرُ الشِّعْرَ فَنُورِدُ أَبْيَاتَ مَعَانِيه، وَنَتَحاجى بِمَعَامِيهِ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَيْنَا فَتًى...»[5].

تعد الأسماء العامة الواردة هنا: (شاب، رجل، إمام، فتى...) تعبير عن عام غير محدد، ورد هذا العام كل مرة بهيئة معينة؛ إذ أن بديع الزمان الهمذاني يقصد من هذا العام غير المحدد بطل المقامات أبو الفتح الاسكندري.

ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن أن نقدمها على العموم والخصوص ما ورد في المقامة الكوفية[6] حيث يقول عيسى بن هشام:

«قُرِعَ عَلَيْنا البابُ، فَقُلْنا: مَنِ القارِعُ المُنْتابُ؟...»

نلاحظ أن الفعل " قرع " مبني للمجهول أي أن القارع المنتاب إنسان مجهول غير معروف، فقد ورد بصيغة عامة " القارع " خصصته الإجابة الواردة في الجزء الثاني من النص: «فقالَ: وَفْدُ اللَّيْلِ وَبَرِيدُهُ، وَفَلُّ الجُوعِ وَطَرِيدُهُ، وَحُرُّ قَادَهُ الضُّرُّ، والزَّمَنُ المُرُّ، وَضَيْفٌ وَطْؤُهُ خَفِيفٌ، وَضَالَّتُهُ رَغِيفٌ، وَجَارٌ يَسْتَعْدِى عَلى الجُوعِ، وَالجَيْبِ المَرْقُوعِ، وَغَرِيبٌ أَوقِدَتِ

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الأزاذية، ص 12.
(2) المرجع نفسه، المقامة القريضية، ص07
(3) المرجع نفسه، المقامة الأزاذية، ص 12.
(4) المرجع نفسه، المقامة الخمرية، ص 269.
(5) المرجع نفسه، المقامة الشعرية، ص 252.
(6) المرجع نفسه، ص 31.

النَّارُ عَلى سَفَرِهِ...».

ورغم كل هذه التخصيصات التي كشفت عنها بنية النص إلا أن السائل لم يستبن القارع المتاب إلا بعد أن فتح عليه الباب «فَإِذا هُوَ وَاللهِ شَيْخُنا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ...».

ويمكن أن يكون العام والخاص رابطين بين عدة مقامات متباعدة:

المقامة المكفوفية[1]: «أَوْ أَسْمَعَ مِنَ الفَصِيحِ لَفْظاً»

المقامة المضيرية[2]: «وَمَعِي أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ رَجُلُ الفَصَاحَةِ،

المقامة الأذربيجانية[3]: «نَفْسِي بِأَنَّ هذَا الرَّجُلَ أَفْصَحُ مِنْ إِسْكَنْدَرِيِّنَا أَبِي الفَتْحِ، وَالْتَفَتُّ لَفْتَةً فَإِذَا هُوَ واللهِ أَبُو الْفَتْحِ»

ورد لفظ " الفصيح " عاما في المقامة المكفوفية ليتضح أن هذا الفصيح هو الاسكندري أبو الفتح وقد خصصته المقامة المضيرية / الاذربيجانية.

ينشد الاسكندري في المقامة الماريستانية[4] (من مجزوء الرمل):

أَنَـــا إِســـكَنْدَرُ دَارِي فِي بِـــلادِ اللهِ سِـــارِبْ

سبقت المقامة المارستانية بمقامات تتحدث عن الأماكن المختلفة التي زارها أبو الفتح الاسكندري، وقد خصصت هذه الأماكن المقامات التالية:

في بلاد الله سارب ←
- «وطئت جرجان الاقصى...»[5]
- «كنت ببغداد...»[6]
- «وبلغت أذربيجان...»[7]
- «كنت اجتاز في بعض بلاد الاهواز...»[1]

(1) المرجع نفسه، ص 93.
(2) المرجع نفسه، ص 122.
(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 54.
(4) المرجع نفسه، ص 146.
(5) المرجع نفسه، المقامة القريضية، ص 07.
(6) المرجع نفسه، المقامة الازاذية، ص 12.
(7) المرجع نفسه، المقامة الاذربيجانية، ص 52.

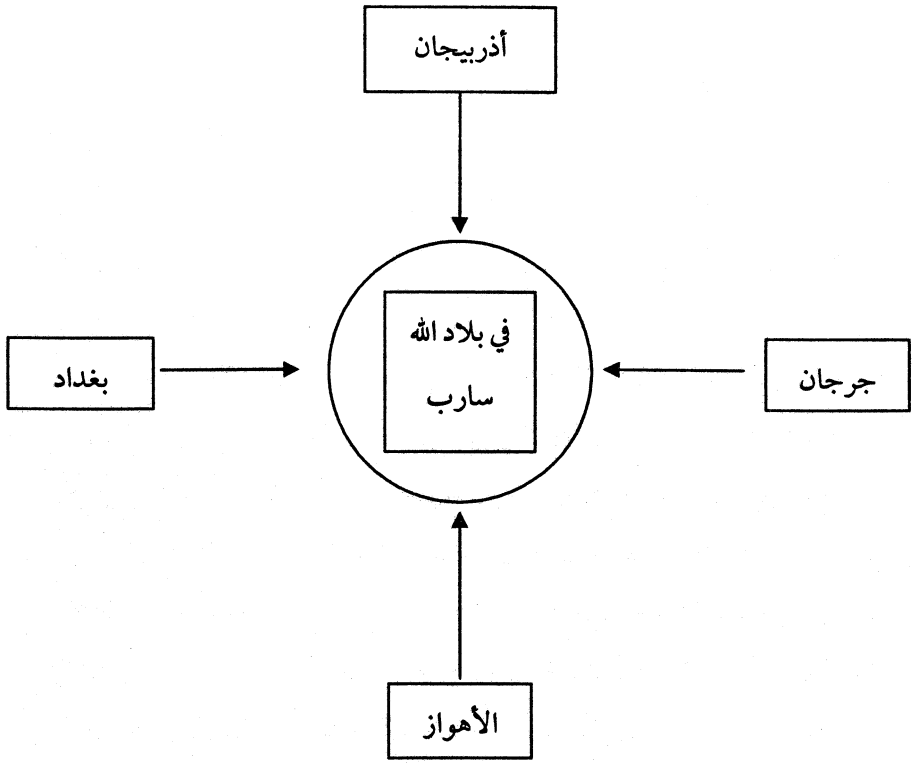

يتضح من المخطط السابق أن هذه العلاقة الدلالية (العموم/ الخصوص)، قد أحالت إحالة داخلية سابقة، من خلال تعيين الأماكن التي زارها الاسكندري.

تماسكت المقامات فيما بينها، من خلال هذه العلاقة الدلالية (العموم/ الخصوص) كذلك تعتبر جميع المقامات نسيجا لغويا يحيل فيها السابق إلى اللاحق واللاحق إلى السابق.

ج- علاقة السبب بالنتيجة:

من العلاقات الدلالية الأشد اتصالا بنمط المقامات الهمذانية، تسهم هذه العلاقة في لحم عناصر الجملة الواحدة، متجاوزة الربط بين جملتين إلى الربط بين سلسلة من الجمل ترتبط بمشاهد الحكي.

تعتمد بنية المقامات باعتبارها نصا حكائيا على القالب القصصي، الذي يفترض وجود

(1) المرجع نفسه، المقامة المكفوفية، ص 93.

مقدمة يعبر فيها الكاتب عن الأسباب والدوافع التي جعلته ينتقل من مكان إلى آخر، ويشرح العوامل التي دفعته إلى التكدي والاحتيال، وتختلف هذه الأسباب وتتعدد من مقامة إلى أخرى، ولكن يجمعها سبب رئيسي هو الشعور الموحش بالغربة، أو إن صح التعبير يمكن أن نعدها غربيتين[1]: الأولى غربة عامة، هي غربة بديع الزمان في الأقاليم الفارسية، والتي قضى فيها معظم أيام حياته. والثانية غربة الأديب الفذ وسط مجتمع لا يولي اهتماما لأصحاب العلم وأولي النبوغ، مما دفعه ذلك إلى التسول لتحصيل قوت يومه.

إن ما يقوم به الكاتب من تفصيل للأسباب التي دفعته للتكدي، يضفي معقولية لكيفية تتابع قضايا النص، ويسمها بسمة منطقية[2]، خاصة وأن هذه العلاقة تشكل حضورا فعالا على مستوى المقامة الواحدة، مما يؤدي ذلك إلى قوة الربط المنطقي بين الأجزاء المشكلة لها، ولنتأمل المثال الآتي:

يقول عيسى بن هشام في المقامة الأذربجانية[3]: «لَمَّا نَطَّقَنِي الْغِنَى بِفَاضِلِ ذَيْلِهِ، اتُّهِمتُ بِمَالٍ سلَبْتُهُ، أَو كَنْزٍ أَصَبْتُهُ، فَحَفَزَنِي اللَّيْلُ، وَسَرَتْ بِي الخَيْلُ، وَسلكتُ فِي هَرَبِي مَسَالِكَ لَمْ يَرُضْهَا السَّيْرُ، وَلاَ اهْتَدَتْ إِلَيْهَا الطَّيْرُ».

---

(1) عمر عبد الواحد: السرد والشفاهية، دراسة في مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، مصر ط2، 2003، ص 165.

(2) حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص 143.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 52.

وتسهم علاقة السبب بالنتيجة في ربط نص المقامة بالسياق الذي انتجت فيه، فالراوي يذكر في مقدمة هذه المقامة أنه لما تحسنت أحواله وزاد غناه إلى أن شمل حاجاته، اتهم بأنه سلب مالا أو أصاب كنزا، وخوفا من أن ينتزع ماله أو يصادر اضطر إلى الخروج من بلده، ليهيم في مطارح الغربة والمخطط الآتي يوضح ذلك:

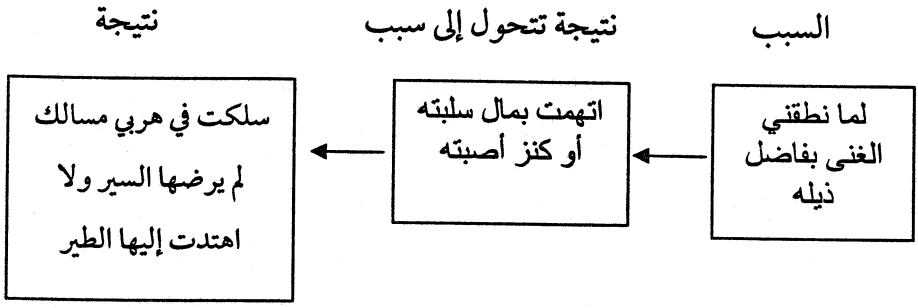

قد ترد علاقة السبب بالنتيجة بشكل عكسي، أي نتيجة بسبب، فيظهر بديع الزمان النتيجة أولا، ثم يتجه إلى سرد أسبابها، والأمر متعلق عندئذ بالكاتب وعلاقته بمستقبل النص، الذي يحاول استمالته بشتى الطرق حتى يبقيه مشدودا لأحداث القصة، متابعا لتفاصيلها، حتى يبين الأسباب التي ترتبت عنها تلك النتائج ولنتأمل المثال الآتي:

يقول عيسى بن هشام في المقامة الشيرازية[1]: «... وَكُنْتُ فَارَقْتُهُ ذَا شَارَةٍ وَجَمالٍ، وَهَيْئَةٍ وَكَمالٍ... فَبَيْنا أنا يَوماً في حُجْرَتِي إِذْ دَخَلَ كَهْلٌ قَدْ غَبَّرَ في وَجْهِهِ الفَقْرُ، وَانْتَزَفَ ماءَهُ الدَّهْرُ... فَقُلْتُ: شَدَّ مَا هُزِلْتَ بَعْدِي !... فانْفُضْ إِلَيَّ جُمْلَةَ حالِكَ، وَسَبَبَ اخْتِلاَلِكَ، فَقالَ: نَكَحْتُ خَضْرَاءَ دِمْنَةٍ، وَشَقِيتُ مِنهَا بِابْنَةٍ، فَأَنَا مِنهَا في مِحْنَةٍ...».

النتائج	←	الأسباب
- كهل قد غبر في وجهه الفقر		- نكحت خضراء دمنة
- وانتزف ماءه الدهر		- شقيت منها بابنة
- شد ما هزلت بعدي		- فأنا منها في محنة

(1) المرجع نفسه، ص 193.

- قد أكلت حريبتي

- وأراقت ماء شيبتي

كما تسهم علاقة السبب بالنتيجة في ترابط الحكي[1]، داخل المقامة الواحدة، مما ينجم عنه تقسيم المشاهد الحكائية إلى وحدات يمكن تمثيلها كما يلي:

السبب	النتيجة
- استعمال أبي الفتح الاسكندري	- تعاطف الجمهور معه من خلال منحه ما يريد. حيل وطرق مختلفة للتكدي.
- رغبة الراوي الملحة في كشف شخصية المكدي.	- التعرف على البطل الذي يرغب دائما في التستر.
- انتهاء الاحتيال	- يمكث الراوي مع البطل أياما، لأن الراوي تجمعه بالبطل معرفة قديمة أو يفترقا مباشرة.

د- علاقة السؤال بالجواب:

تقوم هذه العلاقة الدلالية بوظيفة جوهرية في تشكيل نسيج الحوار داخل النص المقامي، وتبرز أكثر من خلال أدوات الاستفهام (أي، من، هل، ما،...) على نحو ما نجد في المقامة القريضية[2]، حيث أسهمت علاقة السؤال بالجواب، في ربط أول خيط لهذا النص المقامي بآخره، ويتضح ذلك من خلال التحليل الآتي:

السؤال	الجواب
- ما تقول في امرئ القيس؟	- هو أول من وقف بالديار وعرصاتها
- ما تقول في النابغة؟	- يثلب[3] إذا حنق، ويمدح إذا رغب
- ما تقول في زهير؟	- يذيب الشعر، والشعر يذيبه

(1) عزة شبل محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، ص 209.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 07.

(3) يثلب: يسب ويشتم.

- ما تقول في طرفة؟ - هو ماء الأشعار وطينتها...

- ما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم - المتقدمون أشرف لفظا... والمتأخرون ألطف صنعا

وتتجلى هذه العلاقة بوضوح في المقامة الشعرية[1]، القائمة على إظهار فصاحة البطل، وإبراز قدرته الأدبية والنقدية. يقول أبو الفتح الاسكندري «عَرِّفُوني أَيُّ بَيْتٍ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وَشَطْرُهُ يَدْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ يَصْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَغْضَبُ، وَنِصْفُهُ يَلْعَبُ؟... -إلى أن يقول عِيسَى بْنُ هِشَامٍ-: فَسَمِعْنَا شَيْئاً لَمْ نَكُنْ سَمِعْنَاهُ، وَسَأَلْنَاهُ التَّفْسِيرَ فَمَنَعْنَاهُ، وَحَسِبْنَاهُ أَلْفَاظاً قَدْ جُوِّدَ نَحْتُهَا، وَلا مَعَانِيَ تَحْتَهَا، فَقَالَ: اخْتَارُوا مِنْ هذِهِ المَسَائِلِ خَمْساً لأُفَسِّرَهَا، وَاجْتَهِدُوا فِي البَاقِي أَيَّامَاً...».

وردت في المقامة الشعرية ما يقارب خمس وخمسين صيغة استفهام، تبدأ كلها بأداة الاستفهام " أي "، وقد صاغها الهمذاني في شكل ألغاز لتخدم غرضا تعليميا.

هـ- علاقة الشرط بالجواب:

يمكن أن نصنف هذا النوع من العلاقات الدلالية، ضمن العلاقات الدلالية الثانوية[2]، ويقصد بذلك أنها تبرز في النسيج اللغوي للمقامات، إلا أن تواردها يقل نسبيا، مقارنة بالعلاقات الدلالية الأخرى (كعلاقة العموم والخصوص، علاقة الكل بالجزء...).

تتضح هذه العلاقة في النصوص المقامية المختارة من خلال أدوات نحوية " إذا، لو، لولا، إن، من،... " والأمثلة الآتية توضح ذلك:

- «وَمَنْ مَلَكَ الفَضْلَ فَلْيُؤَاسِ، فَلَنْ يَذْهَبَ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ...»[3]

- أَنَا لَوْ شِئْتُ لاتَّخَذْ تُ سُقُوفاً مِنَ الذَهَبْ[4]

- إِنْ أَكُ أَمَنْتُ فَكَمْ لَيْلَةٍ جحَدْتُ رَبِّي وَأَتَيْتُ المُرِيبْ[5]

---

(1) المرجع نفسه، ص 251.

(2) عزة شبل محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، ص 212.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الكوفية، ص 33.

(4) المرجع نفسه، ص ن.

- فَقُلْتُ: إِذْ لاَحَ شِعَارُ الـهُـدَى نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَـتْـحٌ قَـرِيبْ[2]

- «فَإِذَا طَوَيْتَ هَذا الرَّيْطَ[3]، وثَنَيْتَ هَذا الخَيْطَ، يَكُونُ قَدْ سَبَقَكَ إِلى بَلدِكَ، فَرَأْيُكَ فِي نَشْرِ مَا فِي يَدِكَ»[4].

تفيد هذه العلاقة الدلالية، في بناء موضوع المقامة من خلال ربط عناصر الجملة الواحدة، أو سلسلة من الجمل مما يشكل ذلك " عناقيد من الدلالات "[5] تسهم في تماسك أجزاء النص من ناحية، وتحقق مقاصد مؤلف المقامات من ناحية ثانية.

2- موضوع الخطاب:

نموذج فني يعد تحفة من تحف الأدب العربي، مزج فيه الهمذاني النثر بالشعر وما أجدره!، يقول في نقد للجاحظ: «والبَليغُ مَنْ لَمْ يُقَصِّرْ نَظْمُهُ عَنْ نَثْرِهِ، ولَمْ يُزْرِ كَلامَهُ بشِعْرِهِ»[6].

نص منتظمة أجزاؤه لأربعمائة مقامة، لم يظفر الناس بغير عدد قليل ينيف على الخمسين- اخترنا منها نماذج فقط للدراسة- وهي محطات وقف عندها بديع الزمان الهمذاني، ليقدم لموضوعه الأكبر (الموضوع الهدف).

إن كانت العلاقات النحوية وأدوات الاتساق المعجمية، قد ربطا بين أجزاء المقامات ربطا نسبيا، فإنهما لم يسهما في الكشف عن عالم النص المقامي الكلي، الذي تقدمه المقامات في تلاحمها وتظافرها.

إن ذلك العالم تجسيد لواقع مرير عاشه الهمذاني نفسه، عبّر عنه من خلال ابتداعه شخصية فنية، صنعت أحداث المقامات، فكانت شخصية البطل هي النسيج الرابط بين

---

(1) المرجع نفسه، المقامة القزوينية، ص 103.

(2) المرجع نفسه، المقامة القزوينية، ص 105.

(3) الريط: جمع الريطة، ويقصد بها فإذا طويت ليالي الغربة هذه ورجعت إلى بلدك، تجد المدح قد سبقك إلى بلدك.

(4) المرجع نفسه، المقامة الصفرية، ص 261، 262.

(5) عزة شبل محمد: علم لغة النص، ص 212.

(6) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الجاحظية، ص87.

المقامات جميعا.

لقد حاول الكاتب -عبر هذا اللون النثري- تعرية المجتمع العباسي، ليكشف زيفه، واهتراء بنيانه الاجتماعي وجور حكامه... ألخ

إن ما أورده الهمذاني لا يتعدى كونه رؤية خاصة به، عبّر فيها عما يراه من ظلم واستبداد وجور، وهو يرمي في الدرجة الأولى إلى إبراز عبقريته الأدبية مع ضياعه في مجتمع لا يقيم وزنا للعلم ولا للعلماء.

تقتضي قراءة النصوص وتأويلها، تفاعلا حيويا من القارئ، إنه هو الذي يحي فعل القراءة وينشطها، حتى يستخرج من النص ما لا يقوله النص، وأن يعيد بجدية ملء الفضاءات الفارغة إن كانت ظاهرة، إنه يتكفل بعملية بناء دلالات موازية للنص الأصلي، فيسهم بذلك في إثراء وإخصاب مضامين النصوص وتوسيع دائرة المعلومات التي تتضمنها[1].

إذا كانت وسائل اتساق النص تبدو ظاهرة جلية في أغلب الأحيان، فإن بناء الانسجام على عكس ذلك، إذ يتطلب من القارئ صرف الاهتمام جهة العلاقات الدلالية الخفية، التي لا يمكن الكشف عنها إلا بعد أن يمتلك القارئ ترسانة معرفية، تمكنه من التغلغل داخل هذا النسيج اللغوي المتشابك.

بإمكاننا الآن أن ننظر إلى المقامات بوصفها بناء متراص الأجزاء، بحيث يسهم كل جزء أو عنصر من هذا البناء في فهم ما يسبقه أو يليه، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن ننفذ إلى البنية الدلالية الكلية، إلا من خلال تلاحم وتآزر الأجزاء المكونة للنص.

ويمكننا بعد كل هذا أن نطرح السؤال الآتي:

ما هو الموضوع المركزي الذي تدور حوله المقامات ككل؟ وإن كان هناك موضوع محدد فلماذا تعددت المقامات حتى بلغت إلى ما ينيف عن الخمسين؟ ولماذا ذلك التعدد في تلك المواضيع بالذات؟

---

(1) إدريس بلمليح: القراءة التفاعلية دراسات لنصوص شعرية حديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص7- 8.

ومن هنا سنقوم بعمليات حذفية، أي أننا سنختزل متتاليات جملية تنضوي على دلالات كثيفة، إلى بنيات جزئية تقودنا إلى البنية الدلالية الكلية، التي ينبثق منها النص[1]، باعتبار أن كل مقامة تعبر عن موضوع واضح ومحدد (بتكرار) وهذا ما يوضحه المخطط الآتي:

(1) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 283.

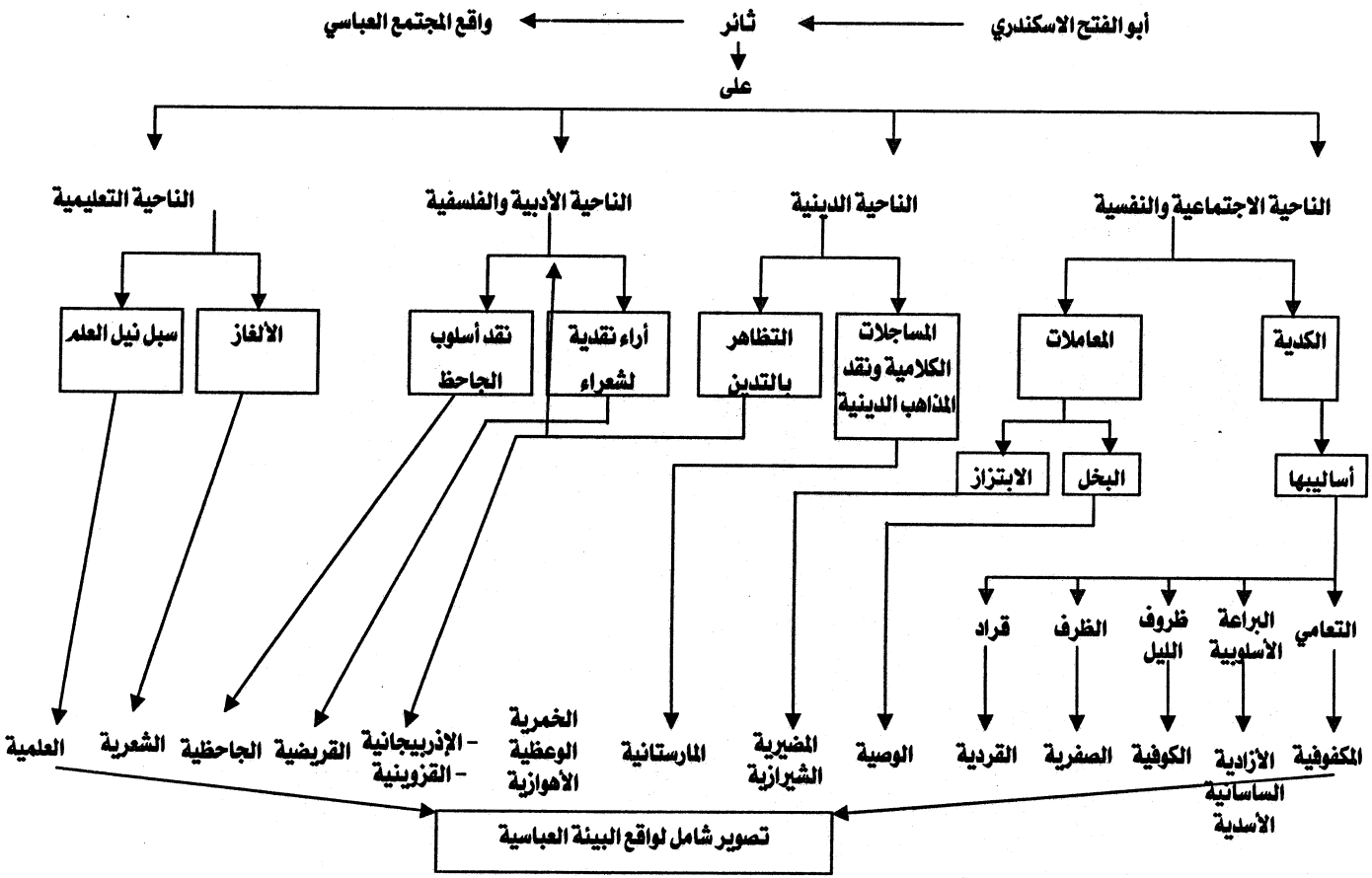
أبو الفتح الاسكندري
ثائر
واقع المجتمع العباسي
على
الناحية الاجتماعية والنفسية
الناحية الدينية
الناحية الأدبية والفلسفية
الناحية التعليمية
الكدية
المعاملات
المساجلات الكلامية ونقد المذاهب الدينية
التظاهر بالتدين
أراء نقدية لشعراء
نقد أسلوب الجاحظ
الألغاز
سبل نيل العلم
أساليبها
البخل
الابتزاز
التعامي
البراعة الأسلوبية
ظروف الليل
الظرف
قراد
المكفوفية
الأزادية الساسانية الأسدية
الكوفية
الصفرية
القردية
الوصية
المضيرية الشيرازية
المارستانية
الخمرية الوعظية الأهوازية
-الإذربيجانية -القزوينية
القريضية
الجاحظية
الشعرية
العلمية
تصوير شامل لواقع البيئة العباسية

تتميز المقامات -بوصفها جنسا نثريا- بأسلوبها المتميز، وبنيتها المتفردة، فقد أغرم الهمذاني بتضمينها اللفظ الأنيق والسجع البديع؛ فتارة يرسل الأسلوب عذبا سلسا، وتارة أخرى يصوغه وعرا شديدا التعقيد، ويأتي دور القارئ ليفك ما ألغز.

تتضمن كل مقامة موضوعا، بل تخبر كل مجموعة منها عن موضوع الكدية والتسول، الاحتيال للارتزاق، نقد المذاهب الدينية، النقد الأدبي والفلسفي، سبل نيل العلم، المغامرات المضحكة، والمسلية الألغاز والأحاجي،... إلخ، إنها تصور جميعها أحوال الناس في ذلك الزمان، بل إنها تقدم رؤية للعالم Vision du monde إزاء الواقع المعاش[1].

لقد كان البديع واقعيا أكثر منه خياليا، إذ أنه تأثر بالبيئة التي عاش فيها تأثرا كبيرا، وظهر ذلك الأثر فيما كتبه، فقد حاول تصوير واقعه ببراعة متناهية فراح يجول بين الناس، ولاسيما طبقة المستضعفين منهم، الذين دفعتهم الأوضاع السياسية والاقتصادية المزرية، وكذا جور الحكام واستبدادهم للتكدي، بل والتفنن في ذلك وابتكار الحيل والأساليب الملتوية، حتى يكسبوا لقمة عيشهم أو ما يدفع الفقر والحرمان عنهم، فابتعدت هذه الشريحة عن الشرف والقيم السامية، حتى أنهم لم يتورعوا عن المساس بالمقدسات الدينية، كما صورت ذلك المقامة القزوينية، وغيرها، ولاشك أن الهمذاني نفسه كان واحدا من هؤلاء، مما حذا به ذلك إلى ابتداع شخصية فنية من نسيج خياله؛ لتعبر عن لسانه وتصف أحواله مع ذلك الزمان، إنها شخصية أبي الفتح الإسكندري الذي كان النسيج الرابط للمقامات على اختلاف موضوعاتها.

إن كل تلك المواضيع بمثابة ثورة عارمة على فساد الأوضاع، وجور الحكام وذوي السلطان، إنها سجل لأحوال الحياة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري[2].

إن هذه المقامات أشبه بالوثيقة التاريخية الجامعة لقضايا الناس، تصور بدقة معاناتهم وانشغالاتهم بأسلوب لا يخلو من التهكم، والسخرية والإضحاك والتسلية في الوقت نفسه.

---

(1) الطيب بن عمار: تحليل إنشائي للمقامة الحلوانية للهمذاني، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الشؤون الثقافية، القصبة، تونس، العدد 36، 37، 1985، ص 43.

(2) إكرام فاعور: مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد، ص 45.

إن جل الإحالات التي وردت في المقامات تعود إلى الاسكندري أبو الفتح، صانع أحداث المقامات، والذي كان يتلون بألوان عصره، ويلبس لكل حالة لبوسها، فنجده يقاوم فساد زمانه بوجهين (التقوى، الفسق)[1]، كما في المقامة الخمرية، القزوينية، الأذربيجانية، أو اختراع الأكاذيب والتفنن في أساليب الاحتيال إما بالتعامي (المقامة المكفوفية) أو الادعاء بتبدل الأحوال مع وجود الأطفال (المقامة الأزادية) أو إظهار البراعة الأسلوبية كما يتجلى ذلك في أغلب مقاماته.

أراد بديع الزمان الهمذاني من خلال هذا النموذج الفتي الذي ابتدعه؛ تقديم رؤية شاملة عن واقع البيئة العباسية في القرن الرابع الهجري، وهذه الرؤية مستقاة من تجارب الحياة ومن احتكاكه بالناس، وتفهمه لطبائعهم لأنه كان من أشد الناس حدة وذكاء، إنه يريد خلق ثورة عن الأوضاع الفاسدة في مجتمعه فلم يجد سلاحا غير القلم.

3- التغريض[2]:

نبحث في المقامات عن العناصر المغرضة التي تيسر لنا السبيل إلى إدراك موضوع الخطاب باعتبار أن التغريض كإجراء خطابي يرتبط ارتباطا وثيقا مع موضوع الخطاب ومع عنوان النص[3].

يقدم العنوان وظيفة إدراكية هامة تهيئ المتلقي لبناء تفسير للنص، أو ما يخبر به النص، ومن هذا المنطلق يمكن أن يعد العنوان جزء من البنية الكبرى[4]، إذ يساعد على تنشيط الذاكرة وتحفيزها، ويمنح القارئ فرصة تذكر مضمون النص، أو استحضار المعرفة المتصلة به.

يتصدر النصوص المقامية عنوان رئيسي وهو «مقامات بديع الزمان الهمذاني»، الذي يوجد في الصفحة الأولى من الكتاب ككل، ويشير العنوان إلى أن المقامات منسوبة لصاحبها

---

(1) المرجع نفسه، ص 48.

(2) يشير مفهوم التغريض إلى الكلمات الوظيفية الموجودة في النص والتي تحيل إلى البنية الكلية.

(3) محمد خطابي: لسانيات النص، ص 293.

(4) فان دايك: علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ص 88.

بديع الزمان الهمذاني وهو لقب أطلق على أبي الفضل أحمد بن الحسين في فترة متأخرة من حياته هو تحديدا مع الثعالبي والحصري[1]، لأنه هو مبتكر هذا اللون النثري المستحدث في الأدب العربي، وبالتحديد في القرن الرابع الهجري.

ثم تأتي العناوين الداخلية للمقامات، لتشير إلى أن هذا الكتاب يجمع بين دفتيه نصوصا نثرية، يمثل كل نص مقامة مستقلة تحمل عنوانا خاصا بها، من مثل: المقامة الأزاذية، المقامة الوعظية، المقامة الأهوازية.

ولنلقي نظرة على بعض عناوين " المقامات " ونحاول أن نستدل بها باعتبار أن العناوين مفاتيح نصوصها، واختزال لأبنيتها الدلالية، نجد مثلا: المقامة المضيرية، استقى بديع الزمان عنوان هذه المقامة من الواقع المعيش، حيث عبر بهذا النوع من الطعام[2] عن لون من ألوان الحياة الثقافية في ذلك الزمان، ثم يصور بعد ذلك ثرثرة رجل دعا أبا الفتح إلى هذه الأكلة، حتى أنه من فرط الضجر هرب من بيته، دون أن يذق شيئا منها، بل جنت عليه وأدخلته السجن، فأقام في ذلك النحس عامين، فأقسم بعدها أن لا يأكل المضيرة ما عاش، يقول عيسى بن هشام في نهاية المقامة «فَقَبِلْنَا عُذْرَهُ، وَنَذَرْنَا نَذْرَهُ، وَقُلْنا: قَدِيماً جَنَتِ الْمَضِيرةُ عَلَى الأَحْرَارِ، وَقَدَّمَتِ الأَرَاذِلِ عَلى الأَخْيارِ»[3].

ونجد في مقامات أخرى يحتل المكان عنوان ثلاثة وعشرين مقامة تقريبا من مجموع المقامات الإحدى والخمسين[4]، ونمثل لذلك: بالمقامة المارستانية، المقامة الأذربيجانية، المقامة الكوفية، المقامة الشيرازية.

اختار بديع الزمان لكثير من مقاماته عناوين ترمز لأماكن عربية فهل تقف وراء هذه الاختيارات مقاصد معينة، خاصة ونحن نعلم أن الكاتب قد قضى معظم أيام حياته في البيئة

---

(1) أشرنا إلى ذلك في المدخل في معرض حديثنا عن حياة الهمذاني، انظر المدخل ص 05.

(2) المضيرة: لحم يطبخ باللبن المضير أي الحامض، ثم يضيفون له ما يوفر اللذة. للاستزادة انظر أبا الفضل أحمد بن الحسين، مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح وتحقيق محمد عبده، ص 122.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة المضيرية: ص 122.

(4) عمر عبد الواحد: السرد والشفاهية، ص 38.

الفارسية؟

يذهب أحد الدارسين إلى أن البيئة العربية تمثل لمؤلف المقامات التوق والشوق والحلم[1] كيف لا وهو دائم الاعتزاز بعروبته وبمعتقده ونحن نعلم أنه عاش مغتربا في البلاد الفارسية، وفي بيئة غير البيئة العربية.

وما يلاحظ أيضا على عناوين مقامات بديع الزمان الهمذاني بصفة عامة أنها توهم المتلقي بواقعية الأحداث، وصدق المرويات خاصة أن الناس في ذلك العصر يبحثون عن صدق ما يروى لهم، إلا أن العنوان الذي تحمله المقامة لا يمثل عتبة حقيقية للولوج إلى عالم النص، ولا يعد موازاة لها[2] بحيث يكون عبارة عن مجرد كلمة وردت في أول النص، ويشكل حضورا بارزا فيه.

تخبر المقامات كما هو موضح في المخطط عن مواضيع متنوعة (اجتماعية، ثقافية، دينية،...)، وهي في الحقيقة تصوير للمظاهر المختلفة لذلك العصر، الذي عاش فيه البديع، وتأثر به أيما تأثر حتى غدا دارسا اجتماعيا لواقعه، إنه يحاول مواجهة حمق الزمان بحمقه لأن سلعة الحمق رائجة وسلعة العقل نافقة، إنه يواجه تحديا بتحد مثله أو أقوى منه، لذا نجده يلجأ للحيلة والخداع والكذب وكل الأساليب اللاأخلاقية حتى ينال من الكسب ما ينال.

وقد تم التغريض في النماذج المقامية من خلال:

1- الإحالة المستمرة إلى بطل المقامات بالضمائر المتصلة والمنفصلة وباسمه الصريح " أبو الفتح الاسكندري ".

2- الإحالة إليه بأسماء وصفات مختلفة (رجل، فتى، إمام، شاب، الفصيح، قرّاد،... إلخ)

3- الإحالة إلى الراوي عيسى بن هشام ولكن بنسبة أقل لأنه لم يكن الشخصية المحورية التي تدور حولها أحداث المقامات، بل شارك في بعضها فقط.

4- جميع المواضيع التي تخبر بها المقامات ترمي إلى تقديم صورة عن الواقع الذي عاش

---

(1) المرجع نفسه، ص ن.

(2) عمر عبد الواحد: السرد والشفاهية، ص 38.

فيه الهمذاني، وعن أحوال الناس في ذلك الزمان.

تتحد مواضيع المقامات من حيث الغاية التي ترمي إليها، لتشكل نسيجا نصيا مترابطا ومنسجما.

يمكن -من خلال هذه الغاية- أن نصنف هذا النص النثري، ضمن الوثائق التاريخية الهامة التي تصور مظاهر حياة شعب ما في حقبة تاريخية محددة.

إذا كان انسجام النص يعتمد بالدرجة الأولى على مؤشرات اتساقه، فإن ذلك غير كاف -كما أشرنا سابقا-، ولكن مقصدية المخاطب لها أهمية كبيرة في تحقيق انسجام النص وتماسكه، إذ المقصد الأسمى من هذه الرسالة اللغوية هو توجيه نقد لاذع لواقع مرير عاشه أديبا بارعا وكاتبا فذا، طبقت شهرته الآفاق، إلا أنه لم يجد حظا لبلوغ حياة كريمة كما يجب أن يعيشها العلماء وأولي النبوغ، وقد عبّر الهمذاني عن ذلك في عديد من المقامات يقول[1](من مجزوءالرمل):

زَجَّ الزَّمَانَ بَحُمْـقٍ ... إِنَّ الزَّمَانَ زَبُـــونُ

لا تُكَذِّبَنَّ بِـعَـقْـلٍ ... ما العَقْلُ إِلاَّ الجُنُونُ

فكانت وحدة الغاية التي ترمي إليها المقامات، ووحدة البطل الذي صنع أحداثها ببراعة، هما أكبر رابط يجمع شتات هذه المقامات، وينسق بين مواضيعها المتفرقة.

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة المكفوفية، ص 96.

الفصل الثاني

التداولية ونظرية أفعال الكلام

- تمهيد

1) نظرة في الجذور التاريخية للتداولية
2) ضروب السياق في المقامات المختارة
3) التناص
4) ضروب الأفعال الكلامية في النماذج المقامية
5) وظائف الخطاب في المقامات المختارة

تمهيد

فرع معرفي جديد يطلق عليه بعض الدارسين " قاعدة اللسانيات "[1]، يعد نقطة تقاطع بين العديد من العلوم كاللسانيات والسيميائيات والمنطق والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع إنه الدرس التداولي.

اقتحمت التداولية ساحة الدراسات اللسانية منذ عهد قريب، لم يتجاوز سن تواجدها على هذه الساحة الأربعين سنة، وقد ظهرت بالتحديد في العقد السابع من القرن العشرين، على يد ثلاثة من فلاسفة مدرسة أكسفورد وهم على التوالي: أوستين Austin وغرايس Grice وسيرل Searl وكان هدف هؤلاء الفلاسفة البحث عن طريقة من خلالها يمكن للمرسل أن يبلغ المرسل إليه رسالة يفهمها ويفسرها. إن هذا الاتجاه يهتم بتوصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية، وقد كان هذا من صميم عملهم[2].

يسعى هذا التوجه اللساني الجديد إلى تجاوز " المستوى الدلالي " دلالة المقولة الحرفية[3] إلى محاصرة بنية النص والإحاطة بكل دقائقه، باعتبار أن النص رسالة لغوية يوظفها المخاطب لغرض التواصل مع الآخرين.

وسنحاول فيما يلي الإجابة عن السؤال المتعلق بإمكانية وجدوى تطبيق هذه المقاربة اللسانية التداولية على النماذج المقامية المختارة، ومن ثم يمكن أن نعد هذا المنهج مدخلا مناسبا من مداخل فهم التراث العربي، وأداة من أدوات قراءته.

إن مقاربة هذه النماذج الفنية مقاربة تداولية، تفرض علينا تجاوز حدود النظر إلى النصوص المقامية على أنها مجرد دلالات ومضامين لغوية إلى ما فوق ذلك. إنها نشاط لغوي

---

(1) يسمي رودولوف كارناب Rodolf Carnap التداولية هي قاعدة اللسانيات انظر فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية: ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ص 07.

(2) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، دط، 2002، ص 09.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2004، مقدمة المؤلف.

يحاول بديع الزمان أن يعبر من خلالها عن أغراض ومقاصد تهدف إلى تصوير مواقف شخصية واجتماعية بالألفاظ والعبارات، والتأثير في المتلقين بأي شكل من الأشكال باعتبار أن اللغة ليست وسيلة للتواصل الاجتماعي فحسب وإنما هي أداة لتغيير الوقائع والتأثير في العالم وصنع أحداثه[1].

وقبل أن نبسط خطوات التحليل التداولي لهذه النماذج الفنية يجدر بنا أن نقدم صورة وجيزة لهذا الاتجاه الجديد من الدراسات اللسانية:

أولا- نظرة في الجذور التاريخية للتداولية:

يهيمن على ساحة الدراسات اللغوية عند الغرب تياران رئيسيان هما[2]: تيار الدراسات الشكلية للغة بشقيها (البنيوي / التوليدي)، وتيار دراسات اللغة في السياق التواصل الاجتماعي أو ما يمكن تسميته بالاتجاه الوظيفي في دراسة اللغة.

يقف الاتجاه الأول في دراسة اللغة عند حدود وصف وتفسير النظام اللغوي معزولا عن منتجه وعن السياق الذي أنتج فيه، ومن ثم فإنه ينظر إلى النص على أنه بنية مغلفة ومنتهية لا علاقة له بالإنسان والتاريخ[3].

وانصب قدر كبير من جهد نقاد ومفكري الاتجاه الثاني على تحرير النص من قيد النسق، وعبودية البنية إلى النظر في السياق وعناصره، متجاوزا بذلك الدراسة الشكلية الصارمة للغة، ويعني كل ما سبق الإعلاء من شأن منتج النص ومتلقيه فقد أصبح ينظر إليهما على أنها شريكان في نسج خيوطه، إذ لا يقل دور أحدهما عن الآخر، وكذا النظر في الطبقات المقامية

---

(1) آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ترجمة: سيف الدين دغفوسي ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 30.

(2) عرض لهذه الاتجاهات عدد من الباحثين انظر:

- أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص 08.

- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 29.

(3) عمر عبد الواحد: التعلق النصي، ص 38.

المختلفة التي أنتج فيها النص، وأثرها في تشكيل بنيته.

نذكر من أنصار هذا الاتجاه (بوتسنس Botnsis، موتان Motin، كرايس Grice، أوستين Austin، فتجنشتاين Wittesenstein، مارتينه Martinet) حيث يربط هؤلاء بين مفهوم التواصل ومفهوم القصدية Intentionnalité[1].

إن اشتراط القصدية في التواصل يحيل إلى أن هذا الفعل غير عشوائي، إنما هو فعل مخطط له، ويعني ذلك أن تحليل معاني العبارات والألفاظ اللغوية رهين بتعيين أغراض المتكلم ومقاصده العامة من الخطاب[2].

إن تجاوز عمق النص إلى النظر فيما يحيط به، يبشر بتحول منهجي واضح في مسار الدراسات اللسانية، ومن ثم بدا اهتمام اللسانيين واضحا بـ: علاقة العلامات اللغوية بمستعمليها، وكيفية استعمالها وتأثيرها[3].

وهذا ما تقتضيه النظرة الشمولية للنص من ضرورة مراعاة الأبعاد الثلاثة المكونة له وهي على التوالي[4]:

- البعد التركيبي Syntaxe
- البعد الدلالي Sémantique
- البعد التداولي Pragmatique

وعليه فإن التكامل بين هذه المستويات بات ضروريا.

وبهذا نكون أمام توجه لساني معاصر تكمن أهميته في معالجة عدة مشكلات في التحليلات اللغوية الشكلية، ولذلك، يذهب ليتش (Litch) إلى أن التداولية تسعى إلى خلق

---

(1) عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي: معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت، ط2، 1992، ص 84.

(2) المرجع نفسه، ص ن.

(3) DOMINIQUE Maingueneau: Les termes clés de l'analyse de discours, P 22.

(4) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 21.

حلول لبعض هذه المشكلات[1] خاصة المتعلقة منها بمنتج النص ومتلقيه، وشروط الإنتاج وغيرها...

اكتسبت التداولية Pragmatique[2] عدة تعريفات، بعضها يتجه وجهة وظيفية، وبعضها يركز على أهمية السياق والبعض الآخر يركز على الجوانب المختلفة للمعنى في التواصل[3]. ومن أقدم التعريفات التي قدمت لها، نجد تعريفا لصاحبه شارلز موريس CHARLEZ Moris سنة 1938 الذي يرى أن التداولية فرع من الفروع السيميائية، حيث تعنى بدراسة علاقة العلامات بمؤوليها، وهذا التحديد يوسع من مجال التداولية لتشمل العلامات اللغوية وغير اللغوية[4].

ويظهر تعريف آخر لـ: فرانسيس جاك FRANCIS Jacques الذي يقر أن التداولية تتطرق إلى معالجة الظاهرة اللغوية باعتبارها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في الوقت

---

(1) المرجع نفسه، ص 24.

(2) هناك فرق بين مصطلح Pragmatisme و Pragmatique نشأ المصطلح الأول في خضم الثقافة الأنجلوسكسونيةوضع هذا المصطلح الفلسفي شارل ساندرس بيرس مؤسس السيميولوجيا وكان يقصد به المذهب النفعي الذرائعي في الفلسفة، ترجم هذا المصطلح إلى النفعية/ الغائية/ الذرائعية. للاستزادة انظر ميجان الروبلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي اضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005، ص 168.
أما المصطلح الثاني Pragmatique (بالفرنسية) وPragmatics (بالإنجليزية) فهو توجه لساني ظهر على يد جون أوستين بإلهام من فتجنشتاينن يركز هذا الاتجاه على الجانب الاتصالي للغة. أخلط الدارسون العرب في نقل وترجمة هذا المصطلح إلى العربية وفي خضم هذا الخلط يقدم لنا الفيلسوف (طه عبد الرحمن) من جامعة مغربية مصطلح التداولية في مقابل Pragmatique من قراءته للتراث، وقد سك هذا المصطلح سنة 1970 وذلك وفقا للمعايير التالية أن التداولية تعني الممارسة وتعني أيضا التفاعل في التخاطب. انظر عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 574.
يطلق بعض الدارسين على التداولية علم الاستعمال اللغوي Science de l'utilisation du langage. انظر مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 28.

(3) يركز فان ديك على أهمية السياق انظر فان ديك: النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ط1، 2000، ص 257.

(4) فرنسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص 80.

نفسه[1].

إن مقاربة -النماذج المقامية المختارة- مقاربة تداولية، تدفعنا إلى محاولة الإجابة عن أسئلة على النحو التالي[2]:

- من يتكلم؟ ومع من يتكلم؟
- وإلى من يوجه كلامه؟
- ماذا نصنع بالضبط حين نتكلم؟
- هل يمكن أن نركن لدلالة المقولة الحرفية لغرض ما؟
- كيف يمكن أن نقول شيئا، ونحن نقصد بقولنا شيئا آخر؟

إن ما يسعى إليه التحليل التداولي هو محاولة الكشف عن النظام الدلالي المتحكم في المقامات برمتها، وهذا النوع من التحليل يعلي في الوقت نفسه من شأن منتج النص ومتلقيه، لأن كل منهما يشغل وظيفة (كاتب النص وقارئه). من هذا المنظور يعدّ النص نتاج تواصل تفاعلي بين منتجه ومتلقيه[3].

إن منظور الدراسة التداولية لا يقف عند دراسة السياق بقدر ما يسعى إلى إظهار ذلك التفاعل والتأثير المتبادل بينه وبين النصوص المقامية، بما يعلل لنا ذلك النص بشكل موضوعي، ومن ثم لزم الكشف عن كل العناصر المشكلة للسياق الذي أنتج فيه هذا اللون النثري، وكذا الوقوف عند جوانبه المختلفة.

ثانيا- ضروب السياق في المقامات المختارة:

من أجل فك شفرات النصوص المقامية وقراءتها قراءة واعية «تتفاعل مع لغة النص تفاعلا كليا»[4]. لابد أن يمتلك القارئ معرفة تمكنه من البرهنة على مدى اتساق النص

---

(1) المرجع نفسه، ص ن.

(2) المرجع نفسه، ص 07.

(3) عزة شبل أحمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، مقدمة المؤلف.

(4) نبيلة إبراهيم: القارئ في النص (نظرية التأثير والاتصال)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد الأول (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر)، مج5، 1984، ص 101.

وانسجامه انطلاقا من السياق الذي أنتج فيه.

وعلى هذا الأساس حدد لنا بعض الدارسين العناصر المكونة للسياق والمتمثلة في: معرفة هوية المشاركين في عملية التلقي (المتكلم/ الكاتب، المستمع/ القارئ) والإطار المكاني والزماني للفعل اللغوي، والهدف، والموضوع ونوع الخطاب، والقناة واللغة المستعملة والقوانين التي تتحكم في عملية إنتاج الخطاب من متكلم إلى آخر[1].

سنقتصر في تحليلنا للسياق على أهم العناصر المشكلة له، والتي تعد من أهم العوامل المساعدة على ظهور النص وتشكله، وهي: المرسل، المرسل إليه، والإطار المكاني والزماني والغاية من الموضوع[2].

وإذا كان تحليل السياق يقتضي الوقوف عند هذه العناصر الأساسية حسب وجهة نظر هايمس (Hymes)[3] فإنه –ومن وجهة نظرنا– لن نغضي الطرف عن أي جانب من جوانب السياق بإمكانه أن يساعدنا في فهم وتحليل النصوص المقامية.

إن الحديث عن هذه العناصر يفضي بنا للحديث عن أنواعه والتي يمكن حصرها فيما يأتي[4]:

- السياق المصاحب.
- السياق السابق ويتفرع إلى سياق الموقف والسياق الثقافي.

1- السياق المصاحب (السياق غير اللغوي):

يشمل هذا النوع من السياق مجموعة من الإشارات والإيماءات التي تصاحب النص أثناء التلفظ به، وكذا مظاهر الأداء الصوتي المختلفة من نبر وتنغيم، وهذه الخصائص تتعلق

---

(1) DOMINIQUE Maingueneau: Les termes clés de l'analyse de discours, P 22.

وللاستزادة انظر تون فانديك: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) ترجمة: سعيد حسن البحيري، ص 136.

(2) DOMINIQUE Maingueneau: Les termes clés de l'analyse de discours, P 22.

(3) Ibid, P 22.

(4) حسام أحمد فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ص 24.

بالنصوص الشفاهية أكثر من النصوص المكتوبة[1]. ومادامت المدونة-التي بين أيدينا- مكتوبة، فإنه يتعذر علينا معرفة الأداءات السيميولوجية المصاحبة لها، كما يخفى علينا طرائق التلفظ بها، وما تبرزه هذه الطرائق من دلالات.

وهذا يعني أن ليس هناك معلومات وبيانات كافية لتحليل السياق غير اللغوي للمقامات الهمذانية، وما يصحب ذلك من تغييرات صوتية أو حركية.

إن منظور هذه الدراسة سيعتمد على تحليل النماذج المقامية المختارة باعتبارها نصوصا مكتوبة[2]، يحاول بديع الزمان من خلالها تقديم رؤية شاملة عن واقع العصر الذي عاش فيه.

ومن هنا سنغير مسار الدراسة بالبحث عن علاقة مقامات بديع الزمان الهمذاني بوقائع ذلك العصر وظروف إنتاجه.

إن البحث في هذه العلاقة يفضي بنا إلى طرح جملة من التساؤلات:

- إلى أي مدى أثرت ظروف المكان والزمان في إبداع مقامات الهمذاني؟
- وما هي وجهة النظر التي يحاول بديع الزمان أن يعرضها من خلال المقامات؟
- وما هي اختيارات الهمذاني لما يقال؟ وكيف يقال؟

وللإجابة على هذه التساؤلات وغيرها، فإنه يلزمنا الكشف عن جوانب سياقية أخرى مصاحبة للنص والمتمثلة أساسا في: سياق الموقف، والسياق الثقافي.

2- سياق الموقف في العصر العباسي:

تأسست الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية وذلك سنة 132هـ بسبب الفتن والمؤامرات التي كانت تحاك لها من كل جانب.

إن قيام دولة إسلامية جديدة يبشر بملامح حياة جديدة، ومغايرة لما كانت عليه في الحقبة السابقة، وحتى يحافظ هذا الناشئ الجديد على استمرارية نفوذه، فقد حاول ربط أواصر المودة والولاء مع العناصر الناقمة على " الأمويين "، وكان على رأس أولئك: الشيعة

---

(1) المرجع نفسه، ص ن.

(2) إن القول بأن المقامة نص مكتوب لا يلغي خاصيتها الشفاهية حين ابتداعها إذ أنها كانت تدل على أحاديث تدور في مجلس واحد.

أولا ثم الفرس بصفة عامة[1].

أصبح للفرس مكانة مرموقة في ظل النظام العباسي، وقد بدا التجاوب واضحا بين هذا العنصر والعنصر العربي، إذ أنهم أثبتوا قدرة فائقة في تسيير شؤون مختلفة للدولة من إدارية وسياسية وثقافية، أن هذا النفوذ مكن الفرس من تولي زمام الحكم حتى أنه «كان أغلب الأمراء من غير العرب»[2].

بدت ملامح التغيير واضحة على الحياة الاجتماعية وبدا التفاوت الطبقي ملحوظا، إذ انقسم المجتمع العباسي آنذاك إلى طبقتين:

الطبقة الأرستقراطية وتشمل فئة الحكام والأمراء وما تعلق بحاشيتهم، وهذه الطبقة تعيش حياة مليئة بالترف والبذخ، فبالغوا في بناء القصور وتزيينها واقتناء الجواري وإقامة البساتين والحدائق.

ومما يروى عن بعض مظاهر الترف التي كانت تنعم بها هذه الفئة أن الخليفة المقتدر كان لديه شجرة من فضة وزنها خمسمائة ألف درهم، زينت هذه الشجرة بطيور مصنوعة من الفضة تصفر من تلقاء نفسها[3].

إن هذه الحياة المريحة والمنعشة تستلزم وجود عناصر أخرى تضفي على هذه الحياة جوا أكثر انتعاشا وطربا، إنها وبكل اختصار مجالس الخمر والمجون، واللهو، والغناء التي أفسدت أخلاق الحكام، وقضت على ضمائرهم، فأنهكوا الفئة المستضعفة من الشعب (والتي تمثل الطبقة الثانية) بالضرائب، وسلب أموالهم خفية وعنوة، فأدى كل ذلك إلى انحرافات سلوكية، ومظاهر لا أخلاقية لم يعهد بها سابقا كاللصوصية، والسطو، واختلال الأمن والاستقرار وكثرة المجاعات والمتشردين والمتسولين.

وبالرغم من هذا الظلم العظيم، والاستبداد الشديد إلا أن الحياة الثقافية في ذلك العصر كانت مشرقة، إذ انفتح المجتمع العربي على ثقافات متعددة، وديانات مختلفة، وأصبح

---

(1) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 21.

(2) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني، ص 32.

(3) المرجع نفسه، ص ن.

حوار الديانات ممكنا، مما أدى إلى ظهور علم الكلام الذي تأثر إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية، ونشطت حركة الترجمة آنذاك كثيرا مما أدى إلى تطور فكري ملحوظ، ورقي حضاري كبير.

وقد قرب الخلفاء والأمراء إليهم كثيرا من الأدباء والعلماء، لينالوا حظهم من هذا البذخ والترف، إلا أن ما حصلوا عليه لم يكن لما أبدعوه من فكر وأدب بل لمسايرتهم للنظام الحاكم[1].

أما الفئة الأخرى البعيدة عن القصر، من الأدباء والكتاب والشعراء وغيرهم من العلماء، وكذا أغلبية أفراد الشعب فقد تحول الكثير منهم إلى متسولين، لا يجدون من العيش ما يكفي حاجياتهم الضرورية.

تذكر كتب التاريخ أسماء كثيرة لعلماء وأدباء العصر العباسي قاسوا شظف العيش ومرارة الفقر نذكر منهم أبا حيان التوحيدي (ت 400هـ) الذي اضطر من شدة الخصاصة إلى التكفف ومراءاة الناس حتى يحصل على قوت يومه، وهذا أبو علي القالي (ت 356هـ) صاحب كتاب الأمالي اضطر إلى بيع كتبه –وهي أعز شيء يملكه– من شدة فقره وعوزه مما حذا به ذلك إلى التنقل من المشرق صوب الأندلس بحثا عن مسلك جديد للارتزاق[2].

وهذا بديع الزمان الهمذاني –مبتدع فن المقامات وصاحب الرسائل– الذي كان من أعمق الناس فلسفة وإدراكا لفهم الحياة وطبائع الناس آنذاك– لم يجد مكانة تليق بشخصه وبفنه مما اضطره ذلك إلى التنقل المستمر بين أرجاء الدولة العباسية المترامية الأطراف بحثا عن ما يدفع عنه عوزه وفاقته.

إن ظاهرة البؤس وغيرها من الظواهر الجديدة (من لصوصية، وتسول، وتشرد) والتي تفشت في المجتمع العباسي بصوره ملفتة للنظر، هي التي دفعت البديع إلى أن ينسج خيوط

---

(1) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص23.

(2) إن غير هؤلاء العلماء كثير وقد عددهم أحمد بن المقري التلمساني في كتابه: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 1988. انظر: مج2، ص 43، ومج1، ص 364.

فنه المقامي بمهارة، ليبدع لنا لونا نثريا جديدا.

انعكس فساد الأوضاع السياسية والاجتماعية على أدب بديع الزمان، فالتقط في مقاماته نموذج المتسول المحتال الذي يرائي الناس، ويلجأ إلى النفاق والكذب والاستهانة بالمقدسات الدينية لكسب الأموال.

فكان الهمذاني يوجه نقدا ساخرا لأوضاع ذلك المجتمع، الذي أصبح فيه الأديب مستجديا في بلاط الخلافة، لا يجد ما يكفيه قوت يومه من خلال ابتداعه لشخصية فنية هي شخصية (أبي الفتح الاسكندري) بطل أحداث هذه المقامات وشخصية الراوي عيسى بن هشام. وربما كان من الأهمية الإشارة إلى دلالات الأسماء في المقامات، فقد يكون اختيار الهمذاني لهذه الأسماء دلالات تطابق مسمياتها في الصورة الخلقية والسلوك، وسنقصر حديثنا هنا عن دلالة اسم الشخصية المركزية ربما يشير اسم أبي الفتح إلى الفتوحات أي أنه يمكن أن يكون فاتحا لكل ما هو مستغلق، ومن هنا تكون دلالة الاسم مرتبطة بفتح كل ما أبهم من مفردات اللغة العربية وعباراتها، ومن ناحية أخرى يمكن أن يكون فاتح العقول ومفتقها بما يتمتع به من فصاحة وسحر بياني[1] وهو الذي يصف نفسه بأنه «رَجُلُ الفَصَاحَةِ يَدْعُوهَا فَتُجِيبُهُ، وَالبَلاغَةِ يَأْمُرُهَا فَتُطِيعُهُ»[2].

أما الجزء الثاني من الاسم " الاسكندري " فقد يكون نسبة لاسكندر الأكبر أو لمدينة الاسكندرية وهي من الثغور الأموية[3]، وهذا ما عبر عنه في مقامات كثيرة[4](من مجزوء المجتث):

إِسْكَنْدَرِيَّةُ دَارِي ... لَوْ قَرَّ فِيها قَرَارِي

لكِنَّ لَيْلِي بِنَجْدٍ ... وَبِالحِجَازِ نَهارِي

---

(1) أيمن بكر: السرد في مقامات الهمذاني، ص 80.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة المضيرية: ص122.

(3) يرى مصطفى الشكعة أن بديع الزمان حدد في المقامة البصرية والجرجانية هذه الاسكندرية، وهي من الثغور الأموية، إلا أن دولة بني أمية قد زالت من المشرق قبل القرن الرابع الهجري، وإن كانت إذ ذاك في أوجها في الأندلس. للاستزادة انظر: مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني، ص 326.

(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الجاحظية: ص87.

حاول بديع الزمان أن يقدم لنا رؤية شاملة لواقع البيئة التي عاش فيها من خلال الشخصية الفنية التي ابتدعها، والتي مثلت نموذج الأديب والبليغ والفقيه والشاعر المكدي، الذي اتخذ مهارته البلاغية وذكاءه المفرط وسيلة للتكسب.

قدم لنا الكاتب مقاماته بلغة خاصة يمتزج فيها النثر مع الشعر في أغلب المقامات.

نحاول في هذه الصفحات التعرف على لغة المقامات أو ما يطلق عليه التداوليون (لغة الخطاب) من خلال تفاعل هذا النموذج الفني مع السياق الثقافي.

3- السياق الثقافي للنماذج الفنية:

يولي مالينوفسكي Malinwiski اهتماما واضحا بالخلفية الثقافية للنص، لأن الكشف عن هذه الجوانب الثقافية يمنح النص قيمة خاصة من ناحية، كما تساعد على فهمه وتأويله من ناحية أخرى[1].

طبيعة لغة الخطاب:

نعني بطبيعة لغة الخطاب: نوع هذه اللغة التي تعد أداة لسانية هامة للتعبير عن أفكار الكاتب ومعتقداته، ومن ثم يمكن تمييز الأنواع الأدائية الآتية للغة: رسمية/ غير رسمية، منطوقة/ مكتوبة.

أنشأ بديع الزمان الهمذاني لغة خاصة لمقاماته، وسار على نحوه كتاب المقامات ممن جاء بعده، مع الأخذ في الحسبان أن المقامات نشأت في القرن الرابع الهجري، في هذه الفترة بالذات ازدهرت الكتابة النثرية ازدهارا كبيرا[2] حيث ولع الكتاب بالتصنع والتكلف في استخدام الأساليب البديعية، من جناس وطباق وسجع وأضداد وغيرها من الوسائل التنغيمية.

وقد ضمن هذه اللغة المثقلة بحلل البديع كثيرا من الأمثال المستقاة من واقع البيئة العربية، والاقتباس من القرآن الكريم، والشعر والإشارة إلى بعض الجوانب التاريخية[3] وهذا

---

(1) حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص 30.

(2) إكرام فاعور: مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد، ص 39.

(3) من المقامات التي تتطرق إلى ذكر بعض الجوانب التاريخية نذكر على سبيل المثال المقامة الحمدانية، =

ما نحاول الكشف عنه لاحقا في مبحث خاص بالتناص، وإذا كانت لغة المقامات الهمذانية مثقلة بالمحسنات البديعية وخاصة السجع والجناس، فمن هنا يحق لنا أن نطرح السؤال التالي: ما جدوى وفعالية هذه المحسنات في تحقيق تماسك النصوص المقامية وانسجامها؟

يحقق السجع في مقامات الهمذاني دورا مهما في ربط أجزاء النصوص المقامية، التي تبدو في شكل نصوص متفرقة لا رابط بينها، وقد كثر في المقامات بشكل ملفت للانتباه، إذ لا تكاد تخلو منه مقامة، نذكر من أمثلته في:

- المقامة الوعظية(1): «... كَذَبَتْ ظُنُونُ الْمُلْحِدِينَ، الَّذِينَ جَحَدُوا الدِّينَ، وَجَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ».
- المقامة الأهوازية(2): «... وَالسُّرورِ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَقَاضَاهُ، والشُّرْبِ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَعاطاهُ، والأنس كَيْفَ نَتَهَاداهُ».
- المقامة الشيرازية(3): «... فَبَيْنا أَنا يَوماً فِي حُجْرَتِي إِذْ دَخَلَ كَهْلٌ قَدْ غَبَّرَ فِي وَجْهِهِ الفَقْرُ، وَانْتَزَفَ ماءَهُ الدَّهْرُ...».
- المقامة الساسانية(4): «قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَنُلْتُهُ دِرْهَماً، وَقُلْتُ لَهُ: قَدْ آذَنْتُ بِالدَّعْوَةِ وَسَنُعِدُّ وَنَسْتَعِدُّ، وَنَجْتَهِدُ وَنَجِدُّ...».

فبالإضافة إلى ما حققه السجع من نغمة موسيقية جميلة، تطرب لها النفوس، فقد حقق ربطا معنويا لخيوط النص المقامي الواحد.

وفي هذا السياق يشير لوتمان Lotman إلى أن الاتكاء على العلاقات الفونولوجية أو الصوتية، التي تتجلى بشكل واضح في النصوص، هو الذي يبرر لنا العلاقات العادية غير

= ص774، التي تشير إلى سيف الدولة الحمداني أمير حلب الذي كان يحضر فرسا جميلا ويطلب من الأدباء أن يصفوه له، وكذا المقامة البشرية ص 280 التي تسرد قصة بشرين عوانه العبدي وهذا النوع من القصص يندرج ضمن القصص الشعبي المفعم بالعبر والمواعظ.

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 151.

(2) المرجع نفسه، ص 67.

(3) المرجع نفسه، ص 193.

(4) المرجع نفسه، ص 108.

التامة أو غير المبررة[1].

ومن الألوان البديعية الأخرى التي تزخر بها لغة المقامات، والتي حققت للنص قيمة موسيقية عالية الجناس، ولعل النوع الغالب منه على مقاماته هو الجناس الناقص، ومن أمثلته نذكر ما ورد في المقامة الشيرازية (يسعدني، يسعفني) (السقم، العدم) ومن أنواع الجناس[2] ما ينبني على تجانس الحروف ومن أمثلته ما ورد في المقامة الأهوازية (صاح، صيحة) (وَطِئَهُ، سَيَطَأَهُ) (تطيرون، الطيرة).

ومن زاوية أخرى يمكن أن ننظر إلى لغة المقامات على أنها تجمع بين خاصيتين:

- الخاصية الشفاهية: إذ تمثل المقامات إبداعا شفهيا خالصا مقارنة بلحظة إنتاجها، وهذا يقودنا للحديث عن التقاليد الشفاهية للإبداع الأدبي آنذاك، والضاربة بجذورها في أعماق العصر الجاهلي[3].
- أما الخاصية الكتابية: فقد اقترنت بالنصوص المقامية بعد حقبة من الزمن، عندما بدأت تشيع حركة التدوين والطباعة في الثقافة العربية.

يشرح لنا عمر عبد الواحد فكرة اقتران الخاصية الشفاهية والكتابية بالأدب العربي من خلال الخطاطة الآتية[4]:

البداوة = الارتحال = الشفاهية
التحضر = الاستقرار = الكتابية

ومن هذا المنطلق يمكن أن ننظر إلى النصوص المقامية، على أنها نصوص تقع في منطقة بين الشفاهية والكتابية، تتجاذبها جدلية اللغة المسموعة والمقروءة، وهذا يعني أن متلقي المقامات لحظة إبداعها موجود بالقوة في الموقف الاجتماعي، أما متلقي المقامات وهي مكتوبة

---

(1) عمر عبد الواحد: السرد والشفافية، ص 134.

(2) عالجنا في الفصل التطبيقي المتعلق بظواهر اتساق النص وانسجامه ظاهرة الجناس وقد أدرجناها ضمن ظاهرة التكرار بأنواعه.

(3) عمر عبد الواحد السرد والشفاهية، ص 08.

(4) المرجع نفسه، ص 09.

فإنه متلق متخيل (يرمز إلى القارئ بصفة عامة).

نوع الخطاب[1]:

يشير مصطلح النوع إلى أجناس النصوص الأدبية مثل: الرواية، القصة، الرسالة.

يرتبط مصطلح النوع بأغراض الكاتب ومقاصده، ومع تعدد المقاصد تتعدد الأنواع، لا يقتصر تحديد نوع النص على البنية الشكلية فقط، إذ يلزم إلى جانب ذلك تحديد موضوعات النوع والمفردات المستخدمة في النص، وكيفية توظيفها...[2].

وفي هذا الإطار يمكن أن نقدم تصورا موجزا لفن كتابة المقامة طبقا لاعتبارات الشكل والمضمون على حد سواء.

اتخذت المقامات الهمذانية من الشكل القصصي قالبا لها، وقد أرسى قواعد هذا الفن بديع الزمان الهمذاني، فقد بدأ على يده ليستمر في مقامات الحريري (ت 510هـ) ومن حذا حذوه، ثم انتقل بعدها إلى الأندلس كما يتجلى ذلك في مقامات السرقسطي[3] (ت 538هـ) وغيره كثير ممن ألفوا في هذا اللون النثري.

استقى بديع الزمان نموذجه الفني من روافد تراثية كثيرة نذكر أهمها[4]:

- الأمثال: التي ينظر إليها على أنها قصص مضغوطة، تحيل إلى قصص طويلة أو قصيرة.
- قصص جحا في الآداب الفارسية والتركية والعربية قد تكون دافعا من دوافع ظهور فن المقامة، والعلاقة بين قصص جحا والمقامات تتمثل في أنهما لا يخلوان من الفكاهة

---

(1) لمعرفة الأنواع الخطابية الأخرى انظر:
DOMINIQUE Maingaineau: Les termes clés de l'analyse de discours, P 44

(2) حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص 34.

(3) السرقسطي: هو أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي السرقسطي (ت 538هـ) صاحب المقامات اللزومية، للاستزادة انظر: يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص277.

(4) أورد هذه الروافد التراثية التي استقى منها بديع الزمان مقاماته كثير من الدارسين نذكر منهم:
أ- يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص49 وما بعدها.
ب- مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني، ص302-303.
ج- إكرام فاعور: مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد، ص123-124.

والضحك والهزل.

- ومن الأشكال القصصية الأخرى التي يزخر بها التراث العربي نذكر القصص الديني في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف، وقصص البخلاء للجاحظ (ت 255هـ) وقصص كليلة ودمنة ومسامرات أبي حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة.

إن المقامات التي بلغت في مجموعها أربعمائة مقامة والتي لم يصلنا منها إلا عدد قليل ينيف على الخمسين وإن تعددت مواضيعها بين[1]:

- الكدية بأساليبها المختلفة
- الكدية بالمقدرة البيانية وسحر البلاغة[المقامة الأذربيجانية][2]
- طروق الليل [المقامة الكوفية][3]
- التعامي[4] [المقامة المكفوفية][5]
- القراد[6] [المقامة القردية][7]
- النقد الفلسفي والأدبي: [المقامة الجاحظية][8]، [المقامة القريضية][9]
- الألغاز [المقامة الشعرية][10]

---

(1) فصل يوسف نور عوض في هذه الأغراض. للاستزادة انظر فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 90 وما يليها.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 52.

(3) المرجع نفسه، ص 29.

(4) يتظاهر أبو الفتح في هذه المقامة بأنه رجل أعمى وهي حيلة من حيل البطل لكسب الأموال.

(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 95.

(6) القراد: وهي حيلة أيضا من حيل البطل، يقول عيسى بن هشام: أنه في طريق عودته إلى البلد الحرام رأى حلقة رجال مزدحمين، ولما اقترب من هذه الحلقة رأى (قراد) يرقص قرده، ويضحك من عنده. وفي هذه المقامة اكتفى الاسكندري بحيلته وحدها، ولم يستعن ببلاغته.

(7) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 113.

(8) المرجع نفسه، ص 87.

(9) المرجع نفسه، ص 07.

(10) المرجع نفسه، ص 252.

- الظرف [المقامة الصفرية][1]
- النزعة التعليمية [المقامة العلمية][2]
- الجدل الديني والعقدي [المقامة المارستانية][3]

إلا أنها تماسكت فيما بينها كنص واحد – وهو ما حاولنا البرهنة عليه سابقا- لتكون بذلك تلك المواضيع بنيات سردية متجاورة تصب في نص سردي واحد تقف وراءه مقصدية Intentionnalité صاحب المقامات، والمتمثلة في تصوير شامل لواقع البيئة التي عاش فيها الفنان، ومنها أحكم جمع خيوط هذا الفن النثري الجديد.

يمكن تقسيم مقاصد صاحب النص إلى مقاصد مباشرة وغير مباشرة، وهذا ما نوضحه من خلال الخطاطة الآتية:

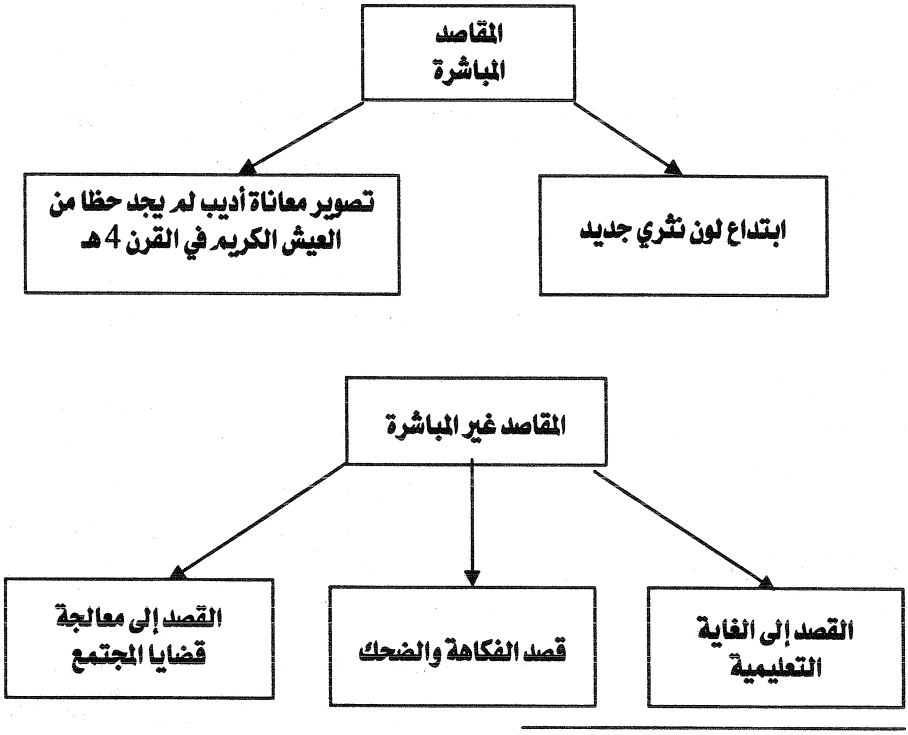

(1) المرجع نفسه، ص 261.
(2) المرجع نفسه، ص 230.
(3) المرجع نفسه، ص 141.

وبذلك تأخذ المقامات بعدا اجتماعيا وإنسانيا، إنها نشاط لغوي مخطط له، ومن هنا يمكن أن نحكم عليها بأنها سلسلة متتابعة من الأقوال، التي تنتج من مبدع النص، لتخدم أهدافا معينة، ويمكن أن يكتشف مقاصد المنتج اعتمادا على تشكيلة النص اللغوية أو بمراعاة العوامل السياقية[1].

إن ما تضمنته المقامات من أبعاد إنسانية واجتماعية وغايات تعليمية يؤهلها لأن تكون صالحة لكل زمان ومكان.

ثالثا- التناص Intertextualité:

تعد السيميائية جوليا كريستيفا Julia Kristiva أول من قدم مفهوما " للتناص " Intertextualité في منتصف الستينات من القرن العشرين[2]، وهي بتصورها هذا تكسر الطوق الذي حصر الاتجاه البنوي فيه نفسه، لتجعل من النص بنية حية ومتحركة تؤثر وتتأثر بنصوص سابقة أو لاحقة.

يطلق جيرار جنيت G. Genette على النص المتأثر Hypertexte كما أنه يفضل مصطلح عبر نصية Transtextualite بدل التناص Intertextualité[3].

من ثم فقد قدمت للتناص تعريفات كثيرة تعكس التوجهات والمنطلقات المختلفة للدارسين، ومن التحديدات التي قدمت له نذكر تعريفا لمحمد مفتاح[4] الذي يرى أن التناص يتجسد في دخول نص ما في علاقة مع نصوص أخرى بكيفيات مختلفة، مما أطلق عليه التعالق النصي.

يتنوع التناص في مقامات بديع الزمان بما يكشف عما تختزنه ذاكرة الكاتب من موروث ثقافي كبير ومتنوع تمثل في حفظ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والقصص والأحاجي والأمثال والألغاز والأشعار... ألخ، بما يعبر عن تواصله الإيجابي مع الموروث الثقافي العربي

---

(1) فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم لغة النص، ص 120.

(2) عمر عبد الواحد: التعلق النصي، ص37.

(3) DOMINIQUE Maingueneau: Les termes clés d l'analyse de discours, p 51.

(4) تحليل الخطاب الشعري، ص 121.

الذي هيأ له أرضية خصبة بنى على أساسها هذا اللون النثري الجديد.

فالهمذاني -بوصفه أديبا بليغا وشاعرا مجيدا واسع الإحاطة باللغة ونوادرها وغريبها- تتلمذ على يد أبي الحسين أحمد بن فارس عالم اللغة الكبير.

وشهد له أبو منصور الثعالبي (ت 469هـ) بتفوقه في العلم ونبوغه في مجال الأدب، وبالغ في مدحه وإطرائه إلى حد أن قال فيه: «... بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر، وغرة العصر ... ولم ير ولم يرو أن أحدا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره»(1).

تعددت مصادر التناص في مقامات بديع الزمان تبعا لتعدد الروافد الثقافية التي استقى منها نموذجه الفني فنجد:

1- التناص مع القرآن الكريم:

وهذا النوع من التناص يقوم على استحضار الهمذاني لبعض آيات القرآن الكريم وتضمينها في نص المقامة، من ذلك قوله في المقامة الوعظية(2): «أَيُّها النَّاسُ إِنَّكُمْ لَمْ تُتْرَكُوا سُدَى... وَإِنَّكُمْ وَارِدُو هُوَّةٍ، فَأَعُّدوا لَهَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» تناص مع قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(3).

وقوله: «كَذَبَتْ ظُنُونُ المُلْحِدِينَ، الَّذِينَ جَحَدُوا الدِّينَ، وَجَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ» فجملة: الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ تتناص مع قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾(4).

وقوله: «إِنَّ بَعْدَ الحَدَثِ جَدَثاً، وَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثاً» فجملة وإنكم لم تخلقوا عبثا

---

(1) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ص 293.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 151.

(3) الأنفال: 08/ 60.

(4) الحجر: 15/ 90-91.

تتناص مع قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

وقوله في المقامة الجاحظية[2]: «وَقَوْمٍ قَدْ أَخَذُوا الوَقْتَ بَيْنَ آسٍ مَخْضُودٍ، وَوَرْدٍ مَنْضُودٍ» تتناص مع قوله تعالى في أوصاف الجنة: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[3].

ومن ذلك قوله أيضا في المقامة الأذربيجانية[4]: «اللَّهُمَّ يا مُبْدِئَ الأَشْيَاءِ وَمُعيدَهَا، وَمُحْيِيَ الْعِظَامِ وَمُبِيدَهَا، وَخَالِقَ الْمِصْباحِ وَمُدِيرَهُ، وفالِقَ الإِصْباحِ وَمُنِيرَهُ، وَمُوصِلَ الآلاءِ سابِغَةً إِلَيْنا، وَمُمْسِكَ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَيْنَا، وَبَارِئَ النَّسَمِ أَزْواجاً وَجَاعِلَ الشَّمْسِ سِرَاجاً، والسَّماءِ سَقْفاً والأَرْضِ فِرَاشاً، وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَناً وَالنَّهَارِ مَعَاشاً، ومُنْشِئَ السَّحَابِ ثِقَالاً، وَمُرْسِلَ الصَّواعِقِ نِكَالاً».

فقوله: مبدئ الأشياء ومعيدها يتناص مع قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5].

وقوله: "محي العظام ومبيدها" هذه الجملة تتناص مع قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[6].

وقوله: "وجاعل الشمس سراجا" يتناص مع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[7].

وقوله: " وجاعل الليل سكنا والنهار معاشا " يتناص مع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[8].

---

(1) المؤمنون: 23/ 115.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 87.

(3) الواقعة: 56/ 28 - 29.

(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 52.

(5) الجاثية: 45/ 26.

(6) يس: 36/ 78.

(7) نوح: 71/ 16.

(8) النبأ: 78/ 10-11.

يروي بديع الزمان الهمذاني في المقامة القزوينية[1]: «فَمَا مَلَكَنَا النَّوْمُ حَتَّى سَمِعْنَا صَوْتاً أَنْكَرَ مِنْ صَوْتِ حِمَارٍ» فجملة " أنكر من صوت حمار " تتناص مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[2].

وفي قوله: " نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ " يتناص مع قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وفي قوله: «وَقَدْ تَرَكْتُ وَرَاءَ ظَهْرِي حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً، وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً» يتناص مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾[4].

ويروي في المقامة القزوينية أيضا: «وَخَيْلاً مُسَوَّمَةً، وَقَنَاطِيرَ مُقَنْطَرَةً» يتناص مع قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[5].

أما قوله: «فَنَجِّنِي إِنِّـيَ فِـيهِـمْ غَـرِيبٌ» يتناص مع مقولة الأنبياء في أقوامهم قبل هجرتهم: ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

وقوله في المقامة الأهوازية[7]: «... فَصَاحَ بِنَا صَيْحَةً كَادَتْ الأَرْضُ لَهَا تَنْفَطِرُ، وَالنُّجُومُ تَنْكَدِرُ» فجملة " النجوم تنكدر تتناص مع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[8].

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 102.

(2) لقمان: 31/ 19.

(3) الصف: 61/ 13.

(4) النبأ: 78/ 31-32-33.

(5) آل عمران: 03/ 14.

(6) الشعراء: 26/ 118.

(7) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص67.

(8) التكوير: 81/ 02.

ومن أمثلة التناص مع القرآن الكريم ما أورده الهمذاني في المقامة الساسانية[1] يقول (من مجزوء الرمل):

يـــا فَاضِـــلاً قَـــدْ تَبَـــدَّى ... كَأَنَّـــهُ الغُصْـــنُ قَـــدّاً
أَطْلِـــقْ مِـــنَ اليِـــدِ خَصْراً ... واحْلُـلْ مِـنَ الكِـيسِ عَقْـدا
واضْـــمُمْ يَـــدَيْكَ لأَجْـــلي ... إِلَى جَنَاحِـــكَ عَمْـــداً

فالبيت الأخير يتناص جزئيا مع قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾[2].

وقوله في الشطر الثاني " واحلل من الكيس عقدا " تتناص مع قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾[3].

وقوله في المقامة الصفرية[4]: «عِنْدِي رَجُلٌ مِنْ نِجَارِ الصُّفْرِ، يَدْعُو إِلَى الكُفْرِ، وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ، وَقَدْ أَدَّبَتْهُ الغُرْبَةُ... وَقَدْ خَطَبَ مِنْكَ جَارِيَةً صَفْرَاءَ... وَتُسِرُّ النَّاظِرِينَ» فقوله: صفراء تسر الناظرين، يتناص مع قوله تعالى: في وصف بقرة بني إسرائيل: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾[5].

يرى بعض الدارسين أن التناص مع القرآن الكريم له غاية أدبية جمالية لأن أسلوب القرآن الكريم هو أرقى أساليب اللغة العربية، بل يمثل الأسلوب الأمثل لها، هذا بالإضافة إلى ما يضفيه على الصياغة الأدبية من صور وأساليب تزيدها رونقا وجمالا[6]، ويبرز إلى جانب الغاية الأدبية الجمالية غاية دينية تبرر كثير من المواقف في النص.

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 108.
(2) طه: 20/ 22.
(3) طه: 20/ 27-28.
(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 261.
(5) البقرة: 02/ 69.
(6) حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص 219.

2- التناص مع الحديث النبوي الشريف:

يقوم هذا النوع من التناص على استحضار الحديث الشريف أو جزء منه في النص.

استحضر بديع الزمان الهمذاني في المقامة الجاحظية[1] حديثا شريفا، وقد نقله نقلا حرفيا، يقول: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ»[2].

يعلق جرار جينيت على هذا النوع من التناص بأنه يشكل حضورا فعالا لنص ما يطلق عليه قديما بالاستشهاد citation[3].

- يقول الهمذاني في المقامة الكوفية[4]: «ما عُرِضَ عَرْفُ العُودِ، عَلى أَحَرَّ مِنْ نَارِ الجُودِ... وَمَنْ مَلَكَ الفَضْلَ فَلْيُؤَاسِ، فَلَنْ يَذْهَبَ العُرْفُ بَيْنَ الله وَالنَّاسِ، وَأَمَّا أَنْتَ فَحَقَّقَ اللهُ آمَالَكَ، وَجَعَلَ اليَدَ العُلْيا لَكَما». إن قوله جعل اليد العليا لك يتناص مع قول رسول الله ﷺ: «اليَدُ العُلْيَا خَيرٌ مِنَ اليَدُ السُفْلَى»[5].

وكذلك قوله في المقامة الشيرازية[6]: «نَكَحْتُ خَضْرَاءَ دِمْنَةٍ، وَشَقِيتُ مِنهَا بِابْنَةٍ، فَأَنَا مِنهَا في مِحْنَةٍ». فقوله: " نكحت خضراء دمنة " يتناص مع الحديث الشريف «إِيَّاكُم وَخَضْراءُ الدِّمَن فَقِيلَ وَمَا خَضْـرَاءُ الدِمَن قَالَ المَرْأَةُ الحَسنَاءَ فِي المَنبَتِ السُّوءِ»[7] وقوله في المقامة الأسدية[8]: «... فِي صُحْبَةِ أَفْرادٍ كَنُجُومِ اللَّيلِ» يتناص مع قوله: «أَصْحَابِي كالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقتَدَيْتُمُ اهتَدَيْتُم»[9].

إن استحضار الهمذاني لهذه النصوص الدينية (نصوص القرآن والسنة) بطريقة مباشرة

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 87

(2) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مع تعليقات الشيخ ابن باز، اعتنى به محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، ط1، 1424، ج9، ص 176.

(3) عمر عبد الواحد: التعلق النصي: ص 66

(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 29

(5) http: //seenjeem.maktoob.com/

(6) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 193

(7) راجع الموقع الإلكتروني: http: //www.islamicmedicine.org/qazawaj2.htm

(8) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 35.

(9) انظر المرقع الإلكتروني: http: //hadith.al-islam.com/

أو غير مباشرة، يشير إلى تعدد مصادر بناء هذه النصوص، فتصبح بذلك المقامات بنية سردية مفتوحة تتقاطع وتتلاقى فيها نصوص عديدة مقتطعة من نصوص أخرى.

3- التناص مع الشعر:

يشير هذا النوع من التناص إلى وجود الحس الثقافي الخصب لدى الهمذاني، كما يشير إلى الحوار البناء مع الإرث اللغوي الذي خلفته الحضارة العربية على امتداد عصورها، فالتناص مع الشعر العربي القديم يحقق للكاتب استمرارية الماضي في الحاضر، ويولد تفاعلا حيا بين التجربة الشعورية لبديع الزمان وتجارب معاصريه أو سابقيه، والكاتب باختياره لهذا المصدر الثقافي الهام لدى العرب، يمنح نصه أبعادا فنية وجمالية، لا يدركها إلا الحس المرهف والذوق السليم.

يقول بديع الزمان الهمذاني في المقامة الخمرية[1]: «... وَلَمَّا حَشْرَجَ النَّهَارُ أَوْ كَادَ، نَظَرْنَا فَإِذَا بِرَايَاتِ الحَانَاتِ أَمْثَالُ النُّجُومِ، فِي اللَّيْلِ البَهِيمِ، فَتَهَادَيْنَا بِهَا السَّرَّاءَ، وَتَبَاشَرْنَا بِلَيْلَةٍ غَرَّاءَ».

فتشبيه رايات الحانات بالنجوم نقله الهمذاني من تشبيه طرفه بن العبد للندامى بالنجوم.

يقول طرفة بن العبد[2](من بحر الكامل):

نَـدَامَايَ بِيْضٌ كَالنُّجُـومِ وَقَيْنَـةٌ تَرُوحُ عَلَيْنَـا بَيْـنَ بُرْدٍ وَمُجْسَـدِ

ومن أمثلة التناص في المقامة القزوينية[3](من مجزوء الرمل):

رَبِّ كَمَا أَنَّكَ أَنْقَذْتَنِي فنجِّنِي إِنِّيَ فِيهِمْ غَرِيبْ

فالشطر الثاني من هذا البيت يتناص مع قول المتنبي[4](من بحر الخفيف):

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 272.

(2) أبو عبد الله بن الحسين الزوزني: شرح المعلقات السبعة، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت، معلقة طرفة بن العبد، ص 79.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 104.

(4) فوزي عطوي: المتنبي شاعر السيف والقلم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1998، ص 59.

أَنَا فِي أُمَةٍ تَدَارَكَهَا اللهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

يروي عيسى بن هشام في المقامة الأسدية[1]: «... وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ وَجْهٌ يَبْرُقُ بَرْقَ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ، وَقَوَامٌ مَتَى مَا تَرَقَّ العَيْنُ فِيهِ تَسَهَّل».

إن هذا الوصف " متى ما ترق العين تسهل " مستمد من شطر بيت لامرئ القيس في وصف فرسه[2](من بحر الطويل):

وَرُحْنَا يَكَادُ الطَّرْفُ يَقْصُرُ دُوْنَـهُ مَتَى تَـرَقَّ العَيْـنُ فِيْهِ تَسَفَّـلِ

يروي عيسى بن هشام في المقامة الكوفية[3]: «وَمَنْ مَلَكَ الفَضْلَ فَلْيُؤَاسِ، فَلَنْ يَذْهَبَ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ».

فجملة " لن يذهب العرف بين الله والناس، تتناص مع قول الحطيئة[4] المشهور (من المتقارب):

مَنْ يفعَلِ الخيرَ لا يُعدَمْ جَوازِيهِ لا يَذهَبُ العُرفُ بَينَ اللهِ والنَّاسِ

ضمن بديع الزمان الهمذاني أبياتا شعرية كاملة لأبي نواس، والأعشى والبكري وابن الرومي كما يتجلى ذلك في المقامة الشعرية[5].

يقول أبو نواس (من بحر الطويل):

فَبِتْنَـا يَرَانَـا اللهُ شَرَّ عِـصَـابَةٍ تُجَرِّرُ أَذْيَـالَ الفُسُـوقِ وَلا فَخْـرُ

يقول الأعشى (من بحر المتقارب):

دَرَاهِمُنَـا كُلُّهَـا جَـيِّدٌ فَـلا تَحْسَـبَنَّا بِتَنْقَادِهَـا

ويقول البكري (من بحر المجتث):

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 33.

(2) أبو عبد الله بن الحسين الزوزني: شرح المعلقات السبعة، ص 50.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 33.

(4) الحطيئة: ديوان الحطيئة من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمر الشيباني، شرح أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1992، ص 109.

(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 253.

أَتَـــاكَ دِيَنَـــارُ صِـــدْقٍ يِـــنْقُصُ سِـــتِّينَ فَلْسَـــا
مَـــنْ أَكْـــرَمِ النَّـــاسِ إِلاَّ أَصْـــلاً وَفَرْعـــاً وَنَفْســـاً من

ويقول ابن الرومي (من بحر الطويل):

إِذَا مَـنَّ لَمْ يَمْـنُنْ بِمَـنٍ يَمُنُّـهُ وَقَالَ لِنَفْسِي: أَيَّهَا النَّفْسُ أَمْهِلِي

4- التناص مع الحكم والأمثال:

تعبر الأمثال والحكم عن خلاصة تجارب مر بها الإنسان العربي القديم، يمثل هذا الرافد الثقافي موروثا شعبيا تختزنه ذاكرة الأفراد، يتداولونه فيما بينهم شفاهة[1].

وقد وضح هذا المصدر في المقامات من خلال:

- ما أورده الهمذاني في المقامة الوعظية[2] موعظة لعلي بن الحسين المشهور بزين العابدين (ت 95هـ) يقول بديع الزمان «وَقَدْ سَمِعْت أَنَّ عَلِيَّ بْنُ الْحُسَيْنِ كَانَ قَائِماً يَعِظُ النَّاسَ وَيَقُولُ: يا نَفْسُ حَتَّامَ إلى الحَيَاةِ رُكُونُكِ، وَإِلَى الدُّنْيَا وَعِمَارَتِهَا سُكُونُكِ؟ أما اعْتَبَرْتِ بِمَنْ مَضَى مِنْ أَسْلاَفِكِ، وَبِمَنْ وَارَتْهُ الأَرْضُ مِنْ أُلاَّفِكِ...».

وفي المقامة الجاحظية[3] وعندما سئل أبو الفتح الاسكندري عن رأيه في الجاحظ وابن المقفع أجاب بقوله: «... يَا قَوْمِ لِكُلِّ عَمَلٍ رِجَالٌ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَلِكُلِّ دَارٍ سُكَّانٌ، ولِكُلِّ زَمَانٍ جَاحِظٌ، وَلَوِ انْتَقَدْتُمْ، لَبَطَلَ مَا اعْتَقَدْتُمْ» فجملة لكل عمل رجال، تتناص مع المثل العربي " لكل دهر رجال "[4].

وقوله في المقامة الوصية[5] «... وَإِنَّ القِرَمَ أشأمُ مِنَ البَسُوس» يتناص مع المثل العربي المشهور " أشأم من البسوس "[6].

---

(1) حسام أحمد فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ص 223.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 151.

(3) المرجع نفسه، ص 89.

(4) رابح خدوسي: قاموس العالم في الأمثال والحكم، دار الحضارة، الجزائر، د ط، 1995، ص 101.

(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 233.

(6) المفضل محمد الضبي: من أمثال العرب، تحقيق وشرح وفهرسة الدكتور قصي الحسين، دار الهلال، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 87.

وفي المقامة المضيرية[1] يقول «وَرُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ، وهو مثل عربي مشهور[2].

إن طبيعة موضوع المقامة يعد من أحد العوامل التي تتحكم في اختيار التناص، بما يتناسب ويتلاءم مع غرض المقامة، فيصبح التناص منسجما مع البنية التركيبية للمقامات، محققا بذلك مقصدية بديع الزمان.

ففي المقامات التي يتخذ فيها أبو الفتح الدين مطية للوصول إلى أغراضه، وتمرير حيله على ضحاياه، يكثر في هذا النوع من المقامات التناص مع القرآن الكريم كما يتضح ذلك في (المقامة القزوينية)[3]، والمقامة الإذربيجانية[4]، والمقامة الأهوازية[5]، والمقامة الصفرية[6]،...

إنه لا يتورع عن المساس بالمقدسات الدينية ليبرر التناقضات الموجودة في مجتمعه من ناحية، ولتمرير حيله على الناس من ناحية أخرى، حتى ينال ما يصبو إليه.

ففي المقامة الأذربيجانية[7] نجد انسجاما كليا بين هذه المقامة وبين ما استدل به من معنى الآيات المقتبسة من سور قرآنية كثيرة.

فقبل أن يسأل أبو الفتح الناس حاجته (في المقامة الأذربيجانية)، مهد لهم ذلك بدعاء طويل مستمد من آيات القرآن الكريم، حتى يؤثر على المستمعين، يقول: «اللَّهُمَّ يا مُبْدِئَ الأَشْيَاءِ وَمُعيدَهَا، وَمُحْيِيَ الْعِظَامِ وَمُبِيدَها... أَسْأَلُكَ الصَّلاةَ عَلى سَيِّدِ الْمُرْسَلينَ، مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّاهِرينَ، وأَنْ تُعِينَني على الغُرْبَةِ أَنْني حَبْلَهَا... وأَنْ تُسَهِّلَ لِي عَلى يَدَيْ مِنْ فَطَرَتْهُ الفِطْرَةُ... رَاحِلةً تَطْوِى هَذَا الطَّرِيقَ، وزَاداً يَسَعُنِي والرَّفِيقَ».

يستعمل أبو الفتح الاسكندري الدين مطية للوصول إلى أغراضه، فاتخذه ضربا من

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 122.

(2) محمد جميعان: المثل في الشعر العربي، مكتبة دار الخليج للطباعة والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1999، ص 181.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 102.

(4) المرجع نفسه، ص 52.

(5) المرجع نفسه، ص 67.

(6) المرجع نفسه، ص 261.

(7) المرجع نفسه، ص 52.

ضروب الاحتيال للسطو على الأموال، واستغلال غفلة الناس بمختلف أساليب التمويه.

وقد أفاد استثمار بديع الزمان الهمذاني نصوص القرآن والسنة خدمة أغراضه ومقاصده الدلالية من المقامات.

جل المقامات الهمذانية تقريبا امتداد لمصادر ثقافية متعددة بما فيها القرآن، والسنة، والأشعار، والأمثال والحكم.

ولعل ما أورده الهمذاني من أشعار الجاهليين في المقامة العراقية والمقامة الشعرية، ونقده لأساليب الجاحظ في المقامة الجاحظية، وتهكمه وسخريته من فئة المتكلمين بما فيهم المعتزلة في المقامة المارستانية، لمؤشر واضح على ذلك التفاعل الحي والتواصل الإيجابي بين مؤلف المقامات والتراث العربي القديم.

ومن هنا يتضح لنا أول قصد من مقاصد الأديب وهو إظهار مقدرته الأدبية من خلال تعدد مصادره الثقافية.

أما عن التناص في علاقته بالنص المنتج، فإنه يتجه نحو قصد عام من إنشاء المقامات وهو قصد " ابتداع لون نثري جديد " لم يسبقه إليه أحد، يصور من خلاله بديع الزمان أحواله وأحوال الناس في ذلك الزمان.

فيرتبط التناص بالسياق الثقافي الذي أنتجت فيه المقامات من ناحية، وبما تختزنه ذاكرة بديع الزمان من معارف من ناحية أخرى، كما يرتبط التناص بلغة النصوص المقامية، فتقتحم النسيج اللغوي للمقامات ملفوظات مقتطعة من نصوص القرآن والحديث والأمثال والحكم، مما ييسر حفظ هذا اللون النثري وسهولة تداوله.

فتصبح هذه المدونة فسيفساء من نصوص أخرى (القرآن، السنة، الحديث الشريف، الأمثال، الحكم،...) وقد أدمجت بكيفيات مختلفة، وبتقنيات عالية الكفاءة[1].

وبهذا يمكننا القول إن المقامات نشاط لغوي، تعكس تشبع الهمذاني بالروافد الثقافية

---

(1) يعرف محمد مفتاح التناص على أنه: «فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة» انظر محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص 121. ومن هذا المفهوم قمنا بصياغة الفكرة المشار إليها أعلاه.

المتعددة للحضارة العربية، كما تعكس أيضا عروبة بديع الزمان، وعروبة المقامات، وأنه هو أول من ابتدعها على خلاف ما كان يظنه بعض المستشرقين.

رابعا- ضروب الأفعال الكلامية في النماذج المقامية:

نقف في هذا القسم من الدراسة عند أحد المفاهيم التداولية المعاصرة والذي يمثل مستوى آخر من مستويات التحليل التداولي للنماذج المقامية المختارة وبالتحديد عند نظرية الأفعال الكلامية.

أرسى قواعد هذه النظرية الفيلسوف المعاصر ج. ل. أوستين (J. L. Austin) (ت 1960هـ)، وطورها تلميذه ج. سيرل J. Searle[1]،انبثقت هذه النظرية من رحم الفلسفة التحليلية التي نشأت على يد الفيلسوف الألماني غوتلوب فريجيه Gottlob Frege في كتابه أسس علم الحساب[2].

أما أهم الأسس التي قامت عليها هذه الفلسفة فقد[3]:

- دعت إلى التركيز على اللغات الطبيعية ودراستها، كما أنها عدت اللغة المنطلق الأساس لفهم الذات والكون... إلخ.
- بنت هذه الفلسفة نظرياتها ومفاهيمها على أسس علمية.

تأثر بهذا الاتجاه الفلسفي الجديد عدد من الفلاسفة من بينهم فلاسفة مدرسة أكسفورد (أوستين Austin، سيرل Searle، غرايس Grice، وأدموند هوسرل I. Husarel) وفيتجنشتاين Wiettgenstein.

---

(1) يطلق على هذه النظرية نظرية الأعمال اللغوية، انظر آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم، ص 33. ويطلق عليها نظرية الأفعال اللغوية، انظر عبد الهادي ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 134. ويطلق عليها نظرية الأفعال الكلامية، انظر محمود أحمد نحلة: آفاق البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، 2002، دط، ص 40.

(2) آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في إطار التواصل، ص 28.

(3) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 20.

نوضح من خلال المخطط المشار إليه أسفله العلاقة بين الفلسفة التحليلية وفلسفة اللغة العادية ونظرية الفعل الكلامي[1]:

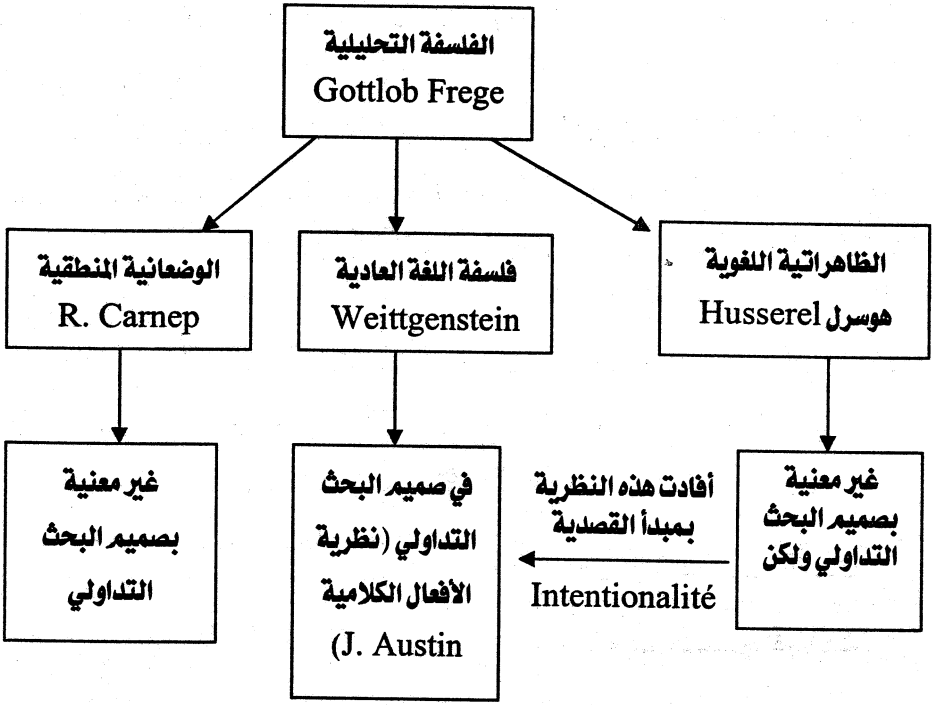

وبعد أن قمنا بتقديم صورة موجزة عن المناخ الفكري العام الذي انبثقت من رحمه هذه النظرية، نشير إلى أنه وحسب وجهة نظر كثير من الدارسين، تعد نظرية الفعل الكلامي[2] أهم جوانب التحليل التداولي، بل إنها " النواة المركزية "[3] للأعمال التداولية.

ميز جون أوستين J. L. Austin بين نوعين من الأقوال سالكا الطريق نفسه الذي

---

(1) المرجع نفسه، ص 24.

(2) يعد ج. ل. أوستين الواضع الحقيق لنظرية أفعال الكلام في مرحلة التأسيس -من خلال محاضراته في جامعة هارفاد وجامعة أوكسفورد في أواخر الخمسينات بعنوان: كيف نصنع الأشياء بالكلمات How to do things with words.

(3) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 40.

سلكه سلفه لودفيغ فتجنتستاين Wittgenstein فمنها ما يستعمل لوصف العالم وهذا النوع من الأفعال يمكن أن نحكم عليه بالصدق أو الكذب، وهناك أقوال لا تقرر واقعا ولا تصفه، كـ: الأمر/ الاستفهام/ الشكر/ الاعتذار، وهذه الأفعال يمكن الحكم عليها بمعيار التوفيق أو الإخفاق(1).

وبذلك تكون النصوص بأنواعها –في نظر فلاسفة أوكسفورد وغيرهم من التداوليين– سوى أفعال كلامية تنجز في طبقات مقامية مختلفة تهدف إلى وصف واقع أو تغييره.

تعد النصوص المقامية علامات لغوية قابلة للتداول، نتضمن أفعالا لغوية، وهي على ضربين (وصفية وإنشائية)(2).

ترتبط الأفعال اللغوية بنية منتج هذه النصوص وقصديته، فيكون الفعل اللغوي الكامل (حسب تصور أوستين) تأليفا يجمع بين مقصديه منتج النص والفعل اللغوي.

قدم أوستين تصنيفا للأفعال الكلامية، وقد قسمها حسب قوتها الإنجازية إلى:

- أفعال الأحكام Verdictives(3): تتمثل في حكم يصدره قاضي محكمة، أو هيئة معينة، أو حكم مباراة، وليس ضروريا أن تكون هذه الأحكام نافذة أو نهائية، فقد يكون هذا الحكم الصادر في صورة رأي أو حكما تقديريا، ومما يدل عليها الأفعال الآتية: يقدر، يحكم على، يبرئ، يشخص.
- أفعال القرارات Exercitives(4): وتتمثل في اتخاذ قرار معين، أو ممارسة سلطة تشريعية أو قانونية كالإذن والطرد، الحرمان، التعيين،... ومما يدل عليها الأفعال الآتية: يأذن، يطرد، يحرم، يعين،...

---

(1) آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم، ص 29، 30.

(2) بحثت ظاهرة الأفعال الكلامية في تراثنا العربي ضمن نظرية الخبر والإنشاء وإذا كان الغرب قد تناول هذه الظاهرة من زاوية فلسفية فإن العرب تناولوها من زاوية أخرى وهي الإفادة: ماذا يفيد الخبر والإنشاء في البيان؟ للاستزادة انظر مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 48. وانظر محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة البحث اللغوي المعاصر، ص 57.

(3) عبد الهادي ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 156.

(4) المرجع نفسه، ص ن.

*- أفعال التعهد Commissives[1]: والغاية منها هو أن يلزم المتكلم نفسه بإنجاز فعل معين، أي يتعهد بفعل شيء ما والأفعال المعبرة عنها هي: يعد، يضمن، يؤيد، يكفل،...

*- أفعال السلوك Behabitives[2]: وتعبر عن رد فعل لسلوك ما، والأفعال المعبرة عنه: يعتذر، يشكر، يواسي، يتحدى.

*- أفعال الإيضاح Expositives[3]: والهدف منها: تبرير وجهة نظر معينة، أو الإفصاح عن رأي وإثبات ذلك بالبراهين والحجج ومما يدل عليها الأفعال الآتية: أثبت، أنكر، ألاحظ، أشكك، أصوب،... وهذا الصنف من الأفعال يدخل ضمن نطاق " الحجاج والنقاش والتبرير "[4].

يقتضي إسقاط مفاهيم هذه النظرية (نظرية الأفعال الكلامية) على النماذج المقامية المختارة محاولة الإجابة على أسئلة كالتالي:

- كيف يمكن استثمار هذا المفهوم (الفعل الكلامي) أو جزئه الجوهري، وهو ما يعرف بـ " القوة المتضمنة في الفعل " في قراءة النماذج المقامية.
- وكيف تتحول النصوص المقامية إلى فعل كلامي مركزي؟
- وإذا حملت المقامات المختارة في طياتها فعلا مركزيا واحدا فما دلالة ذلك؟

ولنتأمل الآن المقامات المختارة، ونتعامل مبدئيا مع أول صنف للأفعال الكلامية كما قسمها أوستين.

1- **الأفعال الدالة على الأحكام** (أفعال الأحكام Verdictives) ومن أمثلتها ما ورد في المقامات الآتية:

---

(1) المرجع نفسه، ص ن.

(2) المرجع نفسه، ص ن.

(3) المرجع نفسه، ص ن.

(4) المرجع نفسه، ص ن. وللاستزادة انظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 46، ص 69، 70.

أ- تبرز في المقامة القريضية[1] مجموعة من الأحكام النقدية حول الشعراء وأشعارهم ينقد أبو الفتح امرئ القيس والنابغة، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وجرير، والفرزدق، والقدماء والمحدثين من الشعراء ولنبدأ بأولهم، أما عن امرئ القيس فيقول عنه:

«هُوَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ بِالدِّيارِ وَعَرَصَاتِهَا، وَاغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكَنَاتِهَا، وَوَصَفَ الْخَيلَ بِصِفَاتِهَا، وَلَمْ يَقُلِ الشِّعْرَ كَاسِياً. وَلَمْ يُجِدِ القَوْلَ رَاغِباً، فَفَضَلَ مَنْ تَفَتَّقَ لِلْحِيلَةِ لِسَانُهُ، وَانْتَجَعَ لِلرَّغْبَةِ بَنَانُهُ».

ثم سئل عن النابغة فقال: «يَثْلِبُ إِذَا حَنِقَ، وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ، وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهِبَ، فَلاَ يَرْمِي إِلاَّ صَائِباً».

ثم سئل عن زهير فقال: «قَالَ يُذِيبُ الشِّعرَ، والشعْرُ يُذيبَهُ، وَيَدعُو القَولَ وَالسِّحْرَ يُجِيبُهُ».

أما عن طرفة بن العبد فهو «مَاءُ الأَشْعَارِ وَطِينَتُها، وَكَنْزُ الْقَوَافِي وَمَدِينَتُهَا، مَاتَ وَلَمْ تَظْهَرْ أَسْرَارُ دَفَائِنِهِ وَلَمْ تُفْتَحْ أَغْلاَقُ خَزَائِنِهِ».

ثم سئل عن جرير والفرزدق وأيهما أسبق فأجاب قائلا: «جَرِيرٌ أَرَقُّ شِعْراً، وَأَغْزَرُ غَزْراً وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ صَخْراً، وَأَكْثَرُ فَخْراً وَجَرِيرٌ أَوْجَعُ هَجْواً، وَأَشْرَفُ يَوْماً وَالْفَرَزْدَقُ أَكْثَرُ رَوْماً، وَأَكْرَمُ قَوْماً، وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى، وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى، وَإِذَا مَدَحَ أَسْنَى، وَالْفَرزدقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى، وَإِذَا احْتَقَرَ أَزْرَى، وَإِذا وصَفَ أَوفَى...»[2].

ب- يروي عيسى بن هشام في المقامة الشعرية[3]:

«وَلَمَّا نَفَضْنَا الكَنَائِنَ، وَأَفْنَيْنَا الخَزَائِنَ، عَطَفَ عَلَيْنَا سائِلاً، وَكَرَّ مُبَاحِثاً، فَقَالَ: عَرِّفُونِي أَيُّ بَيْتٍ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وَشَطْرُهُ يَدْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ يَصْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَغْضَبُ، وَنِصْفُهُ يَلْعَبُ؟... قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَعَلِمْنَا أَنَّ المَسَائِلَ، لَيْسَتْ عَواطِلَ، وَاجْتَهَدْنَا، فَبَعْضَها وَجَدْنا، وَبَعْضَها اسْتَفَدْنا، فَقُلْتُ عَلى أَثَرِهِ وَهُوَ عَادٍ (من مجزوء المتقارب):

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 07.

(2) المرجع نفسه، المقامة القريضية، ص 09.

(3) المرجع نفسه، ص 252.

تَفَاوَتَ النَّاسُ فَضْلاً وَأَشْبَهَ البَعْضُ بَعْضَا

لَوْلاهُ كُنتُ كَرَضْوَى طُولاً وَعُمْقاً وَعَرْضَا

ج- يقول بديع الزمان على لسان بطله في نقد الجاحظ: «إنَّ الجَاحِظَ في أَحَدِ شِقَّيِ البَلاَغَةِ يَقْطِفُ، وفِي الآخَرِ يقَفُ، والبَلِيغُ مَنْ لَمْ يُقَصِّرْ نَظْمُهُ عَنْ نَثْرِهِ، ولَمْ يُزْرِ كَلامَهُ بِشِعْرِهِ، فَهَل تَرْوُونَ للْجاحِظِ شِعْراً رائِعاً؟ قُلْنَا: لاَ»(1).

تعبر أفعال الأحكام -في هذه النماذج المختارة- عن آراء نقدية لبديع الزمان الهمذاني، حيث تكشف لغتها الأدبية المتميزة عن مقصدية المؤلف والمتمثلة في إبراز قدرته الأدبية، ومدى إلمامه بأشعار المتقدمين من الشعراء والمتأخرين منهم من خلال تفاعله الإيجابي مع التراث العربي القديم.

يتستر وراء النظام اللغوي للمقامة المضيرية أحكام لأفعال إنجازية عبرت عنها الألفاظ الآتية: {وقف، اغتدى، وصف، تفتق، انتجع، حنق، لم يقل، لم يجد، لا يرمي، لم تظهر،...}.

اختار الكاتب هذه الصيغ لتخدم أغراضه ومقاصده، وقد ورد بعضها مثبتا (وقف، اغتدى) وبعضها منفيا (لا يرمي، لم يظهر)، إذ تحيل دلالة هذه الأفعال إلى نوع من الموازنة والمفاضلة؛ فبواسطة هذه الوسيلة اللغوية يمكن لبديع الزمان أن يميز جيد الشعر من رديئه، ويفاضل بين الشعراء كل حسب مقدرته وبراعته في النظم، ولنتأمل قوله: «وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى، وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى، وَإِذَا مَدَحَ أَسْنَى، وَالْفَرزدقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى، وَإِذَا احْتَقَرَ أَزرَى، وَإِذا وصَفَ أَوفَى...».

فإذا كان للفرزدق غزارة في معانيه فغزارة جرير أعلى من غزارة الفرزدق، وإن كان جرير يلهب الأفئدة بغزله، فإن الفرزدق إذا وصف أوفى الموصوف ما يستحقه من الوصف، وهكذا يستمر في مفاضلته للشعراء.

يستعمل الهمذاني الصيغ الآتية: (أشجى، أردى، أسنى، أجزى، أزرى، أوفى،...) وهي

(1) المرجع نفسه، المقامة الجاحظية، ص 87.

كلها على وزن واحد (أفعل) للموازنة بين جرير والفرزدق والمخطط الآتي يكشف عن ذلك:

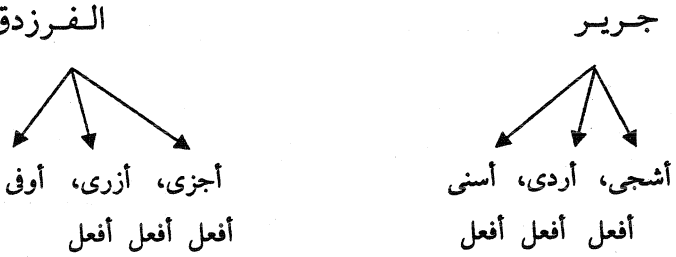

يتناسب الحضور القوي لهذه الصيغة (أفعل) في المقامة القريضية مع مقصدية مؤلف المقامات، إذ تعد وسيلة لغوية مهمة استعان بها الهمذاني للحكم على الشعر والفصل بين الشعراء.

وتتضمن المقامة الشعرية أحكاما نقدية تصور لونا من ألوان النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري.

وردت هذه الأحكام في صورة ألغاز وأسئلة محيرة تخدم غرضا تعليميا[1] يقول الهمذاني على لسان أبي الفتح الاسكندري «عَرِّفُونِي أَيُّ بَيْتٍ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وَشَطْرُهُ يَدْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ يَصْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَغْضَبُ، وَنِصْفُهُ يَلْعَبُ؟...» وردت الصيغة (أي بيت) من بداية هذه المقامة تقريبا إلى نهايتها لتحكم سيطرتها على النسيج اللغوي لهذا النص، بمجموع يقدر بـ (خمس وخمسين بنية متشابهة) إن توالي هذه التركيبة اللغوية يوحي بتشابه الأسلوب، مما يعكس مدى ترابط الأجزاء المشكلة لنص المقامة الشعرية.

تضمنت هذه البنيات اللغوية المتشابهة عدة أفعال، شكلت لبنة أساسية في تكوين الجمل والأساليب، وقد دلت هذه الأفعال على أزمنة مختلفة تتراوح بين الماضي والمضارع والأمر.

---

(1) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 99.

نستخرج من الأمثلة السابقة أفعال الأحكام لنثبت مدى فعاليتها في التعبير عن مقاصد بديع الزمان:

اسم المقامة	صيغة الماضي	صيغة المضارع	صيغة الأمر
المقامة القريضية	وقف، اغتدى، وصف، تفتق، انتجع، حنق، رغب، رهب، نسب، أشجى، ثلب، أردى، افتخر، أجزى، احتقر، أزرى، وصف، أوفى.	لم يقل، لم يجد، يثلب، يعتذر، لا يرمي، يجيب، يذيب، يدعو، لم تظهر، لم تفتح.	/
المقامة الشعرية	نفضنا، أفنينا، عطف، كر، علمنا، اجتهدنا، وجدنا، استفدنا، قلت، تفاوت، أشبه، كنت.	يرفع، يدفع، يصفع، يغضب، يلعب.	عرفوني
المقامة الجاحظية	قلنا، سمعتم.	يقطف، يقف، لم يقصر، لم يزر، تروون، يستعمله، يهمله.	هلموا

تنوعت أزمنة الأفعال في الأمثلة السابقة، يبرز الفعل الماضي بمجموع يقدر باثنين وثلاثين فعلا، والفعل المضارع باثنين وعشرين فعلا، والأمر بمجموع أقل يقدر بفعلين.

يوضح المخطط الآتي هذا التفاوت الزمني:

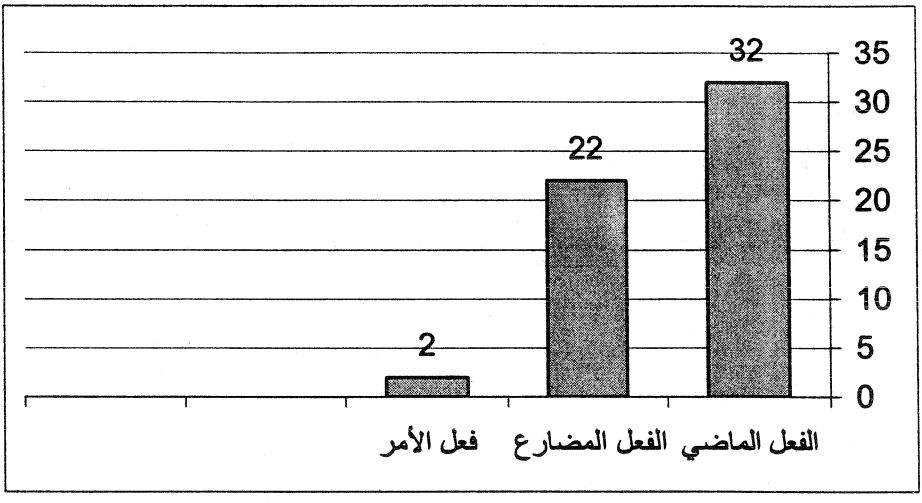

وردت أغلب الأفعال -بصيغة الماضي- لتفيد وصف وتقرير قضايا نقدية كانت متداولة في ذلك العصر.

يحضر الفعل المضارع بنسبة أقل مقارنة بالفعل الماضي، وقد اقترنت بعض هذه الأفعال إما بلام النافية (لا يرمي) وإما بلم النافية والجازمة (لم يقصر، لم يزر، لم يقل، لم يجد...).

وتعبر الأفعال المضارعة الواردة في المقامة الجاحظية عن دعوة غير صريحة، متخفية وراء النسيج اللغوي لهذا النص، ومرتبطة بمقصدية بديع الزمان الهمذاني، إنه يدعو -ومن خلال هذه الحكميات- إلى ضرورة العناية بأسلوب الصنعة، هذا التوجه الجديد في الكتابة، شغف به الأدباء شغفا كبيرا في القرن الرابع الهجري، بل وفي القرون التي تلته إلى حد الإفراط والمبالغة.

ومن ثم نجده يعيب على الجاحظ اعتماده الأسلوب المباشر، العاري (المجرد) من الاستعارات والكنايات، وغير المثقل بالمحسنات البديعية.

ومن هنا تتضح مقاصد الهمذاني أكثر، إنه يريد أن يثبت مقدرته الأدبية في امتلاك جوامع الكلم من شعر ونثر، فإذا كان الجاحظ في النثر يقطف وفي الشعر يقف فإن البليغ هو

الذي «لَمْ يُقَصِّرْ نَظْمُهُ عَنْ نَثْرِهِ، ولَمْ يُزْرِ كَلامَهُ بِشِعْرِهِ»[1].

إنه -وبهذا الكلام- يعلي من شأن نفسه، إذ وصف حاله على لسان بطله في المقامة المضيرية[2]: «رَجُلُ الفَصَاحَةِ يَدْعُوهَا فَتُجِيبُهُ، وَالبَلاغَةِ يَأْمُرُهَا فَتُطِيعُهُ».

بنسبة تقدر بـ (6.46٪) تسجل الحكميات حضورها في النماذج المقامية المختارة لتعبر عن قضايا نقدية وأدبية كانت متداولة في العصر العباسي، وقد أوردها الكاتب لتخدم غرضا تعليميا، ولتبرز مقدرته الأدبية والنقدية معا.

2- أفعال القرارات Exercitives ومن أمثلتها ما ورد في المقامات الآتية:

أ- المقامة الساسانية (من مجزوء الرمل):

يـــا فَاضِـــلاً قَـــدْ تَبَـــدَّى ... كَأَنَّـــهُ الغُصْـــنُ قَـــدّاً
قَـــدِ اشْـــتَهى اللَّحْـــمَ ضِرْسِي ... فَاجْلِـــدْهُ بِـــالخُبْزِ جَلْـــداً
وامـــــنُنْ عـــــلَيَّ بِشَيءٍ ... واجْعَلْـــهُ لِلْوَقْـــتِ نَقْـــداً
أَطْلِـــقْ مِـــنَ اليَـــدِ خَصْراً ... واحْلُـــلْ مِـــنَ الكِيسِ عَقْـــدا
واضْـــمُمْ يَـــدَيْكَ لأَجْـــلي ... إِلَى جَنَاحِـــكَ عَمْـــداً

ب- المقامة المكفوفية[3] (من مجزوء الرمل):

زَجَّ الزَّمَـــانَ بَحُمْـــقٍ ... إِنَّ الزَّمَـــانَ زَبُـــونُ
لا تُكَـــذِّبَنَّ بِعَقْـــلٍ ... مـــا العَقْـــلُ إِلاَّ الجُنُـــونُ

ج- المقامة الكوفية[4] (من مجزوء الخفيف):

لاَ يَغُرَّنَّـــكَ الـــذِي ... أَنَـــا فِيـــهِ مِـــنَ الطَّلَـــبْ
أَنَـــا فِي ثَـــرْوَةٍ تُـــشَ ... قُّ لَهَـــا بُـــرْدَةُ الطَّـــرَبْ

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الجاحظية، ص 89.
(2) المرجع نفسه، ص 122.
(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 108.
(4) المرجع نفسه، ص 93.

د- المقامة الأذربجانية[1](من مجزوء الخفيف):

لاَ تَلُمْنِي لَكَ الرِّشَا دُ عَلَى كُدْيَتِي وذُقْ

هـ- المقامة الوعظية[2]:

«قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُلْتُ لِبَعْضِ الحَاضِرِينَ: مَنْ هَذا؟ قَالَ: غَرِيبٌ قَدْ طَرَأَ لاَ أَعْرِفُ شَخْصَهُ، فَاصْبِرْ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ مَقَامَتِهِ، لَعَلَّهُ يُنْبِئُ بِعَلاَمَتِهِ، فَصَبَرْتُ فَقَالَ: زَيِّنُوا العِلْمَ بِالعَمَلِ، وَاشْكُرُوا القُدْرَةَ بِالْعَفْوِ، وَخُذُوا الصَّفْوَ وَدَعوا الكَدَرَ، يَغْفِرِ اللهُ لِي وَلَكُمْ، ثُمَّ أَرَادَ الذَّهَابَ، فَمَضَيْتُ عَلى أَثَرِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ يَا شَيْخُ؟...».

و- المقامة الوصية[3]:

في هذه المقامة يقدم أبو الفتح الاسكندري مجموعة من الوصايا لابنه عندما جهزه للتجارة قال له: «يَا بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ وَثِقْتُ بِمَتَانَةِ عَقْلِكَ، وَطَهَارَةُ أَصْلِكَ، فَإِنِّي شَفِيقٌ، وَالشَّفِيقُ سَيِّئُ الظَّنِّ، وَلَسْتُ آمَنُ عَلَيْكَ النَّفْسَ وَسُلْطَانَهَا... فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِما نَهارَكَ بِالصَّوْمِ وَلَيْلَكَ بِالنَّوْمِ... إِنَّمَا التِّجَارَةُ، تُنْبِطُ المَاءَ مِنَ الحِجَارَةِ... إِنَّهُ المَالُ عَافَاكَ اللهُ فَلا تُنْفِقَنَّ إِلاَّ مِنَ الرِّبْحِ... ثُمَّ كُنْ مَعَ النَّاسِ كَلاعِبِ الشِّطْرَنْجِ: خُذْ كُلَّ مَا مَعَهُمْ، وَاحْفَظْ كُلَّ مَا مَعَكَ...».

ز- المقامة الأزادية[4]:

«قَالَ عِيسى بْنُ هِشَامٍ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ فِي الكيسِ فَضْلاً فَأَبْرُزْ لِي عَنْ بَاطِنِكَ أَخْرُجْ إِلَيْكَ عَنْ آخِرِهِ، فَأَمَاطَ لِثَامَهُ، فَإِذَا وَاللهِ شَيْخُنَا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَندريُّ، فَقُلْتُ: وَيْحَكَ أَيُّ دَاهِيَةٍ أَنْتَ؟».

تكشف أفعال القرارات في المقامات عن جانب آخر من شخصية بديع الزمان، فبالإضافة إلى براعته الأدبية والنقدية كما عبرت عن ذلك " الحكميات ".

نلمس براعة ومقدرة أخرى أفصحت عنها الإنفاذيات نكشف عنها من خلال تحليل

---

(1) المرجع نفسه، ص 29.

(2) المرجع نفسه، ص 52.

(3) المرجع نفسه، ص 151.

(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 12.

الأمثلة السابقة:

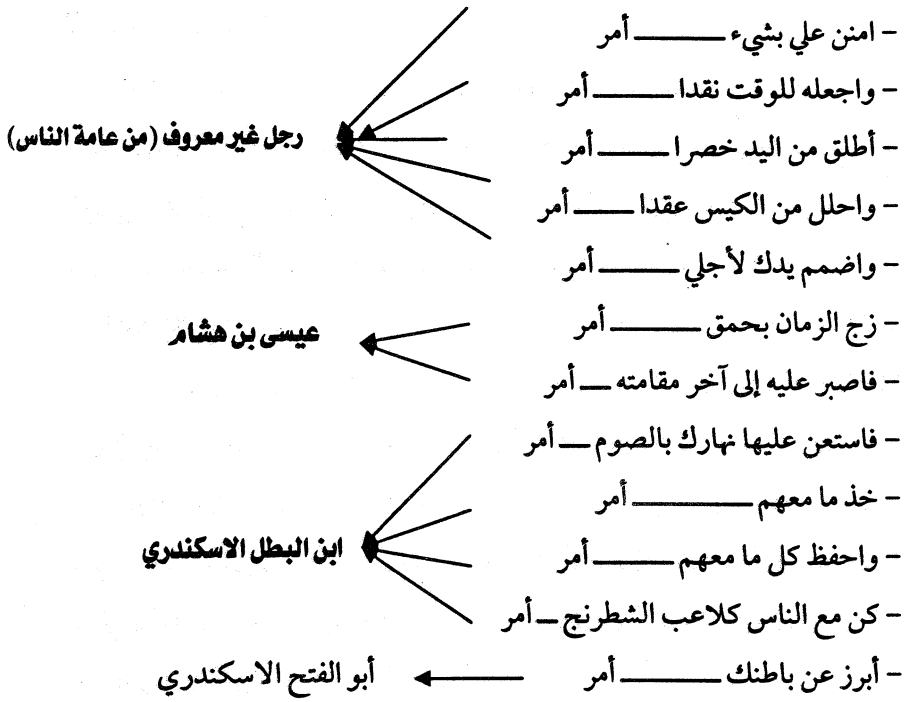

تبتدئ الجمل الفعلية المتتالية بفعل أمر موجه إلى مخاطب، يختلف باختلاف المكان، والزمان، والأحداث، والظروف.

والمتأمل للأفعال الآتية {امنن، اجعله، احلل، اضمم...}، يجد أنها تبرز ملمحا آخر من ملامح بطل المقامات، الذي يتخذ من براعته الأسلوبية وسيلة للتكدي، والاحتيال على الناس، إذ عنيت أفعال القرار بإبراز جانب من السلوكات اللاأخلاقية، تتعلق بشخصية الأديب المكدي، وإن كانت ملامح هذه الشخصية، هي انعكاس في الواقع لشخصية بديع الزمان نفسه، الذي عانى كثيرا من شظف العيش، وقساوة الحياة رغم تفوقه على أقرانه.

تنحرف إذا الإنفاذيات عن إطار الطلب المباشر (التسول الذي عبر عنه الفعل امنن خاصة)، إلى إطار التعليل والتبرير لهذه السلوكات، والتصرفات الصادرة عن البطل دون

اختيار منه، حيث يقدم لنا في مواضع أخرى سلسلة من الأوامر والنواهي ضمن أساليب إنشائية متتالية، تعمل على تبرير مواقفه، وتوضح فلسفته في الحياة،ولنتأمل الأفعال الإنفاذية الآتية:

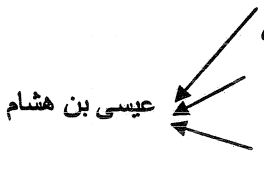

- لا تنفقن إلا من الربح..... ــــــــ لا تنفقن ــ نهي ــــــــ ابن البطل الاسكندري

إن هذه الإلزاميات ليست موجهة لشخص محدد –الراوي عيسى بن هشام- راوي المقامات، بل هي موجهة لكل قارئ في كل مكان وزمان، لتعبر عن فلسفة بديع الزمان في الحياة، وتبرر أساليبه في التكدي، والاحتيال، وابتزاز أموال الناس.

يقول الهمذاني (من مجزوء الرمل):

لا تُكَذِّبَنَّ بِـعَـقْـلٍ ما العَقْلُ إلاَّ الجُنُونُ

لا يجد الهمذاني من يحمله مسؤولية تصرفاته سوى الزمان، ولذلك عبر في موضع آخر فقال " لا تلمني " إنه مدفوع دفعا إلى ممارسة هذه السلوكات اللاأخلاقية.

لقد زج به الزمان لانتهاج مثل هذه الأساليب غير المشروعة في الكسب، إنه زمان أحمق لا يعترف بأصحاب العلم، إنما يقيم وزنا للممخرقين، والمجانين، والمتسولين، والمستهترين الماجنين (وقد تظاهر البطل بكل هذه الصفات وبغيرها في المقامات)، حتى يقابل حمق الزمان بحمقه.

يحشد صاحب المقامات في هذا الصنف من الأفعال الكلامية، أساليب إنشائية تتضمن عديدا من الجمل والأفعال بصيغها الثلاث، لتناسب المعاني التي يقصدها، وهي تعد في الوقت نفسه، مواد ضرورية في تشكيل النسيج اللغوي للمقامات.

تحضر أفعال القرار في هذه الأمثلة بنسب متفاوتة، وهو ما يوضحه الجدول الآتي:

اسم المقامة	صيغة الماضي	صيغة المضارع	صيغة الأمر
المقامة الساسانية	تبدي – اشتهى.	/	إجلده، امـنن، أطلـق، إجعل، احلل، اضمم.
المقامة المكفوفية	/	تكذبن.	زج.
المقامة الكوفية	/	يعرنك، تشقق.	/
المقامة الأذربجانية	/	تلمني.	ذق.
المقامة الوعظية	قلـت، قـال، طـرأ، أراد، مضيت، قلت.	أعرف.	اصبر.
المقامة الوصية	وثقت، لست.	أمن، تنبط، تنفقن.	اسـتعن، كـن، خـذ، احفظ.
المقامة الإذربيجانية	قلت، أماط، قلت.	أخرج.	أبرز

بلغ في الأمثلة السابقة من أفعال القرارات، عدد الأفعال الماضية ثلاثة عشر فعلا، والمضارعة تسعة أفعال، وأفعال الأمر بمجموع يقدر بـ أربعة عشر فعلا، ويتضح التفاوت بين هذه الأزمنة أكثر من خلال هذا الرسم البياني:

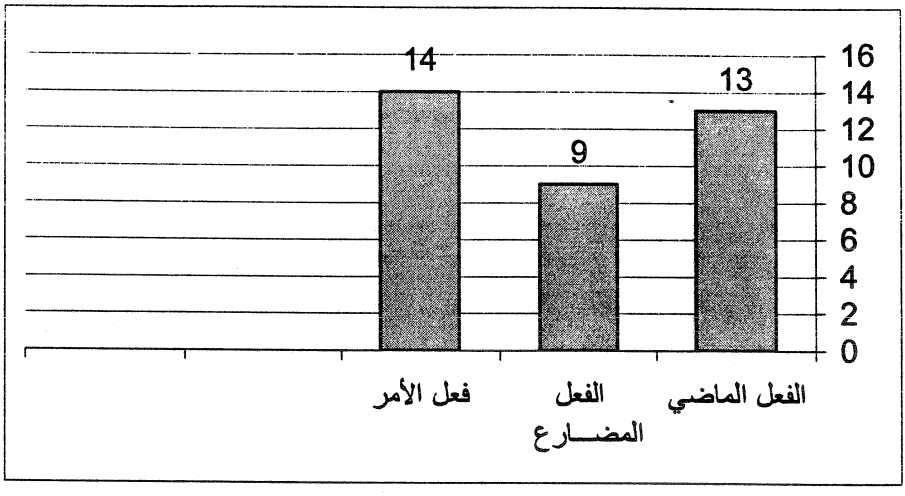

إن الجامع المشترك بين هذه الصيغ الثلاث، هو خدمة مقاصد صاحب المدونة فإذا كان الأمر قد وظف على سبيل الإلزام المباشر، وقد عبرت عن ذلك الأفعال (الإنجازية) الآتية:

امنن
احلل
وهي أفعال تعبر عن الطلب (التكدي).

فإن النهي والذي مثله (الفعل المضارع المقترن بلام الناهية لاَ تَلُمْنِي، لاَ تُكَذِّبَنِ)، وظف ليبرر بعض السلوكات اللاأخلاقية التي كان يمارسها البطل للوصول إلى مآربه وهذا يتفق مع المبدأ الشهير" الغاية تبرر الوسيلة ".

وأما الطائفة الأخرى من هذه النواهي فقد وظفت لغرض النصح والإرشاد، كما يتضح ذلك في المقامة الوعظية/ المقامة الوصية (لا تغفل، لا تطلب...) أما الفعل الماضي فقد وظف لخدمة غرض السرد، من وصف للمكان والزمان والأشخاص، وتقرير الوقائع ونقل الأخبار.

وبهذا تكون الإنفاذيات قد أحكمت سيطرتها على النسيج اللغوي للمقامات المختارة بنسبة تقدر بـ 30.20٪ وهي نسبة معتبرة مقارنة بالنسب الأخرى.

3- أفعال الإيضاح: ومن أمثلتها ما ورد في المقامات الآتية:

أ- المقامة العلمية[1]: يوضح بديع الزمان الهمذاني في هذه المقامة سبل نيل العلم فيقول: «... فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَقُولُ لآخَرَ: بِمَ أَدْرَكْتَ العِلْمَ؟ وَهُوَ يُجِيبُهُ، قَالَ: طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ بَعِيدَ المَرَامِ، لا يُصْطَادُ بِالسِّهَامِ، وَلا يُقْسَمُ بالأَزْلامِ، وَلا يُرَى فِي المَنَامِ، وَلا يُضْبَطُ بِاللِّجَامِ، وَلا يُورَثُ عَنِ الأَعْمَامِ، وَلا يُسْتَعَارُ مِنَ الكِرَامِ، فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ بافْتِرَاشِ المَدَرِ، وَاسْتِنَادِ الحَجَرِ، وَرَدِّ الضَّجَرِ، وَرُكُوبِ الخَطَرِ، وَإِدْمَانِ السَّهَرِ، وِاصْطِحَابِ السَّفَرِ، وَكَثْرَةِ النَّظَرِ، وَإِعْمَالِ الفِكَرِ، فَوَجَدْتُهُ شَيْئاً لا يَصْلُحُ إِلاَّ لِلْغَرْسِ، وَلاَ يُغْرَسُ إِلاَّ بالنَّفْسِ، وَصَيْداً لاَ يَقَعُ إِلاَّ فِي النَّدْرِ، وَلا يَنْشَبُ إِلاَّ فِي الصَّدْرِ، وَطَائِراً لا يَخْدَعُهُ إِلاَّ قَنَصُ اللَّفْظِ، وَلاَ يَعْلَقُهُ إِلاَّ شَرَكُ الحِفْظِ، فَحَمَلْتُهُ عَلى الرُّوحِ، وَحَبَسْتُهُ عَلى العَينِ. وَأَنْفَقْتُ مِنَ العَيْشِ، وَخَزَنْتُ فِي القَلْبِ، وَحَرَّرْتُ بِالدَّرْسِ، وَاسْتَرَحْتُ مِنَ النَّظَرِ إِلى التَّحْقِيقِ، وِمِنَ التَّحْقِيقِ إِلى التَّعْلِيقِ، وِاسْتَعَنْتُ فِي ذَلِكَ بالتَّوْفِيقِ».

ب- المقامة الوصية[2]: يقول أبو الفتح الاسكندري وهو يوصي ابنه: «وَدَعْنِي مِنْ قَوْلِهِمْ " إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ " إِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِّي عَنِ اللَّبَنِ، بَلَى إِنَّ اللهَ لَكَرِيمٌ، وَلَكِنَّ كَرَمَ اللهِ يَزِيدُنَا وَلا يَنْقُصُهُ، وَيَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّهُ، وَمَنْ كَانَتْ هذِهِ حَالُهُ، فَلْتَكْرُمْ خِصَالُهُ، فَأَمَّا كَرَمٌ لا يَزِيدُكَ حَتَّى يَنْقُصِنِي، وَلا يَرِيشُكَ حَتَّى يَبْرِيَنِي، فَخِذلاَنٌ لا أَقُولُ عَبْقَرِيٌّ، وَلَكِنْ بُقَرِيٌّ. أَفَهِمْتَهُمَا يَا ابْنَ المَشْؤُومَةِ؟...».

ج- المقامة المضيرية[3]: يوضح أبو الفتح الاسكندري سبب امتناعه عن أكل المضيرة من خلال قصة طويلة نذكر منها هذا الجزء فقط يقول أبو الفتح: «دَعَانِي بَعْضُ التُّجَّارِ إِلَى مَضِيرَةٍ وَأَنَا بِبَغْدَادَ، وَلَزِمَنِي مُلاَزَمَةَ الغَرِيمِ، وَالكَلْبِ لأَصْحَابِ الرَّقِيمِ... فَجَعَلَ طُولَ الطَّرِيقِ يُثْنِي عَلَى زَوْجَتِهِ، وَيُقَدِّمُهَا بِمُهْجَتِهِ... قَالَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ فَجَاشَتْ نَفْسِي وَقُلْتُ قَدْ بَقِيَ الخُبْزُ وَآلاتُهُ وَالخُبْزُ وَصِفاتُهُ... وَهذَا خَطْبٌ يَطُمُّ، وأَمْرٌ لا يَتِمُّ... وَخَرَجْتُ نَحْوَ البَابِ،

---

(1) المرجع نفسه، ص 230.

(2) المرجع نفسه، ص 233.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 122.

وَأَسْرَعْتُ فِي الذَّهَابِ... وَظَنَّ الصِّبْيَانُ أَنَّ المَضِيرَةَ لَقَبٌ لِي فَصاحُوا صِياحَهُ، فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمْ بِحَجَرٍ، مِنْ فَرْطِ الضَّجَرِ... وَحُشِرْتُ إِلَى الحَبْسِ، فَأَقَمْتُ عامَيْنِ فِي ذلكَ النَّحْسِ، فَنَذَرْتُ أَنْ لا آكلَ مَضِيرَةً ما عِشْتُ، فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَالَهَمْدَانَ ظَالِمٌ؟. قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقَبِلْنَا عُذْرَهُ، وَنَذَرْنَا نَذْرَهُ...».

د- المقامة الوعظية[1]: يقول أبو الفتح الاسكندري وهو يعظ الناس: «... وَالنَّاسُ رَجُلاَنِ: عَالِمٌ يَرْعَى، وَمُتَعَلِّمٌ يَسْعَى، وَالبَاقُونَ هامِلُ نَعامٍ، وَرَاتِعُ أَنْعَامٍ، وَيْلُ عَالٍ أُمِرَ مِنْ سَافِلِهِ، وَعَالِمٍ شَيْءٍ مِنْ جاهِلِهِ».

هـ- المقامة الأهوازية[2]: يعظ أبو الفتح الاسكندري عيسى وأصحابه يقول: «مَا لكُمْ... وَتَتَقَذَّرُونَ سَرِيراً وَطِئَهُ آبَاؤُكُمْ، وَسَيَطؤُهُ أَبْنَاؤُكُمْ... هَلْ تَنفَعُ هَذِهِ الطِّيَرُ، يا فَجَرَةُ؟...».

و- المقامة الشيرازية[3]: «قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُلْتُ: أَنْتَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ؟ فَقَالَ: أَنا ذَاكَ، فَقُلْتُ: شَدَّ مَا هُزِلْتَ بَعْدِي !... فانْفُضْ إِلَيَّ جُمْلَةَ حالِكَ، وَسَبَبَ اخْتِلاَلِكَ...»

ز- يقول أبو الفتح في المقامة القزوينية[4]: «... وَلِكُلٍّ مِنِّي سَهْمَانِ: سَهْمٌ أُذَلِّقُهُ لِلِّقَاءِ وآخَرُ أُفَوِّقَهُ بِالدُّعَاءِ، وَأَرْشُقُ بِهِ أَبْوابَ السَّمَاءِ، عَنْ قَوْسِ الظَّلْمَاءِ».

الكثير من المقامات تقتضي الإيضاح، والتبيين وهو أسلوب توخاه الهمذاني للاقناع والتأثير في جمهور المستمعين، وقد اعتمد على العبارات السهلة، والجمل القصيرة الموجزة المحكمة السبك، التي تنزع إلى " التركيب النحوي السهل"[5] وقد حفلت هذه الجمل بالتأكيد والحض وذلك بكثرة استعمال أساليب التوكيد: إن، واللام، وحرف الشرط من، وأدوات القصر (ما،... إلا،...) من مثل قوله:

- إن الله كريم... إنها خدعة الصبي.

---

(1) المرجع نفسه، ص 151.

(2) المرجع نفسه، ص 67.

(3) المرجع نفسه، ص 193.

(4) المرجع نفسه، ص 102

(5) عمر عبد الواحد: السرد والشفاهية، ص 169.

- من كانت هذه حاله فلتكرم خصاله.

- فوجدته شيئا لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا في النفس.

- لا يصطاد... ولا يقسم... ولا يرى... ولا يضبط.

ولما كانت المقامات في جملتها تصويرا لأحوال الناس عامة، وظروف معيشتهم في ذلك العصر خاصة، بات الإيضاح المسلك الأوحد لتفسير قضايا كثيرة تتعلق بشؤون حياتهم.

تعددت أفعال الإيضاح في المقامات المختارة، وتعددت أزمنتها لتشمل (الماضي، المضارع، الأمر) والجدول الأتي يوضح ذلك:

اسم المقامة	صيغة الماضي	صيغة المضارع	صيغة الأمر
المقامة العلمية	طلبت، وجدت، توسلت، وجدت، استعنت.	يصطاد يقسم، يرى، يضبط، يورث، يستعار، يصلح، يغرس.	-
المقامة الوصية	كانت، فهمت.	يزيد (2)، ينقص (2)، ينفع، يضر، يبري، يريش.	دعني، فلتكرم.
المقامة المضيرية	دعا، لزم، جعل، جاشت، قلت، بقي، خرجت، أسرعت، ظن، صاحوا، رميت، حشرت، أقمت نذرت، قبلنا، نذرنا.	يثني، يغدعها، يطم، يتم.	-
المقامة الوعظية	أمر	يرعى، يسعى	-
المقامة الشيرازية	قلت، هزلت	-	فانقض
المقامة الدينارية	-	أعطيه	-
المقامة القزوينية	-	أذلقه، أفوقه، أرشق	-

وسنوضح هذا التفاوت الزمني أكثر من خلال هذا الرسم البياني:

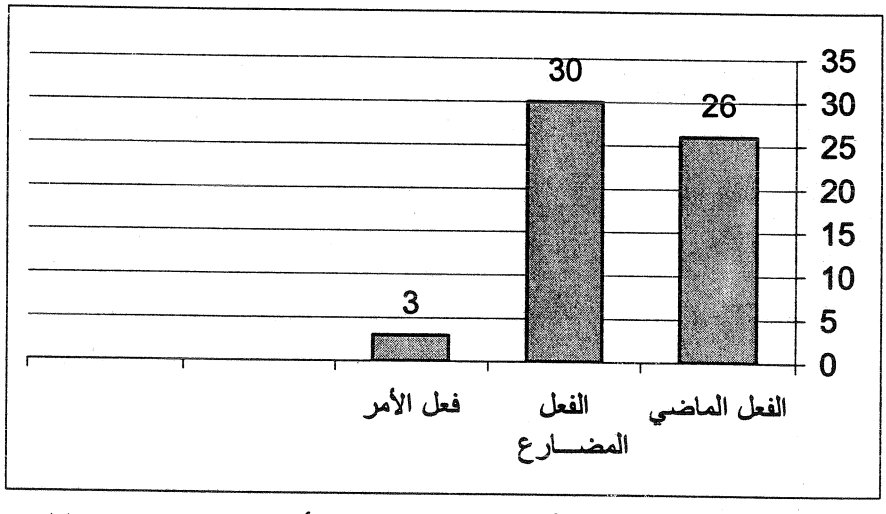

تحضر الأفعال الدالة على الأمر بمجموع يقدر بثلاثة أفعال فقط، وهي نسبة قليلة جدا مقارنة ببقية الأفعال.

طغى الفعل المضارع بمجموع يقدر بثلاثين فعلا، والماضي بستة وعشرين فعلا، إذ تحيل صيغ الفعل المضارع إلى قضايا متنوعة (علمية، اجتماعية، دينية) كما يتضح من الأمثلة السابقة، ومواقف مختلفة يكون البطل بصدد شرحها أو تبيين وجهة نظره فيها، كما هو الشأن مثلا في المقامة العلمية حيث استعمل الفعل المضارع المنفي (لا يصطاد، لا يقسم، لا يرشد،...). وقد دل الفعل الماضي (توسلت) أيضا في هذه المقامة على الشرح والتوضيح ولنتأمل المثال الآتي:

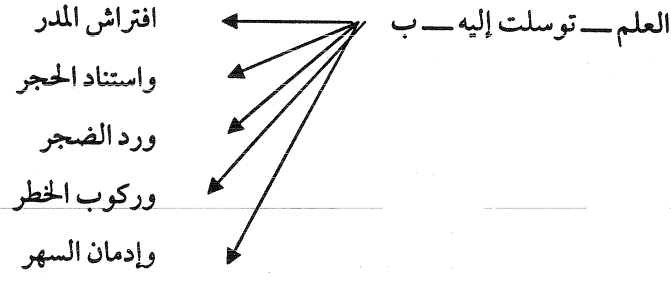

إن سبل العلم وعرة، ومسالكه صعبة، ويتطلب من التضحية ما يتطلب، يحيل الفعل " توسلت " الذي ورد على لسان أبي الفتح الاسكندري إلى شخصية بديع الزمان الهمذاني -مؤلف المقامات- باعتبار أن شخصية البطل هي الموازي الحقيقي لشخصية بديع الزمان.

إنه يعبر عن لسان بطله مدى معاناته في تحصيل «العلم باللغة وأساليبها والأدب وفنونه وتاريخه...»[1].

وهو القائل على لسان عيسى بن هشام: «... كانَ يَبْلُغُنِي مِنْ مَقَامَاتِ الإِسْكَنْدَرِيِّ وَمَقَالاتِهِ مَا يَصْغَى إِلَيْهِ النُّفُورُ، وَيَنْتَفِضُ لَهُ العُصْفُورُ...»[2].

إنه يخص نفسه بهذا الكلام، وما بلغه من شهرة طبقت الآفاق في مجال الإبداع الأدبي.

وهكذا يستمر في الإيضاح والتبيين في باقي النماذج من مثل قوله في المقامة الوعظية:

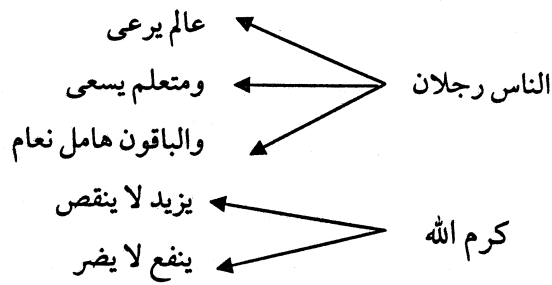

تدل صيغة الماضي في الأمثلة السابقة على الإيضاح (توسلت...) إلى جانب وصف الوقائع، وسرد الأحداث، وهو ما يتناسب وطبيعة النصوص السردية.

تشير حركة الأفعال بصيغها الثلاث الماضي، المضارع، الأمر، داخل النماذج المختارة إلى طغيان الجمل الفعلية على حساب الأنواع الجملية الأخرى، لما تقتضيه طبيعة هذه النصوص من إبراز للحركات والسلوكات والأفعال الصادرة عن البطل؛ يوضح الجدول الآتي ذلك:

---

(1) أيمن بكر: السرد في مقامات الهمذاني، ص 83 وص 84.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الأسدية، ص 35.

أفعال الإيضاح			
اسم المقامة	الجمل الفعلية		
	الجمل التقريرية	الجمل المنفية	الجمل الاستفهامية
المقامة العلمية	- طلبته فوجدته بعيد المرام - استرحت من النظر - واستعنت بالتوفيق	- لا يصطاد بالسهام - ولا يقسم بالأزلام - ولا يرى في المنام - ولا يضبط باللجام - ولا يورث عن الأعمام - ولا يستعار من الكرام	بم أدركت العلم؟
المقامة الوصية	-	- كم الله يزيد ولا ينقص - ينفعه ولا يضره - وينفعنا ولا يضره - لا يزيدك... - ولا يري شيء حتى يريني - لا أقول عبقري...	أفهمتها يا ابن المشؤومة؟
المقامة المضيرية	- دعاني بعض التجار... - لزمني ملازمة الغريم... - جعل طول الطريق... -... على زوجته - ويفديها بمهجته - فجاشت نفسي...	فنذرت أن لا آكل مضيرة.	فهل أنا في ذا يا آل همذان ظالم؟

	- وقلت: أبقي الخبر... - خرجت نحو الباب - أسرعت في الذهاب		
المقامة الأهوازية	- تتقذرون سريرا وطئه آباؤكم - وسيطأ أبناؤكم	-	ما لكم تطيرون من... ركبها أسلافكم...؟ هل تنفع هذه الطيرة يا فجرة؟
المقامة الشيرازية	فقلت: أشد ما هزلت بعدي	-	أنت أبو الفتح الإسكندري؟ فانفض لي جملة حالك وسبب احتلالك؟
المقامة الدينارية	-	-	يا بني ساسان أيكم أعرف بسلعته وأشحذ في صنعته فأعطيه الدينار؟

سيطرت أفعال الإيضاح على النسيج اللغوي للمقامات بنسبة 51.56٪، فإذا كان المقصد الأول لبديع الزمان الهمذاني هو التعبير عن قدراته الأدبية والنقدية؛ وإبراز التناقضات الموجودة في مجتمعه، ومعالجة قضايا تخص حياة الناس، فإن ذلك يستلزم خطابا واضحا ومقنعا ومؤثرا في الوقت نفسه، ولا يتأتى له ذلك إلا باستخدام الأساليب التوضيحية من أفعال وأدوات لغوية وغيرها...

4- أفعال السلوك Behatitives: ومن أمثلتها في المقامات:

أ- المقامة المكفوفية[1]: قال عيسى بن هشام: «فَرَقَّ لَهُ واللهِ قَلْبِي، وَاغْرَوْرَقَتْ لَهُ عَيْنِي، فَنُلْتُهُ ديناراً كانَ مَعِي...».

ب- المقامة الصفرية[2]: قال عيسى بن هشام: «فَعَجِبْتُ مِنْ إِيرَادِهِ، وَلُطْفِهِ فِي سُؤَالِهِ...».

ج- المقامة الخمرية[3]: يقول عيسى بن هشام: «فَقُلْنَا: سُبْحَانَ الله ! رُبَّمَا أَبْصَرَ عِمِّيتٌ، وَآمَنَ عِفْرِيتٌ، وَالحَمْدُ لله لَقَدْ أَسْرَعَ فِي أَوْبَتِهِ، وَلا حَرَمَنَا اللهُ مِثْلَ تَوْبَتِهِ، وَجَعَلنَا بَقِيَّةَ يَوْمِنَا نَعْجَبُ مِنْ نُسْكِهِ...».

د- المقامة القردية[4]: يقول عيسى بن هشام: «وانْتَفَضَ المَجْلِسُ عَنْ أَهْلِهِ، قُمْتُ وَقَدْ كَسَانِي الدَّهَشُ حُلَّتَهُ، وَوَقَفْتُ لأَرَى صُورَتَهُ، فَإِذا هُو واللهِ أَبو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ...».

وردت السلوكيات في المقامات المختارة بنسبة 9.89٪ لتعبر عن ردود فعل الراوي عيسى بن هشام تجاه السلوكات المتناقضة لأبي الفتح الإسكندري الذي يبدو في المقامة الخمرية تقيا ورعا، وإماما مجدا في ركوعه وسجوده فيعجب الراوي من شدة ورعه واستقامته، وإذا به يبدو في نهاية المقامة ماجنا مستهترا ويظهر تعاطف الراوي عيسى بن هشام كثيرا مع بطل المقامات الذي يبدو في أغلب هذه النصوص أديبا مكديا فيعجب ببلاغته، وينتفض انتفاضة العصفور لفصاحته، وقد ظهر هذا التعاطف في قوله: «فَرَقَّ لَهُ واللهِ قَلْبِي، وَاغْرَوْرَقَتْ لَهُ عَيْنِي، فَنُلْتُهُ ديناراً كانَ مَعِي...»، وقد عبرت عن ذلك أفعال السلوك بصيغها المختلفة وهذا ما يوضحه الجدول الآتي:

---

(1) المرجع نفسه، ص 93.

(2) المرجع نفسه، ص 261.

(3) المرجع نفسه، ص 269.

(4) المرجع نفسه، ص 113.

صيغة الماضي	صيغة المضارع	صيغة الأمر
رق، اغرورقت، نلت، عجبت، عميت، آمن، أسرع، حرمنا، جعلنا، انتفض، قمت، كساني، وقفت.	تعجب، أرى	-

طغى الفعل الماضي على الأمثلة السابقة بمجموع يقدر بثلاثة عشر فعلا، وقد شكل حضورا قويا مقارنة بالفعل المضارع، وفعل الأمر.

تحيل أغلب الأفعال الماضية إلى شخصية الراوي عسى بن هشام من مثل قوله: أقمت، كساني، حرمنا... لتعبر عن موقفه من التصرفات المتناقضة للبطل الذي يبدو في المقامات بهذه المتناقضات:

إمام ≠ عربيد، أديب بارع ≠ مكد محتال، واعظ ≠ ماجن لوطي الخ...

وهذه السلوكات تعكس المتناقضات الموجودة في مجتمع الأديب نفسه.

5- أفعال التعهد Commissives: ومن أمثلتها:

أ- المقامة الساسانية[1]: قال عيسى بن هشام: فنلته درهما وقلت له: قد آذنت بالدعوة وسنعد ونستعد ونجتهد ونجد، ولك علينا الوعد من بعد.

ب- المقامة المكفوفية[2]: قال عيسى بن هشام: «... وقلت واللهِ لَتُرَيِنِّي سِرَّكَ، أَوْ لأَكْشِفَنَّ سِتْرَكَ...».

ج- المقامة الأسدية[3]: يروي عيسى بن هشام على لسان الفتى(قاطع الطريق) «وَاللهِ لَيَشُدَّنَ كُلٌّ مِنْكُمْ يَدَ رَفِيقِهِ، أَوْ لأُغِصِنَّهُ بِرِيقِهِ...».

تحضر أفعال التعهد بنسبة قليلة جدا في النصوص المقامية قدرت بـ 1.69٪ وهذا يرجع إلى طبيعة، وخصوصية النصوص السردية، التي تعتمد أكثر على الوصف، والتقرير، والإخبار، وإيضاح وجهات النظر، وتبرير المواقف والسلوكات وغيرها...

تشتمل النصوص المقامية على طائفة من الصيغ والأدوات التي استعملها بديع الزمان

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 108.

(2) المرجع نفسه، ص 93.

(3) المرجع نفسه، ص 35.

الهمذاني للدلالة على القوة الإنجازية التي يريد تضمينها كلامه كالاستفهام، والأمر، والنهي، والترجي، والنداء، والدعاء، والنفي والإثبات... الخ.

وقد خدمت هذه الوسائل اللغوية غرض صاحب المدونة، إذ اتخذها بديع الزمان أداة مطواعة للتعبير عن مأساته ومأساة أفراد مجتمعه التي تمثلت أساسا في مواجهة زمان أحمق لا يقيم وزنا للعلم ولا للعلماء، ولا يعترف بأولي النبوغ، ولا يعترف إلا بالمجانين والمستهترين والماجنين.

وقد حضرت الأفعال الإنجازية بصيغها الثلاث (الماضي، المضارع، الأمر) مع تفاوت ملحوظ في المقدار الزمني، وقد وضحت الرسوم البيانية ذلك: سجلت أفعال الإيضاح أعلى نسبة في الحضور قدرت بـ 51.56٪، تليها في المرتبة الثانية أفعال القرارات بنسبة تقدر بـ 30.20٪، ثم أفعال السلوك بنسبة تقدر بـ 9.89٪، فأفعال الأحكام بنسبة تقدر بـ 6.89٪، بينما تقل أفعال التعهد في المدونة لتصل نسبتها إلى 1.69٪ والرسم البياني الآتي يوضح هذه الفروقات أكثر:

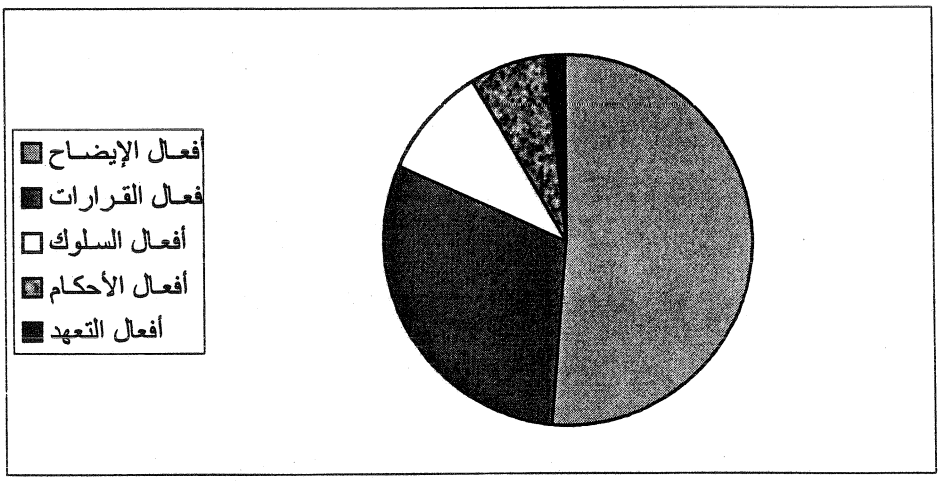

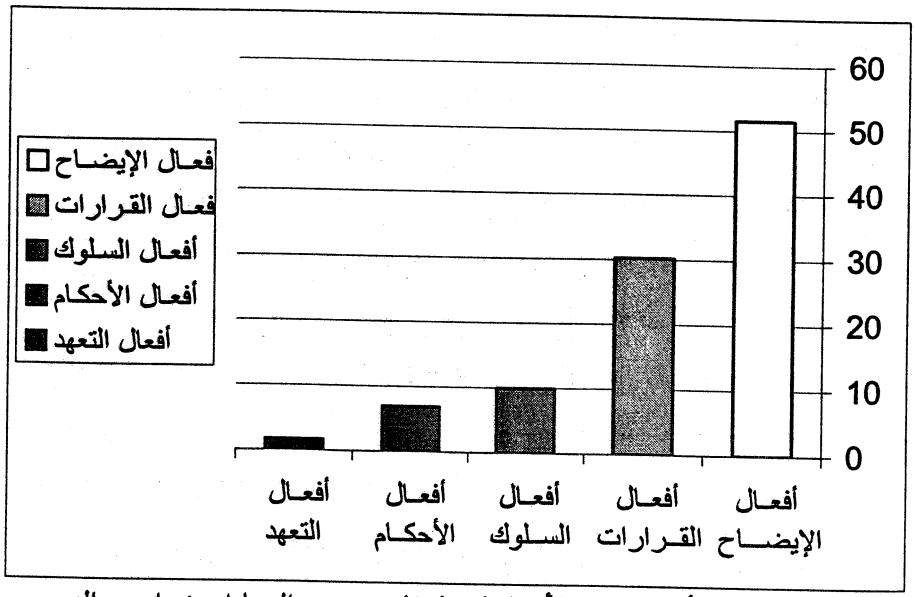

إن بروز هذه الأصناف من الأفعال في هذا المستوى من التحليل، يجعل من النصوص المقامية ملفوظا واحدا يتأسس على بنية شكلية دلالية، هذه البنية المادية تتوسل أفعالا إنجازية لتخدم أغراض صاحب المدونة من ناحية، ولتخدم غايات تأثيرية من ناحية أخرى (أي التأثير في المخاطبين)[1].

خامسا- وظائف الخطاب في المقامات المختارة:

بنيت الدراسات اللسانية الشكلية في القرن العشرين على مبدإ طالما تردد ذكره في ثنايا البحوث والدراسات اللغوية – دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها- إلا أن التطور الحاصل في ميدان البحث اللغوي، أثبت عدم جدوى هذه النظرية، فتعالت صيحات الدارسين من مختلف أنحاء العالم إلى ضرورة تجاوز هذه المقولة، والنظر إلى اللغة باعتبارها وسيلة أساسية في التواصل الاجتماعي، وإذا كانت هذه هي وظيفتها الجوهرية فإن هذا لا يلغي الوظائف الأخرى التي تؤديها، كأن تكون وعاء للفكر أو أداة للتعبير عما يختلج في النفس[2].

---

(1) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص40.

(2) يرى أندريه مارتنيه أن الوظيفة التواصلية للغة هي الوظيفة الأساسية بالإضافة الى ما تؤديه من وظائف أخرى، انظر: نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2003، ص 104.

عني الباحثون بدراسة هذه الوظائف قديما وحديثا، ولعل أشهر اللسانيين المحدثين الذين تناولوا هذه القضية العالم الروسي " رومان جاكبسون " الذي يرى أن اللغة هي وسيلة التواصل الإنساني، ولا يتحقق هذا التواصل إلا من خلال توافر العناصر الآتية: مرسل، مرسل إليه، مرسلة لغوية، محتوى لغوي، إقامة اتصال، لغة مشتركة[1]، نقدم هذه العناصر وما ينجم عنها من وظائف، في رسم بياني متكامل، يكون على الشكل الآتي:

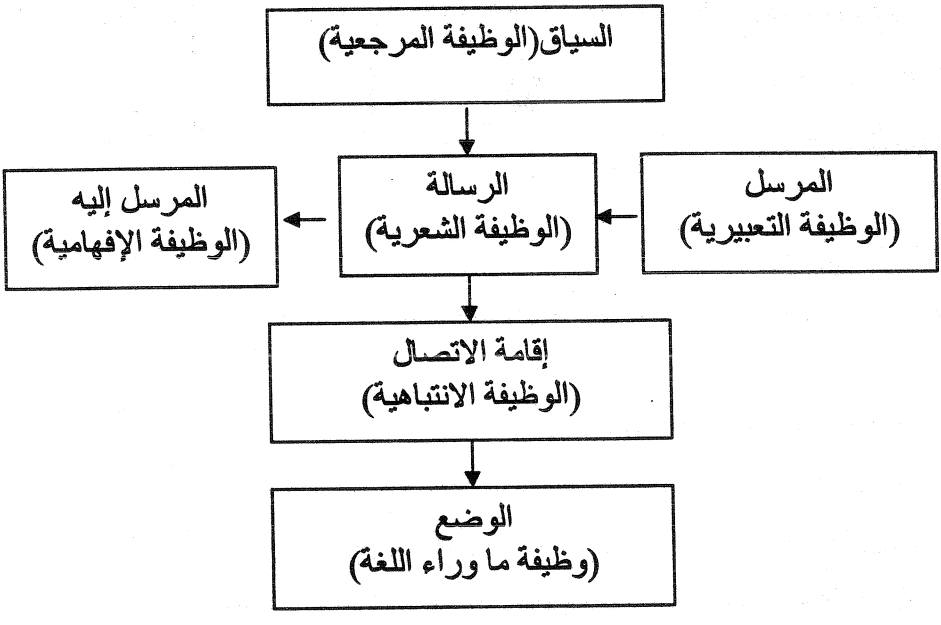

نحاول في هذا المستوى من التحليل التداولي إسقاط هذه الترسيمة التواصلية على النصوص المقامية، لنكشف شتى الوظائف التي تؤديها باعتبار أن هذه البنيات السردية المتجاورة، ما هي إلا دال قاصد يعبر عن فلسفة بديع الزمان الهمذاني، وقد اتخذ مؤلف المقامات رموز اللغة غطاء ساترا يبوح من ورائه بكل ما يختلج في نفسه من معاناة وغربة واضطهاد.

---

(1) ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص171، 172.

1- الوظيفة التعبيرية Fonction Expressive:

تعبر هذه الوظيفة عن ذات المرسل ومشاعره، كما تكشف عن حاله وعن مقاصده ومواقفه من مختلف القضايا التي يعالجها.

إن هذا الطرف المرسل للخطاب يشكل ذات محورية في إنتاجه، فتصبح اللغة موجودا بالفعل بعد أن كانت موجودا بالقوة[1].

يطلق بعض الدارسين على هذه الوظيفة " الوظيفة الانفعالية Fonction Emotive"[2].

لا يعد بديع الزمان الهمذاني منتج المقامات أو باثها فقط، بل إنه مؤسس هذا الفن، وهو المبدع لهذا اللون النثري الجديد الذي لم يسبقه إليه أحد، حسب ما ذهب إليه كثير من الدارسين[3].

شكلت النصوص المقامية نموذجا رفيعا في الكتابة النثرية، احتذى به الكتاب من بعده، وقد اتصفت هذه المقامات بصفات استطاعت أن تؤسس للنوع الذي استمر بعد الهمذاني لقرون طويلة[4].

وإذا كان بديع الزمان هو مؤلف المقامات وهو المخاطِب فإننا سننظر إليه من زاويتين:

- باعتباره مبدع هذا الفن النثري، وهذا يعني إلمامه الواسع باللغة العربية وقوانينها، وأنه أديب بارع متفاعل مع التراث العربي تفاعلا إيجابيا على الرغم من أنه عاش في بيئة فارسية، حفظ القرآن الكريم والشعر العربي القديم، والأمثال والحكم، ويذكر مصطفى الشكعة أن ما بهره من شخصية بديع الزمان هي الخصال التي اتسم بها من إشراق نفسي وخلقي، وجرأة واستقامة، وعزة وتدين، ونزعة تحررية جريئة، وتمرده على الأوضاع الفاسدة في زمانه[5].

---

(1) عبد الهادي بن ظاهر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 45.

(2) ميشال زكريا مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ص 172.

(3) يرى مصطفى الشكعة ومارون عبود وكارل بروكلمان وشوقي ضيف وعبد الله الغذامي وغيرهم من الدارسين المحدثين أن بديع الزمان هو منشئ فن المقامة.

(4) أيمن بكر: السرد في مقامات الهمذاني، ص 26.

(5) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، ص 15.

- متعصب للمذهب السني، رغم أنه يعيش في بيئة يسيطر عليها الشيعة[1]..

ومنهجه في الحياة يقوم على محاربة الأوضاع الفاسدة التي تفشت في مجتمعه، إنه يطمح إلى تغيير واقعه، ولا يجد سبيلا إلى ذلك غير اللجوء إلى عالم الكتابة.

ومن هنا يحق لنا أن نتساءل عن حاله، وأن نتصور انفعالاته من ألم وحسرة وتهكم وسخرية... نتيجة الظلم المسلط عليه وعلى الفئة المستضعفة من أفراد مجتمعه[2].

أما إذا انتقلنا إلى ظهور الوظيفة التعبيرية في المقامات المختارة، فإننا نجدها تتصل بشخصية أبي الفتح الاسكندري – بطل المقامات- من ناحية، كما تتصل بشخصية الراوي عيسى بن هشام من ناحية أخرى، وإن كانت هاتان الشخصيتان في المقامات تمثلان مرآة عاكسة لفكر بديع الزمان الهمذاني نفسه ومواقفه في الحياة.

تبرز هذه الوظيفة في المقامات الآتية:

أ- المقامة القريضية[3]: يقول عيسى بن هشام: «فَانَلْتُهُ مَا تَاحَ. وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَاحَ. فَجَعَلْتُ أَنْفِيهِ وَأُثْبِتُهُ... ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيهِ ثَنَايَاهُ، فَقُلْتُ: الإِسْكَنْدَرِيُّ وَاللهِ... ثَمَّ قَبَضْتُ عَلَى خَصْرِهِ، وَقُلْتُ: أَلَسْتَ أَبَا الفَتْحِ؟ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟ فَأَيُّ عَجُوزٍ لَكَ بِسُرَّ مَنْ رَا؟».

ب- المقامة الأزاذية[4]: يقول عيسى بن هشام: «فَأَمَاطَ لِثَامَهُ، فَإِذَا وَاللهِ شَيْخُنَا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَندريُّ، فَقُلْتُ: وَيْحَكَ أَيُّ دَاهِيَةٍ أَنْتَ؟».

ج- المقامة الكوفية[5]: قال عيسى بن هشام: «فَفَتَحْنا لَهُ البَابَ وَقُلْنا: ادْخُلْ، فَإِذا هُوَ وَاللهِ شَيْخُنا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ، فَقُلْتُ: يا أَبَا الفَتْح، شَدَّ مَا بَلَغتْ مِنْكَ الخَصَاصَةُ. وَهذَا الزِّيُّ خَاصَّةٌ».

---

(1) يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 48.

(2) وإذا كانت المقامات تنطوي على كل هذه الانفعالات إلا أنها لا تخلو من روح الفكاهة والضحك.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 07.

(4) المرجع نفسه، ص 12.

(5) المرجع نفسه، ص 29.

د- المقامة الأهوازية[1]: قال عيسى بن هشام: «اسْتَقْبَلَنَا رَجُلٌ... وَعَلى كَتِفَيْهِ جِنَازَةٌ، فَتَطَيَّرْنَا... فَصَاحَ بِنَا صَيْحَةً كَادَتْ الأَرْضُ لها تَنْفَطِرُ، وَالنُّجُومُ تَنْكَدِرُ».

هـ- المقامة الساسانية[2]: قال عيسى بن هشام: «فَلَمَّا فَتَقَ سَمْعي مِنْهُ هَذا الكَلامُ... فَتَبِعْتُهُ... وَأَمَاطَ السَّادَةُ لُثُمَهُمْ، فإِذَا زَعِيمُهُمْ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ، فَنَظَرْتُ إِليهِ وَقُلْتُ: مَا هَذهِ الحِيلَةُ وَيْحَكَ؟».

و- المقامة القردية[3]: قال عيسى بن هشام: «فَلَمَّا فَرَغَ القَرادُ مِن شُغْلِهِ... وَوَقَفْتُ لأَرَى صُورَتَهُ، فَإِذا هُو واللهِ أَبو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ، فَقُلتُ: مَا هَذِهِ الدَّنَاءَةُ وَيْحَكَ».

ز- المقامة الخمرية[4]: «وَدَعَتْ بِشَيْخِهَا فَإِذَا هُوَ إِسْكَنْدَرِينَا أَبُو الفَتْحِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الفَتْحِ، واللهِ كَأَنَّمَا نَظَرَ إِلَيْكَ، وَنَطَقَ عَنْ لِسَانِكَ الَّذِي يَقُولُ(من مجزوء الرمل):

كَانَ لِي فِيمَا مَضَى عَقْلٌ وَدِينٌ وَاسْتِقَامَةْ
ثُمَّ قَدْ بِعْنَا بِحَمْدٍ اللهِ فِقْهاً بِحِجَامَةْ
وَلَئِنْ عِشْنَا قَلِيلاً نَسأَلُ اللهَ السَّلاَمَةْ

قَالَ: فَنَخَرَ نِخْرَةَ المُعْجَبِ، وَصَاحَ وَزَمْهَرَ، وَضَحِكَ حَتَّى قَهْقَهَ. ثُمَّ قَالَ: أَلِمِثْلِي يُقَالُ، أَوْ بِمِثْلِي تُضْرَبُ الأَمْثَالُ؟».

ح- المقامة الشيرازية[5]: يقول عيسى بن هشام: «... فَوَ اللهِ لَقَدْ تَرَكَني فِرَاقُهُ وَأَنا أَشْتَاقُهُ، وَغادَرَنِي بَعْدَهُ أَقَاسِي بُعْدَهُ، وَكُنْتُ فَارَقْتُهُ ذَا شَارَةٍ وَجَمالٍ... وَلا أَظُنُّ أَنَّ الدَّهْرَ يُسْعِدُني بِهِ وَيُسْعِفُني فيهِ».

نلاحظ من خلال الأمثلة السابقة بروز الوظيفة التعبيرية في النصوص المقامية المختارة، وقد جسدت هذه الانفعالات الوسائل اللغوية الآتية:

---

(1) المرجع نفسه، ص 67.
(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 108.
(3) المرجع نفسه، ص 113.
(4) المرجع نفسه، ص 269
(5) المرجع نفسه، ص 193.

* الاستفهام الإنكاري الذي لا يخلو من التعجب: في قوله:

- ألست أبا الفتح، ألم نربك فينا وليدا... فأي عجوز لك بسر من را؟
- ما هذه الحيلة ويحك؟
- ما هذه الدناءة ويحك؟
- ويحك أي داهية أنت؟
- يا أبا الفتح شد ما بلغت منك الخصاصة وهذا الزي خاصة.

*** القسم: في قوله:**

- فإذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري.
- فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري.
- يا أبا الفتح والله كأنما نظر إليك ونطق عن لسانك...
- والله لقد تركني فراقه وأنا أشتاقه.

*** ومن العبارات التي تدل على سخرية البطل وتهكمه:**

- فنخر نخرة المعجب وصاح وزمهر وضحك حتى قهقه ثم قال: ألمثلي يقال، أو بمثلي تضرب الأمثال.
- فصاح صيحة كادت الأرض لها تنفطر والنجوم تنكدر.

تبرز هذه الأساليب وما شابهها في نهاية أغلب النصوص المقامية، لتكشف عن حقيقة البطل الذي يبدو متسترا، فيظهر أحيانا في صورة رجل فقير كثير الأولاد، وأحيانا في صورة شيخ ضعيف لا يجد من يعيله، وفي حالات أخرى يبدو إماما تقيا، فإذا به يبدو ماجنا مستهترا، أو أعمى مكفوفا أو مجنونا... إلخ.

وكل هذه الأقنعة ما هي إلا أساليب للخداع والمراوغة حتى يتمكن من السطو على أموال الناس، غير أن هذه الحيل لا تنطلي على الراوي عيسى بن هشام، فسرعان ما يهتك سره ويكشف أمره فيردد في نهاية المقامة عبارة " فإذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري".

إن هذه الأساليب التي لا يكاد يخلو منها نص من النصوص المقامية تجسد لنا صورة الأديب المكدي، الذي يتخذ من الحيلة، والدهاء، والدجل وسيلة لكسب قوت يومه، ولعلها

تكون الوسيلة نفسها للكاتب بديع الزمان وقد أفصح عن ذلك في رسالة كتبها للشيخ العميد[1]، يرثي فيها حاله بأنه أصبح في صفة لا فيها يعان ولا عنها يصان، وشيمة ليست تناط بأمثاله وهو رجل العلم والأدب، وحرفة لا فيها يدال ولا عنها يزال وهي" الكدية " لقد جلبت له هذه الحرفة العار والذل والافتقار لقوله ﷺ: «اليَدُ العُلْيَا خَيرٌ مِنَ اليَدُ السُفلَى»[2].

إلا أن بديع الزمان – وكما تشير كتب التراجم- قد دفع لهذه الحرفة دفعا، وتلك هي العوامل التي أوجدت فن المقامة[3].

حاول بديع الزمان الهمذاني أن يعبر عن فلسفته في الحياة، وأن يعالج كثيرا من القضايا التي تخص مجتمعه من دينية واجتماعية وأدبية وفلسفية بأسلوب نحوي سهل، وباعتماد بنية التوازي في تركيب الجمل[4]، وقد حاول لفت انتباه المتلقي من خلال توظيف بعض الأساليب كالاستفهام والتعجب والقسم لتوضيح وجهة نظره، كما عني بتوظيف أنماط لغوية محفزة للذاكرة والمتمثلة في تكرار بعض العبارات مثل: " فإذا والله شيخنا أبو الفتح" وقد تكررت هذه العبارة في مقامات كثيرة، وتكرار بعض أشكال البديع مثل السجع، الجناس مما يوفر للنصوص المقامية قيما إيقاعية تسهم في تقريب المسافة بين النثر المقامي والشعر[5]، فالعناية بالمحسنات البديعية ليست من قبيل العناية بالزخرف اللفظي وإبراز قدرة الأديب البلاغية بل لتحقق هدف المرسل من الخطاب وهو التأثير في المتلقين (المرسل إليه)[6].

2- الوظيفة الإفهامية Fonction conative:

ويطلق عليها أيضا الوظيفة الندائية، تكشف هذه الوظيفة عن القيمة التداولية

---

(1) يوسف نور عوض: فن المقامة بين المشرق والمغرب، ص 39.

(2) http: //seenjeem.maktoob.com/

(3) المرجع نفسه، ص 16.

(4) عمر عبد الواحد: السرد والشفاهية، دراسة في مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص 169.

(5) المرجع نفسه، ص 168.

(6) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 48.

للخطاب[1]، وتخص الطرف الآخر وهو المرسل إليه.

تبرز الوظيفة الإفهامية في المرسلة اللغوية الموجهة إلى المتلقي لإثارة انتباهه أو لطلب القيام بعمل ما، ويدخل ضمنها الجمل الأمرية[2]، تتجلى هذه الوظيفة في المقامات الآتية:

أ- المقامة القريضية[7]: قال عيسى بن هشام: «يَا فَاضِلُ أَدْنُ فَقَدْ مَنَّيْتَ، وَهَاتِ فَقَدْ أَثْنَيْتَ، فَدَنَا وَقَالَ: سَلُونِي أُجِبْكُمْ، وَاسْمَعُوا أُعْجِبْكُمْ. فَقُلْنَا: مَا تَقُولُ فِي امْرِىءِ الْقَيسِ؟».[3]

ب- المقامة الأسدية[4]: يروي عيسى بن هشام على لسان فتى قاطع الطريق: «فَقَالَ: يَا سَادَةُ إِنَّ فِي سَفْحِ الجَبَلِ عَيْنَاً، وَقَدْ رَكِبْتُمْ فُلاَةً عَوْرَاءَ، فَخُذُوا مِنْ هُنَالِكَ الْمَاءَ... فَقَالَ: أَلاَ تَقِيلُونَ فِي الظِّلِّ الرَّحْبِ، عَلى هَذا الْمَاءِ الْعَذْبِ؟ فَقُلْنَا: أَنْتَ وَذَاكَ فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَحَلَّ مِنْطَقَتَهُ، وَنَحَى قُرْطَقَتَهُ... فَقُلْتُ: يَا فَتَى مَا أَلْطَفَكَ فِي الخِدْمَةِ، وَأَحْسَنَكَ فِي الجُمْلَةِ... فَكَيفَ شُكْرُ اللهِ عَلَى الْنِعْمَةَ بِكَ؟ فَقَالَ: مَا سَتَرُونَهُ مِنِّي أَكْثَرُ... فَقُلْنَا: هَاتِ».

ج- المقامة الأذربيجانية[5]: قال عيسى بن هشام: «فَنَاجَيْتُ نَفْسِي بِأَنَّ هذَا الرَّجُلَ أَفْصَحُ مِنْ إِسْكَنْدَرِيِّنَا أَبِي الفَتْحِ، وَالْتَفَتُّ لَفْتَةً فَإِذَا هُوَ واللهِ أَبُو الْفَتْحِ، فَقُلْتُ يَا أَبَا الفَتْحِ بَلَغَ هذِهِ الأَرْضَ كَيْدُكَ، وانْتَهى إِلى هذَا الشِّعْبِ صَيْدُكَ؟».

د- المقامة العلمية[6]: يقول عيسى بن هشام: «فَسَمِعْتُ مِنَ الكَلامِ مَا فَتَقَ السَّمْعَ وَوَصَلَ إِلَى القَلْبِ وَتَغَلْغَلَ فِي الصَّدْرِ، فَقُلْتُ: يَا فَتَى، وَمِنْ أَيْنَ مَطْلَعُ هَذِهِ الشَّمْسِ؟».

هـ- المقامة الشيرازية[7]: يروي عيسى بن هشام على لسان أبي الفتح الاسكندري: «... فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنا خَيْرَاً مِمَّا يُظَنُّ بِنا، فَبَسَطْتُ لَهُ أَسِرَّةَ وَجْهِي، وَفَتَقْتُ لَهُ سَمْعِي، وَقُلْتُ لَهُ: إِيهِ، فَقَالَ: قَدْ أَرْضَعْتُكَ ثَدْيَ حُرْمَةٍ... فَقُلْتُ: أَبَلَدِيٌّ أَنْتَ أَمْ عَشِيرِيٌّ فَقَالَ مَا يَجْمَعُنا إِلاَّ بَلَدُ

---

(1) المرجع نفسه، ص 476.

(2) ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ص 172.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 07.

(4) المرجع نفسه، ص 35.

(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 52.

(6) المرجع نفسه، ص 230.

(7) المرجع نفسه، ص 193.

الغُرْبَةِ... فَقُلْتُ: أَيُّ الطَّرِيقِ شَدَّنَا فِي قَرَنٍ؟ قَالَ: طَرِيقُ اليَمَنِ».

تتجلى الوظيفة الانتباهية في المقامات المختارة من خلال بروز الأساليب الإنشائية الآتية: الاستفهام، الأمر، النداء والنهي.

تعددت هذه الأساليب وتعددت معها الصيغ الموجهة للمتلقين خاصة المتعلقة منها بالاستفهام والأمر والنداء، قصد لفت انتباه المخاطب من ناحية وللامتثال للطلب من ناحية أخرى، والجدول الآتي يوضح ذلك.

اسم المقامة	الأسلوب الإنشائي	نوعه
المقامة القريضية	يا فاضل	نداء
	ادن	أمر
	هات	أمر
	سلوني	أمر
	اسمعوا	أمر
	ما تقول في امرئ القيس	استفهام
	فلا يغرنك	نهي
	لا تلتزم	نهي
المقامة الأسدية	يا سادة	نداء
	فخذوا	أمر
	ألا تقيلون في هذا الظل... على هذا الماء العذب	استفهام
		نداء
	يا فتى ما ألطفك في الخدمة	استفهام
	فكيف شكر الله...؟	أمر
	هات	
المقامة الأذربيجانية	يا أبا الفتح	نداء
المقامة العلمية	يا فتى ومن أين مطلع الشمس؟	نداء +استفهام

اسم المقامة	الأسلوب الإنشائي	نوعه
المقامة الشيرازية	اجعلنا	أمر
	أبلدي أنت أم عشيري؟	استفهام
	أي طريق شدنا في قرن؟	استفهام

طغى أسلوب الاستفهام على البنية اللغوية للنصوص المقامية المختارة بنسبة 51.48٪ وهي تمثل أعلى نسبة مقارنة بالأساليب الإنشائية الأخرى، وقد خرج الاستفهام في بعض المواضع عن معناه الحقيقي ليحقق أغراضا أخرى كالتعجب من بعض السلوكات المتناقضة للبطل من مثل قوله: "ويحك أي داهية أنت؟، " ما هذه الدناءة ويحك؟ ".

تعددت صيغ الأمر في المقامات لتبلغ نسبتها 31.02٪ وقد وظفه بديع الزمان في المقامات ليخدم غرضين:

الطلب على وجه الإلزام المباشر ويتضح ذلك في قوله: ادن، هات، اسمعوا.

ويخرج الغرض الآخر إلى الدعاء ويتجلى في قوله: " اللهم اجعلنا خيرا مما يظن بنا ".

النداء: وغرضه لفت انتباه المخاطب، وقد ارتبط في مواضع كثيرة بالاستفهام، وقدرت نسبته في المدونة بـ 14.19٪.

أما صيغة النهي فقد وردت بنسبة قليلة جدا وقد قدرت بـ 3.30٪، وقد عبرت هذه الصيغة عن فلسفة الهمذاني في الحياة، وموقفه من الزمان يقول:

لا تُكَـــذَبَنَّ بِـعَـقْـــلِ ... مـــا العَقْـــلُ إلاَّ الجُنُـــونُ[1] (من مجزوء الرمل)

لاَ تَلْتَـزِمْ حَالَـةً، وَلكِـــنْ ... دُرْ بِالَّلَيَـــالِي كَـــمَا تَـــدُورُ[2] (من بحر البسيط)

لاَ تَلُمْنِـــي لَـــكَ الَّرشَـــا ... دُعَـــلَى كُـــدْيَتي وذُقْ[3] (من مجزوء الخفيف)

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة المكفوفية، ص 96.

(2) المرجع نفسه، المقامة القريضية، ص 11.

(3) المرجع نفسه، المقامة الأذربيجانية، ص 55.

نوضح هذا التفاوت بين الأساليب الإنشائية أكثر من خلال المخطط الآتي:

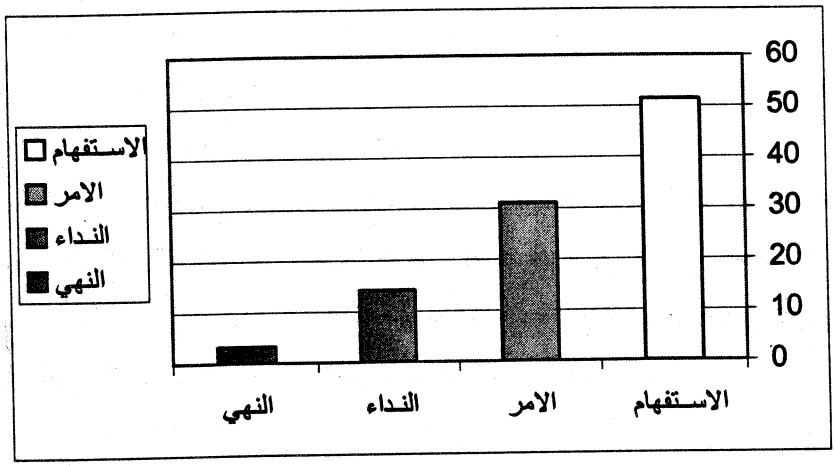

وردت هذه الأساليب وغيرها خفيفة رشيقة قريبة إلى الطبع بعيدة عن التكلف، وقد صبغت أحداث النصوص المقامية بصبغة واقعية رغم أن الشخصيتين الراوي والبطل من صنع خيال بديع الزمان.

3- الوظيفة المرجعية fonction Référentielle:

وتسمى أيضا الوظيفة التعيينية أو التعريفية، وتعد أكثر الوظائف اللغوية أهمية في عملية التواصل ذاتها[1].

تتأسس هذه الوظيفة على خلق تبرير أساسي لعملية التواصل، وذلك لأن الهدف من الكلام الموجه إلى الطرف الآخر هو الإشارة إلى محتوى معين[2].

أما عن حضور هذه الوظيفة في المقامات التي اخترنا أمثلة منها فقط للدراسة فإنه يتجسد من خلال المواضيع الرئيسية التي تناولتها هذه المقامات وهي:

- التكدي بأساليب مختلفة.
- تسفيه بعض الآراء والمذاهب الدينية.

---

(1) نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، ص 100.

(2) ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ص 172، 173.

- نقد أساليب الكتابة التي تخلو من الصنعة والتكلف.
- الإشارة إلى بعض الآراء النقدية المتداولة في القرن الرابع الهجري.
- توضيح السبل الوعرة لنيل العلم.
- تصوير سلوكات وأخلاق الناس عامة.

إن كل هذه المواضيع تصب في بوتقة واحدة، إذ أنها تمثل تصوير شامل لمظاهر الحياة في العصر العباسي وبالتحديد في القرن الرابع الهجري.

تبرز المرجعية الاجتماعية، أو الدينية، أو الثقافية التي تشتمل عليها النصوص المقامية، من خلال مجموعة من الألفاظ والعبارات، التي تتضمنها الأمثلة الآتية:

أ- المقامة الأزاذية[1]: يقول عيسى بن هشام: «أَخَذَتْ عَيْنَايَ رَجُلاً قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ بِبُرْقُعٍ حَيَاءً، وَنَصَبَ جَسَدَهُ، وبَسَطَ يَدَهُ وَاحْتَضَنَ عِيَالَهُ، وَتَأَبَّطَ أَطْفَالَهُ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ يَدْفَعُ الضَّعَفَ فِي صَدْرِهِ، وَالْحَرَضَ فِي ظَهْرِهِ (من بحر الرجز):

وَيْلِي عَلَى كَفَّيْنِ مِنْ سَوِيقِ ... أَوْ شَحْمَةٍ تُضْرَبُ بِالدَّقِيقِ
أَوْ قَصْعَةٍ تُمْلأُ مِنْ خِرْدِيقِ ... يَفْتَأُ عَنَّا سَطَوَاتِ الرِّيقِ
يُقِيمُنَا عَنْ مَنْهَجِ الطَرِيقِ ... يَارَازِقَ الثَّرْوَةِ بَعْدَ الضِّيقِ

ب- المقامة الوصية[2]: يقول أبو الفتح الاسكندري وهو يوصي ابنه: «فَقَالَ بَعْدَ مَا حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ وَثِقْتُ بِمَتَانَةِ عَقْلِكَ... فَإِنِّي شَفِيقٌ، وَالشَّفِيقُ سَيِّئُ الظَّنِّ، وَلَسْتُ آمَنُ عَلَيْكَ النَّفْسَ وَسُلْطَانَهَا... فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِما نَهَارَكَ بِالصَّوْمِ وَلَيْلَكَ بِالنَّوْمِ... وَعَلَيْكَ بِالخُبْزِ وَالمِلْحِ، وَلَكَ فِي الخَلِّ والبَصَلِ رُخْصَةٌ مَا لَمْ تُذِمَّهُمَا... وَاللَّحْمُ لَحْمُكَ وَمَا أَرَاكَ تَأْكُلُهُ... وَالأَكْلُ على الجُوعِ وَاقِيَةَ الفَوْتِ، وَعَلى الشِبَعِ دَاعِيَةُ المَوْتِ، ثُمَّ كُنْ مَعَ النَّاسِ كَلاعِبِ الشِّطْرَنْجِ: خُذْ كُلَّ مَا مَعَهُمْ، وَاحْفَظْ كُلَّ مَا مَعَكَ».

---

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 12.

(2) المرجع نفسه، ص 233.

ج- المقامة الشيرازية[1]: «... نَكَحْتُ خَضْرَاءَ دِمْنَةٍ، وَشَقِيتُ مِنهَا بِابْنَةٍ، فَأَنَا مِنهَا فِي مِحْنَةٍ، قَدْ أَكَلَتْ حَرِيبَتِي، وَأَرَاقَتْ مَاءَ شَيْبَتِي، فَقُلْتُ: هَلاً سَرَّحْتَ وَاسْتَرَحْتَ».

د- المقامة المارستانية[2]: «... فَلْيُخْزِكُمْ أَنَّ القُرْآنَ بَغِيضُكُمْ، وَأَنَّ الحَدِيثَ يَغِيظُكُمْ، إِذَا سَمِعْتُمْ: " مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ " أَلْحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا " جَحَدْتُمْ... وَإِنْ قِيلَ: " عَذابُ القَبْرِ " تَطَيَّرْتُم، وَإِنْ قِيلَ: " الصِّراطُ " تَغَامَزْتُمْ...».

هـ- المقامة الشعرية[3]: قال عيسى بن هشام: «قَالَ: كُنْتُ بِبِلادِ الشَّامِ، وَانْضَمَّ إِلَى رُفْقَةٌ، فَاجْتَمَعْنا ذَاتَ يَوْمٍ فِي حَلَقَةٍ، فَجَعَلْنا نَتَذَاكَرُ الشِّعْرَ فَنُورِدُ أَبْيَاتَ مَعَانِيه، وَنَتَحاجى بِمَعَامِيهِ... وَلَمَّا نَفَضْنَا الكَنَائِنَ... عَطَفَ عَلَيْنَا سائِلاً، وَكَرَّ مُبَاحِثاً، فَقَالَ: عَرِّفُونِي أَيُّ بَيْتٍ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وَشَطْرُهُ يَدْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ يَصْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَغْضَبُ، وَنِصْفُهُ يَلْعَبُ؟...».

و- المقامة الأهوازية[4]: قال عيسى بن هشام: «كنت بالأهواز، في رفقة مَتَى مَا تَرَقَّ العَيْنُ فِيهِمْ تَسَهَّلِ... وَلَمَّا أَجْمَعْنَا عَلى المَسيرِ اسْتَقْبَلَنا رَجُلٌ فِي طِمْرَيْنِ فِي يُمْنَاهُ عُكَّازَةٌ، وَعَلى كَتِفَيْهِ جِنَازَةٌ، فَتَطَيَّرْنَا... فَصَاحَ بِنَا صَيْحَةً كَادَتْ الأَرْضُ لها تَنْفَطِرُ، وَالنُّجُومُ تَنْكَدِرُ...».

نوضح مختلف المرجعيات التي تنطوي عليها هذه الامثلة من خلال الجدول، ولنبدأ بإحصاء الألفاظ ذات الطابع الاجتماعي.

المقامة الأزاذية	المقامة الوصية	المقامة الشيرازية	المقامة المارستانية	المقامة الشعرية	المقامة الأهوازية
1-عيناي	1-الخبز	1-نكحت	1-بغيضكم	1-انضم	1-رفقة
2-رجلا	2-الملح	2-خضراء	2-تغامزتم	2-رفقة	2-العين
3-رأسه	3-الخل	دمنة	3-سمعتم	3-اجتمعنا	3-تسهل

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 193.
(2) المرجع نفسه، ص 141.
(3) المرجع نفسه، ص 252.
(4) المرجع نفسه، ص 67.

4-برقع	4-البصل	3-شقيت		4-حلقة	4-أجمعنا
5-نصب	5-اللحم	4-بابنة		5-نتذكر	5-المسير
6-جسده	6-لحمك	5-محنة		6-تورد	6-استقبلنا
7- تأبط	7-تأكله	6-أكلت		7-نتحاجى	7-رجل
8-أطفاله	8-الأكل	7-حريبتي		8-عطف	8-طمرين
9- بصوت	9-الجوع	8-أراقت		9-كر	9-يمناه
10-الضعف	10-الفوت	9-ماء شيبتي		10-مباحثا	10-عكازة
11-صدره	11-الشبع	10-سرحت		11-عرفوني	11-كتفه
12-كفين	12-الناس	11-استرحت		12-يدفع	12-جنازة
13-سويق	13-كلاعب	12- فقلت		13-يغضب	13-صاح
14-شحمه	14-الشطرنج			14-يلعب	14-صيحة
15-دقيق				15- يرفع	
16-يفثأ					
17-سطوات					
18-الريق					
19-الثروة					
20-الضيق					

يمكننا أن نقوم بعملية إحصاء عدد هذه المفردات من خلال الجدول الآتي:

اسم المقامة	عدد الألفاظ ذات الطابع الاجتماعي
المقامة الأزاذية	21 لفظة
المقامة الوصية	14 لفظة
المقامة الشيرازية	12 لفظة
المقامة المارستانية	03 ألفاظ
المقامة الشعرية	15 لفظة
المقامة الأهوازية	14 لفظة

ومن أهم النماذج التي يتضح من خلالها المرجع الديني نذكر من الأمثلة السابقة:

- المقامة المارستانية: وقد اشتملت على خمس عشرة لفظة ذات طابع ديني (فليخزكم، القرآن، الحديث، يضلل، الله، لا هادي، ألحدتم، زويت، مشارق، مغارب، عذاب، القبر، تطيرتم، الصراط، بغيضكم).
- المقامة الأهوازية: وتضمنت أربعة ألفاظ وهي على التوالي (جنازة، تطيرنا، تنفطر، تنكدر).
- وردت في المقامة الشعرية ألفاظ وعبارات تعبر عن ثقافة بديع الزمان ومدى إلمامه بالأساليب الشعرية والنقدية، وقد أحصينا منها في هذا المقام اثنتي عشرة لفظة وهي على التوالي (نتذكر، الشعر، أبيات، سائلا، مباحثا، عرفوني، بيت [تكررت مرتين]، شطره [تكررت مرتين]، نصفه [تكررت مرتين]).

انتقى بديع الزمان -للتعبير عن واقع مجتمعه- ألفاظا مشحونة بدلالات ذات أبعاد إنسانية واجتماعية، فنجده مثلا في المقامة الأزاذية يختار من معجمه اللغوي مفردات تعبر عن لون من ألوان الخداع، وقد تجسد ذلك في الرجل الذي لف رأسه ببرقع وتأبط أطفاله ليدعي الفقر بسبب كثرة العيال، وقد عبرت عن هذا الموقف الألفاظ الآتية: لف رأسه، تأبط أطفاله، يقول بصوت يدفع الضعف، والحرض من صدره، ويلي على...

إن الادعاء بتبدل الأحوال بسبب كثرة العيال ما هي إلا حيلة من الحيل التي كان يلجأ إليها الكثير من المكدين في العصر العباسي، ليحصلوا أقوات يومهم، إن تفشي هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر التي عمت المجتمع العباسي آنذاك، قد دفعت الكثير من الأدباء وأولي النبوغ إلى التكفف، وطلب الناس حاجتهم حتى لا يطالهم الجوع، ولا يمسهم العراء، وما ذلك إلا مؤشر على مدى تدهور الأوضاع الاجتماعية في عصر بديع الزمان.

وبما أن أغلب المقامات تدور حول الكدية[1]، فإن هذا يؤكد مدى هيمنة الطابع

---

(1) يرى يوسف نور عوض أن الكدية ليست الموضوع الأساسي للمقامات كما ذهب إلى ذلك كثير من الدارسين وإنما هي صفة لصيقة بالبطل، ومن ثمة فالمقامات تتناول مواضيع مختلفة وهذا الرأي يخالف به مصطفى الشكعة وغيره. ومن وجهة نظرنا نرى أن المقامات مواضيعها مختلفة، وهذا يتفق مع ما=

الاجتماعي على النصوص المقامية التي يمكن أن ننظر إليها على أنها سجل اجتماعي يضم بين دفتيه مختلف مظاهر حياة الناس في القرن الرابع الهجري، وفي هذا السياق يرى مصطفى الشكعة أن أغلب المقامات الهمذانية أنشئت في الكدية باستثناء ثلاث عشرة مقامة خلت من هذا الغرض، ولئن غلب طابع التكدي على المقامات، إلا أنها عبرت عن أغراض أخرى كالمدح والوصف والنقد والأدب والألغاز والوعظ والحجاج وأحوال الزمان والفكاهة[1].

4- الوظيفة الانتباهية Fonction Phatique:

ويطلق عليها إقامة الاتصال وتتأسس هذه الوظيفة على مدى حرص المرسل على إبقاء الاتصال مع الطرف الثاني(المرسل إليه) عن طريق ألفاظ وتعابير تتيح للمرسل الاستمرار في الاتصال أو قطعه[2].

يتخلل النسيج اللغوي للمقامات ألفاظ وأساليب بارعة تعمل على شد انتباه المتلقي واستمالته بشتى الطرق إلى عالم النص، فكم من أنماط محفزة للذاكرة ترددت في كثير من المقامات.

وكم من أوصاف أجاد نحتها، وكم من ألغاز وأحاج ضمنها كلامه حتى يفكه القارئ ويستميله بشتى الوسائل.

وأكثر من هذا وذاك ما الذي جعل هذا النوع يستمر بعده فينسج على منواله الكثير من الأدباء في المشرق العربي ومغربه؟

في بعض المقامات نجد بديع الزمان يغرق في الوصف ويتفنن فيه ببراعة فائقة، فإذا وصف الأكل يعطيه من الأوصاف ما يجعل الأفواه تتحلب والشفاه تتلمظ، والأكباد تتقد والقلوب ترتفع، وإذا وصف الخمر أضفى عليها من الأوصاف ما يجعل منها ريحانة النفس،

= ذهب إليه يوسف نور عوض. للاستزادة اظر يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص90.

(1) من المقامات التي خلت من الكدية نذكر: المقامة المارستانية، الوعظية، الأهوازية، المضيرية، الغيلانية، العراقية، الرصافية، المغزلية، الحلوانية، الشعرية، الخمرية، العلمية، البشرية.

(2) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، ص 315.

ومصباح الفكر تحي الميت وتشفي الأكمه والأبرص، إنه يضفي عليها من الألفاظ العذبة المسكرة والجمل الموسيقية المرنمة ما يطرب الندامى ويعجب الندمان[1]، ونجد إلى جانب هذه الأوصاف البديعة والمعاني الرقيقة الألغاز والأحاجي، التي يعبر بها عن بعض الآراء النقدية المتداولة في عصره، ففي المقامة الشعرية يورد لنا ضروبا من هذه الأحاجي وأشكالا من تلك الألغاز يقول: «عَرِّفُونِي أَيُّ بَيْتٍ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وَشَطْرُهُ يَدْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ يَصْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَغْضَبُ، وَنِصْفُهُ يَلْعَبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ أَجْرَبُ؟...»[2].

وقد استمر في عرض هذه الألغاز التي قاربت خمسة وخمسين لغزا في مقامة واحدة حتى ظن عيسى بن هشام ومن كان معه أنها ألفاظ قد جود نحتها ولا معاني تحتها يقول الراوي: «فَسَمِعْنَا شَيْئاً لَمْ نَكُنْ سَمِعْنَاهُ... وَحَسِبْنَاهُ أَلْفَاظاً قَدْ جُوِّدَ نَحْتُهَا، وَلا مَعَانِيَ تَحْتَهَا...»[3].

إلا أنه أجاب عن خمس مسائل منها وترك لهم إعمال النظر في غيرها، يقول مصطفى الشكعة في هذا السياق بأن الناس في ذلك الزمان قد أغرموا بالألغاز غراما كبيرا، وقد عكفوا على دراستها والتلذذ منها والتسلي بها وقد افردوا لها أبوابا خاصة في كتبهم[4].

إن الظاهرة التي تشد انتباه القارئ أكثر في المقامات هي ظاهرة التكرار على مستوى المقامة الواحدة أو فيما بين المقامات، وقد عبر عمر عبد الواحد عن هذه الظاهرة بأنها أنماط محفزة للذاكرة[5]، فنجده يردد في أكثر من مقامة الجمل الآتية:

«حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ»: تكررت في بداية كل المقامات.

«فَإِذَا وَاللهِ شَيْخُنَا أَبُو الفَتْحِ»: تكررت في الأزاذية، الكوفية، المكفوفية، الأذربيجانية، الخمرية[6].

---

(1) المرجع نفسه، ص334.

(2) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 252.

(3) المرجع نفسه، ص 254.

(4) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، ص 343.

(5) عمر عبد الواحد: السرد والشفاهية، ص 168.

(6) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ص 15، ص 33، ص 96، ص 54، ص 274.

«عَيْنٌ كَلِسَانِ الشَّمْعَةِ، أَصْفَى مِنَ الدَّمْعَةِ»: تكررت في القزوينية، المضيرية[1].

وينشد أبو الفتح الاسكندري (من مجزوء المجتث):

إِسْكَنْدَرِيَّةُ دَارِي لَوْ قَرَّ فِيها قَرَارِي

لكِنَّ لَيْلِى بِنَجْدٍ وَبِالحِجَازِ نَهارِي

تكرر هذان البيتان في المقامات الآتية: الجاحظية، المارستانية، العلمية.

يقول عمر عبد الواحد في هذا السياق أن الهمذاني قد: «استخدم في بناء الأسلوب المقامي الكثير من الكليشيهات من الأوصاف والتشبيهات والعبارات الجاهزة ذات القيمة الأدبية العالية، وتكثر صور التكرار والتناص الداخلي بين المقامات إلى حد تلفيق مقامة إلا قليلا من عدد من المقامات الأخرى...»[2].

كما جاءت هذه المقامات موزعة بين الأساليب الإنشائية والخبرية، وترد الأساليب الخبرية لغرض الوصف وسرد الوقائع وشرح بعض الآراء النقدية أو المذهبية، ومن أمثلتها ما برز من أساليب القصر في المقامات الآتية:

أ- «لَيْسَ فِينَا إِلاَّ أَمْرَدُ بِكْرُ الآمالِ...»[3].

ب- «لا حَاجَةَ لِي فِيهَا، وإِنَمَا حَاجَتِي بَعْدَ هَذا أَنْ تَخِذُوا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَعُوا»[4].

ج- «... فَوَجَدْتُهُ شَيْئاً لا يَصْلُحُ إِلاَّ لِلْغَرْسِ، وَلاَ يُغْرَسُ إِلاَّ بِالنَّفْسِ، وَصَيْداً لاَ يَقَعُ إِلاَّ فِي النَّدْرِ، وَلا يَنْشَبُ إِلاَّ فِي الصَّدْرِ، وَطَائِراً لا يَخْدَعُهُ إِلاَّ قَنَصُ اللَّفْظِ، وَلاَ يَعْلَقُهُ إِلاَّ شَرَكُ الحِفْظِ...»[5].

د- «... فَلا تُنْفِقَنَّ إِلاَّ مِنْ الرِّبْحِ، وَعَلَيْكَ بِالخُبْزِ وَالمِلْحِ...»[6].

هـ- «... وَيَأْخِذُ مِنْهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرَجٌ وَشُعَاعٌ...»[7].

---

(1) المرجع نفسه، ص 102، ص 132.

(2) المرجع نفسه، ص 169.

(3) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الأهوازية، ص 67.

(4) المرجع نفسه، المقامة الأهوازية، ص 70.

(5) المرجع نفسه، المقامة العلمية، ص 230.

(6) المرجع نفسه، المقامة الوصية، ص 235.

(7) المرجع نفسه، المقامة الخمرية، ص 273.

و- «... فَهَلِ الإِكْرَاهُ إِلاَّ مَا تَرَاهُ؟...»[1].

ز- «... لاَ يَصْلُحُ هَذا الإِبْرِيقُ إِلاَّ لِهَذا الطَّسْت، وَلا يَصْلِحُ هَذا الطَّسْت إِلاَّ مَعَ هَذَا الدَّسْتِ، وَلاَ يَحْسُنُ هَذا الدَّسْتُ إِلاَّ فِي هَذا البَيْتِ...»[2].

يطغى الأسلوب الخبري على المقامات، فقد وردت الجمل الفعلية بنسبة 81.48٪ ووردت الجمل الاسمية بنسبة 18.51٪، وبذلك يكون هذا النوع من الأسلوب قد وظف لشرح فلسفة البديع في الحياة، وسرد الأخبار ووصف المكان والزمان والأشخاص وكل ما يتعلق بمظاهر الحياة في البيئة العباسية.

إن بروز الوظيفة الانتباهية في النصوص المقامية أتاح لها أن تستمر قرونا عديدة بعد نشأتها الفعلية، والتي كانت على يد بديع الزمان الهمذاني، لما تتوفر عليه من سحر في البلاغة وجودة في نحت العبارات والمعاني، وبما تشتمل عليه من جمل موسيقية تطرب لها النفس، وبما تتضمنه من قصص مشوقة ومسلية تدفع عن النفس الملل والسأم.

5- وظيفة ما وراء اللغة (المعجمية) Fonction Métalinguistique:

تبرز هذه الوظيفة في المرسلات اللغوية التي تكون فيها اللغة مادة الدراسة، فتعمل على وصف اللغة ذاتها من خلال ذكر عناصرها والتعريف بمفرداتها[3]، وتتبدى هذه الوظيفة في الأمثلة الآتية:

أ- (من الهزج)

أَرَى الأَيَّـامَ لا تَبْقَـى ... عَـلَى حَـالٍ فَأَحْكِيهَـا

فَيَوْمـاً شَرُّهَـا فِـيَّ ... وَيَوْمـاً شِرَّتِي فِيهَـا

ب- قال عيسى بن هشام: «قُرِعَ عَلَيْنا البابُ، فَقُلْنا: مَنِ القارِعُ المُنْتابُ؟ فقالَ: وَفْدُ اللَّيْلِ وَبَرِيدُهُ، وَفَلُّ الجُوعِ وَطَرِيدُهُ، وَحُرُّ قَادَهُ الضُّرُّ، والزَّمَنُ المُرُّ، وَضَيْفٌ وَطْؤُهُ خَفِيفٌ، وَضَالَّتُهُ رَغِيفٌ، وَجَارٌ يَسْتَعْدِي عَلى الجُوعِ، وَالجَيْبِ المَرْقُوعِ...»[4].

---

(1) المرجع نفسه، المقامة المارستانية، ص 143.

(2) المرجع نفسه، المقامة المضيرية، ص 132.

(3) ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ص 173.

(4) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الكوفية، ص 29.

ج- (من مجزوء الخفيف)

أَنَـــا حَـــالِي مِـــنَ الزَّمَـــا ... نِ كَحَـــالِي مَـــعَ النَّســـبْ
نَسَـــبِي فَـــي يَـــدِ الزَّمَـــا ... نَ إِذَا سَـــامَهُ انْقَلَـــبْ
أَنَـــا أَمْسِي مِـــنَ النَّبِـــي ... طِ وأُضْـــحِي مِـــنَ العَـــرَبْ[1]

د- (من مجزوء الخفيف)

إِنَـــا جَوَّالَـــةُ البِـــلا ... دِ وجَوَّابِـــةُ الأُفُـــقْ
أَنَـــا خُذْرُوفَـــةُ الزَّمَـــا ... نِ وَعَـــمَّارَةُ الطُّـــرُقْ[2]

هـ- (من مجزوء الخفيف)

أَنَـــا فِي ثَـــرْوَةٍ تُـــشَ ... قَّ لَهَـــا بُـــرْدَةُ الطَّـــرَبْ
أَنَـــا لَـــوْ شِـــئْتُ لاَتَّخَـــذْ ... تُ سُـــقُوفاً مِـــنَ الـــذَهَبْ[3]

و- (من مجزوء المجتث)

أَنَا أَبُـو قَـلَـمُـونٍ ... فِي كُلِّ لَوْنٍ أَكُـونُ[4]

ز- «... بَلَى إِنَّ اللهَ لَكَرِيمٌ، وَلَكِنَّ كَرَمَ اللهِ يَزِيدُنَا وَلا يَنْقُصُهُ، وَيَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّهُ...»[5].

ح- «... وَالنَّاسُ رَجُلاَنِ: عَالِمٌ يَرْعَى، وَمُتَعَلِّمٌ يَسْعَى، وَالبَاقُونَ هامِلُ نَعامٍ، وَرَاتِعُ أَنْعَامٍ، وَيْلُ
عَالِ أُمِرَ مِنْ سَافِلِهِ، وَعَالِمِ شَيْءٍ مِنْ جاهِلِهِ»[6].

ط- «... وَلِكُلٍّ مِنِّي سَهْمَانِ: سَهْمٌ أُذَلِّقُهُ لِلِّقَاءِ وآخَرُ أُفَوِّقُهُ بِالدُّعَاءِ...»[7].

---

(1) المرجع نفسه، المقامة القزوينية، ص 102.
(2) المرجع نفسه، المقامة الاذربيجانية، ص 52.
(3) المرجع نفسه، المقامة الكوفية، ص 33.
(4) المرجع نفسه، المقامة المكفوفية، ص 93.
(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الوصية، ص 233.
(6) المرجع نفسه، المقامة الوعظية، ص 151.
(7) المرجع نفسه، المقامة القزوينية، ص 106.

من الأمثلة السابقة نلاحظ أن لغة المقامات أخذت على عاتقها مهام تفسير ما غمض من مفرداتها، وتفصيل ما أجمل من عباراتها، ففسرت نفسها بنفسها إذ نجد في المثال الأول مثلا تفصيل ما هو مجمل فإذا كانت الأيام لا تدوم على حال فإن يوما شرها فينا ويوما شرتنا فيها وكما يقال: «الدهر يومان يوم لك ويوم عليك»[1].

إن ما تقوم به اللغة من توضيح وتفسير ما غمض من المفردات هو الذي يبقي جسر التواصل ممتدا بين مرسل الخطاب ومتلقيه فتكون الرسالة واضحة في ذهن الطرف الآخر فيسهل عليه بذلك فك شفراتها وفهم مقاصد مرسلها.

6- الوظيفة الشعرية Fonction Poétique:

وتسمى الوظيفة الإنشائية؛ تتمحور هذه الوظيفة على المرسلة من حيث هي نظام قائم بذاته[2]، وهي وظيفة أساسية للغة لما تضفيه من ديناميكية وحيوية على اللغة نفسها، وبدونها تصبح المرسلة اللغوية جسم ميت لا حراك له[3].

تظهر هذه الوظيفة في كل المقامات، إذ لا تكاد تخلو منها مقامة، ولعل السمة البارزة في هذه النصوص هي طابعها البلاغي، إذ تكمن بلاغتها في لغتها، إنها لغة أديب بارع، وفنان حاذق بصنعته، يتلاعب بالألفاظ كيفما يشاء بحيث يصيب المعنى من أقرب مرمى، ناهيك عن الإيجاز في الأسلوب، فتأتي جمله مقطعة تقطيعا متوازنا في الطول والإيقاع[4] من ذلك قوله:

«... فَعَدَّلْتُ مِيزَانَ عَقْلِي، وَعَدَلْتُ بَيْنَ جِدِّي وَهَزْلِي، وَاتَّخَذْتُ إِخْواناً لِلْمِقَةِ، وَآخَرِينَ للنَّفَقَةِ، وَجَعَلْتُ النَّهَارَ لِلنَّاسِ، وَاللَّيْلَ لْلكاَسِ»[5].

أما من ناحية البيان والبديع اللفظي فالمقامات مليئة بالتشابيه والاستعارات والكنايات والجناس والسجع والطباق والمقابلة، نحاول فيما يلي أن نمثل لكل لون منها.

---

(3) رابح خدوسي: قاموس العالم في الأمثال والحكم، ص101.

(2) ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وعلم اللغة، ص 173.

(3) نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، ص 100.

(4) إكرام فاعور: مقامات بديع الزمان الهمذاني على أحاديث ابن دريد، ص 56.

(5) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الخمرية، ص 267.

أ- التشبيه:

- «... المَاءَ مَا أَصْفَاهُ، أَزرَقُ كَعَيْنِ السِّنَّوْرِ، وَصَافٍ كَقَضِيبِ البِلَّوْرِ، اسْتُقِيَ مِنَ الفُرَاتِ، وَاسْتُعْمِلَ بَعْدَ البَيَاتِ، فَجَاءَ كَلِسَانِ الشَّمْعَةِ، فِي صَفَاءِ الدَّمْعَةِ...»[1].
- «كُنْ مَعَ النَّاسِ كَلاعِبِ الشِّطْرَنْجِ: خُذْ كُلَّ مَا مَعَهُمْ، وَاحْفَظْ كُلَّ مَا مَعَكَ»[2].

ب- الاستعارة:

- «حَتّى إِذَا مَالَ الكَلاَمُ بِنَا مَيْلَهُ، وَجَرّ الجِدَالُ فِينَا ذَيْلَهُ، قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ عُذَيقَهُ، وَوَافَيتُمْ جُذَيْلَهُ»[3].
- «بِمَتَانَةِ عَقْلِكَ، وَطَهَارَةُ أَصْلِكَ»[4] استعار المتانة للعقل والطهارة للأصل.

جـ- الكناية:

- «فَأَخَذْتُهُ مِنْهَا إِخْذَةَ خَلْسٍ»: كناية عن استغلال التاجر وجشعه/ «كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرِقُّ»: كناية عن الفقر[5].

د- الجناس:

- الرضراض، النضناض/ ملنا، نلنا/ القوم، النوم[6].
- الرجلة، الدجلة/ الزخارف، الطرائف/ رجلين، الأين[7].

هـ- السجع:

- «عِنْدِي رَجُلٌ مِنْ نِجَارِ الصُّفْرِ، يَدْعُو إِلَى الكُفْرِ، وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ»[8].
- «فَوَ اللهِ لَقَدْ تَرَكَنِي فِرَاقُهُ وَأَنَا أَشْتَاقُهُ، وَغَادَرَنِي بَعْدَهُ أَقَاسِي بُعْدَهُ»[9].
- «واجْتَمَعَ إِلَيَّ فِي بَعْضِ لَيَالِيَّ إِخْوانُ الحَلْوَةِ، ذَوُو المَعَانِي الحُلْوَةِ، فَمَا زِلْنَا نَتَعَاطَى نُجُومَ

(1) المرجع نفسه، المقامة المضيرية، ص 132.
(2) المرجع نفسه، المقامة الوصية، ص 235.
(3) المرجع نفسه، المقامة القريضية، ص 08.
(4) المرجع نفسه، المقامة الوصية، ص 233.
(5) المرجع نفسه، المقامة المضيرية، ص 127.
(6) المرجع نفسه، المقامة القزوينية، ص 102.
(7) المرجع نفسه، المقامة القردية، ص 113.
(8) المرجع نفسه، المقامة الصفرية، ص 261.
(9) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الشيرازية، ص 193.

الأَقْدَاحِ، حَتَّى نَفَدَ مَا مَعْنَا مِنْ الرَّاحِ»[1].

و- الطباق:

مداخلها ≠ خوارجها[2].

الذهاب ≠ الرجوع[3].

ليلي ≠ نهاري[4].

ز- المقابلة:

فيوما شـــرها في ≠ ويوما شرتي فيها[5].

وجعلت النهار للناس ≠ والليل للكـــأس[6].

وخذوا الصفو ≠ ودعوا الكدر[7].

برزت الوظيفة الشعرية في النصوص المقامية من خلال هذه الأساليب البيانية والمحسنات البديعية مما أضفت على الأسلوب عذوبة ورقة وحلاوة، وقد أحدث السجع رنة موسيقية تتعشقها الآذان وتطرب لها النفوس.

ولا نغفل في هذا المقام دور الأساليب الإنشائية من نداء وأمر واستفهام وما دلت عليه من تعجب ودعاء، ووعظ، ونصح وإرشاد، والتي تعمل على شد انتباه المتلقي وإقحامه في عالم النص الذي لا يخلو من روح الفكاهة والضحك والتسلية إما عن طريق الألغاز أو عن طريق الأحاجي، دون أن ننسى ما تتضمنه هذه النصوص من غايات تعليمية، إنها ذخيرة لغوية وموسوعة شاملة لكل فنون القول من نثر وشعر وقصص وطرائف ونكت.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نقول أن المقامات الهمذانية موجهة لكل قارئ في كل زمان وفي كل مكان نظرا لما تتصف به لغتها من حيوية وديناميكية.

---

(1) المرجع نفسه، المقامة الخمرية، ص 269.
(2) المرجع نفسه، المقامة المضيرية، ص 122.
(3) المرجع نفسه، المقامة الأسدية، ص 35.
(4) المرجع نفسه، المقامة الجاحظية، ص 87.
(5) المرجع نفسه، المقامة الأزاذية، ص12.
(6) المرجع نفسه، المقامة الخمرية، ص 269.
(7) المرجع نفسه، المقامة الوعظية، ص151.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تقدم تحليلا لنصوص مختارة من مقامات بديع الزمان الهمذاني، على ما لها من خصوصية باعتبارها نصا عربيا قديما، كما حاولنا الكشف عن الوسائل التي تحقق اتساقها وانسجامها وقد توصلنا بعد هذه الدراسة اللسانية النصية للنصوص المقامية إلى رصد مجموعة من النتائج نوضحها في النقاط الآتية:

1- لا تعنى الدراسات اللسانية النصية بالوقوف عند حدود النص والنظر في مكوناته السطحية، والقواعد التي تحكم هذه المكونات، بل وسعت من مجال بحثها لتنظر فيما هو خارج النص، وبالتحديد الاهتمام بمنتج النص ومتلقيه باعتبارهما شريكان في بناء النص، وكذا النظر في السياقات التي أنتجته.

2- تمكن كثير من الدارسين العرب في العصر الحديث من الاطلاع على المجهودات الغربية، قراءة وترجمة وتأليفا وفي هذا السياق لا يفوتنا أن ننوه بجهود كل من سعيد حسن البحيري وصلاح فضل ومحمد خطابي ومحمد مفتاح وإلهام أبو غزالة وعبد المالك مرتاض... وغيرهم كثير، ممن لم يألوا جهدا في خدمة البحث اللغوي بصفة عامة واللغة العربية بصفة خاصة.

وبإسقاطنا لمفاهيم النظرية اللسانية على النصوص المقامية المختارة توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

3- تعدد عناصر الاتساق في المقامات، فنتج عن ذلك أنماط نحوية ومعجمية وصوتية، تظافرت فيما بينها لتخرج المعنى أو الفكرة إخراجا خاصا.

4- وكما حدث اشتراك بين عمل عناصر الاتساق على اختلاف أنماطها في إطار واحد، فقد اشترك مع تلك المفاهيم الانسجام فعمل على ربط البنية العميقة للنص ربطا منطقيا.

5- أحالت أغلب العناصر الموجودة في المدونة إلى مرجوع واحد شكل النسيج الرابط لهذه النصوص، إنه بطل المقامات وصانع أحداثها أبو الفتح الإسكندري الذي شاركه في بعض الأدوار الراوي عيسى بن هشام والتي أحالت إليه الضمائر بنسبة أقل.

6- تباينت وسائل الاتساق في نسب ورودها في النص، فبينما زاد بعضها كالإحالة وخاصة الضميرية والعطف بالواو والفاء والتكرار بأنواعه، قل البعض الآخر من مثل: الحذف، الاستبدال، التضام وما يجدر الإشارة إليه أن هذه الأدوات لا تقاس بمعيارها الكمي، بل بمعيارها الكيفي أي مدى تحقيقها لترابط عناصر النص وتعبيرها عن مقاصد المؤلف.

7- إن توفر النص على وسائل للاتساق غير كاف وحده لتحقيق انسجامه؛ إذ لابد من وجود علاقات دلالية، ومنطقية كالسببية والعموم والخصوص وغيرها من العلاقات التي تعمل على تشكيل البنية الدلالية للنص.

8- كشف التحليل التداولي عن تعدد السياقات في هذه النصوص، وقد عملت هذه الأخيرة على إبراز خصوصية البنية النصية للمقامات، والمتمثلة تحديدا في استهلال المقامة بجملة " حدثنا عيسى بن هشام " وبروز شخصيتين رئيسيين تمثلت في الراوي والبطل إلى جانب الشخصيات الثانوية والتي حضرت بنسبة قليلة جدا، كما كشفت هذه السياقات عن طبيعة لغة المقامات، وما تتميز به من تصنع وتكلف ومبالغة في استخدام الألوان البيانية، والمحسنات البديعية.

9- بيّن السياق السابق للمقامات مدى تأثر بديع الزمان الهمذاني بالأحداث والصراعات الطبقية في البيئة العباسية، التي دفعت الكثير من الأدباء إلى التكدي لكسب قوت يومهم، فكانت الكدية من أبرز العوامل التي أدت إلى إبداع هذا اللون النثري.

10- أظهر التناص مدى تفاعل المقامات مع النصوص، وقد كثرت أشكاله بالأخص مع القرآن الكريم والشعر العربي، وهذا يدل على مدى تفاعل الكاتب مع التراث العربي القديم.

11- بإسقاطنا لنظرية الأفعال الكلامية على المدونة وجدنا أن الأساليب الخبرية وردت بكثرة، وهذا يتلاءم مع طبيعة المقامات ذات الطابع السردي، وتراوحت الأساليب الإنشائية بين الاستفهام والأمر والنداء، وقد خرجت عن معناها الحقيقي لتفيد أغراضا أخرى يحددها السياق منها: النصح والإرشاد، والوعظ والدعاء...

12- برزت في المدونة " الوظائف الخطابية الستة للغة "، وكان من أبرز هذه الوظائف، الوظيفة الشعرية التي عبرت عن الخصائص الجمالية للمدونة من استعمال للكنايات والاستعارات والتشابيه، وأشكال البديع من طباق وجناس وسجع، التي أكثر منها بديع الزمان إلى حد الإفراط.

13- إضافة إلى ما يتميز به النسيج اللغوي للمقامات من براعة في السبك وجودة في نحت الألفاظ، تكشف عن عبقرية ناظمها، حيث تخرج إلى غايات تعليمية ودلالات أخلاقية لا تخلو من روح الفكاهة والمتعة والتسلية، وهذه العوامل وغيرها هي التي جعلت هذا النوع الأدبي يستمر قرونا عدة، وينسج على منواله الكثير من الأدباء في المشرق العربي ومغربه.

14- بينت الدراسة أن موضوع المقامات لا يتصل بأدب الكدية فقط، وإنما هو موضوع مَسَحَ واقعا فكريا، ثقافيا، اجتماعيا لمذاهب إسلامية متباينة.

15- إن تطبيق المناهج التحليلية المعاصرة، يقدم قراءة أكثر عمقا لموروثنا الفكري، وهذا واضح فيما أبانت عنه هذه الدراسة النصية لموضوع المقامات.

قائمة المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم** برواية حفص عن عاصم، دار الفجر الإسلامي، دمشق، سوريا، ط3، 1983.

أولاً- الكتب العربية:

I- الكتب القديمة:

الباقلاني (الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيب ت 403هـ)

1. إعجاز القرآن، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، 2005.

التهانوي (محمد علي بن علي بن محمد ت 1185هـ)

2. كشاف اصطلاحات الفنون، وضع حواشيه أحمد حسن بسج، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت 469هـ)

3. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ت 255هـ)

4. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ت، د ط.

الجرجاني (السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني ت 816هـ)

5. التعريفات، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد ت 471هـ)

6. دلائل الإعجاز في علم المعاني، شكله وشرح غامضه وقدم له ووضع فهارسه ياسين الأيوبي المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 2002.

ابن جني (أبو الفتح عثمان ت 396هـ)

7. الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العصرية لتحقيق التراث، القاهرة، مصر، ط1، 1986.

الجوهري (أبو نصر اسماعيل بن حماد ت 393هـ)

8. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل الطريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

الحموي (ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحَمَوي ت 626هـ)

9. معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2.

الحنبلي (ابن عماد شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ت 1089هـ)

10. شذرات الذهب في أخبار من ذهب من 325هـ إلى 463هـ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ت 681هـ)

11. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق يوسف علي الطويل ومريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

الزركشي (بدر الدين بن عبد الله ت 745هـ)

12. البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، 1988.

الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ت 538هـ)

13. أساس البلاغة، قدم له وشرح غريبه وعلق عليه محمد الأحمد قاسم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

14. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

الزوزني (أبو عبد الله بن الحسين بن أحمد ت 375هـ)

15. شرح المعلقات السبعة، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

السكاكي (أبو يعقوب يوسف ت 626هـ)

16. مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987.

الشريشي (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي)

17. شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الشافعي ت 852هـ)

18. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مع تعليقات الشيخ ابن باز، اعتنى به محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، ط1، 1424، ج9.

العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ت 395هـ)

19. الصناعتين الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1989.

القرطاجني (أبو الحسن حازم ت 684هـ)

20. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحسين بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1981.

القلقشندي (أحمد بن علي ت 861هـ)

21. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري ت 711هـ)

22. لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، د ت.

الهمذاني (أبو الفضل أحمد بن الحسين ت 398هـ)

23. مقامات بديع الزمان الهمذاني، قدم له وشرح غوامضه الإمام الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2003.

II- الكتب الحديثة

إبلاغ محمد عبد الجليل

1. شعرية النص النثري، مقاربة نقدية تحليلية لمقامات الحريري، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002.

أحمد المتوكل

2. قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان، الرباط، المغرب، دط، دت.

3. الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985.

أحمد حسن الزيات

4. تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط8، 2004.

أحمد عفيفي

5. نحو النص، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط1، 2001.

إدريس بلمليح

6. القراءة التفاعلية دراسات لنصوص شعرية حديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.

الأزهر الزناد

7. نسيج النص (ما يكون به الملفوظ نصا)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

إكرام فاعور

8. مقامات بديع الزمان الهمذاني على أحاديث ابن دريد، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ط1، 1983.

إلهام أبو غزالة وعلي خليل الحمد

9. مدخل إلى علم النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط2، 1999.

أبو بكر جابر الجزائري

10. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

جميل عبد المجيد

11. البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1998.

جورجي زيدان

12. تاريخ الآداب العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1993.

حسام أحمد فرج

13. نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2007.

حنا الفاخوري

14. الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط3، 2003.

رابح بوحوش

15. الأسلوبيات وتحليل الخطاب، جامعة باجي مختار عنابة، د ط، د ت.

سعيد حسن البحيري

16. علم لغة النص مفاهيم واتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1997.

سعيد يقطين

17. تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005.

18. الرواية والتراث السردي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006.

19. من النص إلى النص المترابط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005.

سعيد يقطين وفيصل دراج

20. آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2003.

عبد السلام المسدي

21. قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، تونس – ليبيا، 1984.

صالح بلعيد

22. نظرية النظم، دار هومة، الجزائر، د ط، 2002.

صبحي إبراهيم الفقي

23. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2000.

صلاح فضل

24. بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس، 1992.

عبده الراجحي

25. التطبيق النحوي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

عزة شبل أحمد

26. علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2007.

عبد العزيز حمودة

27. المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس، 2001.

عصام خلف كامل

28. مفهوم الخطاب في الدراسات الأدبية واللغوية المعاصرة، دار فرحة للنشر والتوزيع، المنيا، مصر، ط1، 2003.

عمر عبد الواحد

29. التعلق النصي، دار الهدى للنشر، المنيا، مصر، ط1، 2003.

30. السرد والشفاهية دراسة في مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، مصر، ط2، 2003.

عمر فروخ
31. تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1968.
فايز الداية
32. علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية تأصيلية نقدية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1996.
فوزي عطوي
33. المتنبي شاعر السيف والقلم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1998.
عبد القادر شرشار
34. تحليل الخطاب الأدبي، منشورات دار اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، دط، 2006.
عبد الله إبراهيم
35. الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999.
عبد الله ابراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي
36. معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت، ط2، 1992.
عبد الله الغذامي
37. الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط4، 1998.
مارون عبود
38. أدب العرب مختصر من تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1979.
عبد المالك مرتاض
39. دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي "، لمحمد العيد، ديوان المطبوعات

الجامعية، الجزائر، د ط، 1992.

40. فن المقامات في الأدب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1988.

محمد خطابي

41. لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006.

محمد الطاهر بن عاشور

42. تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984.

محمد العبد

43. النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، مصر، ط1، 2005.

محمد محي الدين عبد الحميد

44. شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

محمد مفتاح

45. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 1992.

46. المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999.

47. النص من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999.

محمود أحمد نحلة

48. آفاق البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د ط، 2002.

مدحت الجيار

49. علم النص دراسة جمالية نقدية، كلية الآداب، ط1، القاهرة، مصر، 2005.

مسعود صحراوي

50. التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

مريم فرنسيس

51. في بناء النص ودلالته (محاور الإحالة الكلامية)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، دط، 1998.

مصطفى الشكعة

52. بديع الزمان الهمذاني، رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 2003.

مصطفى ناصف

53. اللغة والتفسير والتواصل، المجلس الوطني الكويتي، الكويت، 1995.

ميجان الرويلي وسعد البازغي

54. دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005.

ميشال زكريا

55. مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984.

نادر كاظم

56. المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

نايف خرما

57. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، ط2، نوفمبر، 1979.

نصر حامد أبو زيد

58. مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1996.

نعمان بوقرة

59. المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2003.

نواري سعودي أبو زيد

60. الخطاب الأدبي من النشأة إلى التلقي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2005.

عبد الهادي بن ظافر الشهري

61. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2004.

يوسف نور عوض

62. علم النص ونظرية الترجمة، دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 1410هـ.

63. فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1979.

III- الكتب المترجمة

أوزالد ديكرو وجان ماري سشايفر

1. القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2007.

جوليا كريستيفا

2. علم النص، ترجمة فريد الزاهي ومراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997.

دافيد صموئيل مارغليوث

3. دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة أحمد الشتناوي وابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

روبرت دي بوجراند وفلجانج دريسلر

4. النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1998.

روبول آن و موشلار جاك

5. التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ترجمة: سيف الدين دغفوسي ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

رولان بارت

6. نظرية النص، ترجمة محمد خير البقاعي ضمن كتاب آفاق التناصية – المفهوم والمنظور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، د ط، 1998.

7. لذة النص، ترجمة فؤاد الصفا وحسين سبحان، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988.

رومان جاكبسون

8. الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة علي الحاج صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002.

زتيتسلاف واورزيناك

9. مدخل إلى علم النص، ترجمة سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2003.

فان ديك نون

10. مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق سعيد حسن البحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001.

11. النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ط1، 2000.

فرانسواز أرمينيكو

12. المقاربة التداولية: ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي.

13. مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، ط1، 1998.

ثانيا- الكتب الأجنبية

- **Adam J. M.:**
1- Eléments de linguistique textuelle, Mardaga leige, Paris, 1990.
2- Linguistique textuelle des genres des discours aux textes, Éditions Nathan, Paris, 1999.
- **Charaudeau PATRIQUE et Mainguaeneau DOMINIQUE:**
3- Dictionnaire d'analyse du discours, Édition du seuil, Paris, Février, 2002.
- **De Saussure FERDINAND:**
4- Cours de linguistique générale, édition Talantikit, Bejaia, 2002.
- **Mainguaeneau DOMINIQUE:**
5- Les termes clés de l'analyses de discours, édition du seuil, Paris, Février, 2002.
- **Le PETIT Larousse 2003:**
6- Les mots de la langue, les noms propres, les cahiers thématiques inédits la chronologie, Larousse 2003.

ثالثا- المجلات والدوريات

- أعمال ملتقى اللغة العربية والمصطلح، منشورات جامعة عنابة، الجزائر، 2002.
- مجلة التواصل، جامعة عنابة، الجزائر، 2005، ع 14.
- حوليات الجامعة التونسية، العدد 38، تونس، 1995.
- مجلة الحياة الثقافية، وزارة الشؤون الثقافية، القصبة، تونس، العدد 36، 37، 1985.
- مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الخامس، العدد الأول (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر)، 1984.

رابعا- المواقع الإلكترونية

1- http: //www.al-eman.com/islamlib/
2- http: //hadith.al-islam.com/
3- http: //www.islamicmedicine.org/qazawaj2.htm
4- http: //seenjeem.maktoob.com/

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم: للأستاذ الدكتور عبد الوهاب شعلان	5
مقدمة	9
• القسم الأول: مقاربة نظرية في المفاهيم والمنهجية	74-13
تمهيد	14
أولا: تحديد المصطلحات	50-15
1- مفهوم النص	34-15
أ- النص في التراث العربي	15
ب- مفهوم النص بين التراث العربي والتراث الغربي	18
ج- النص في الدرس اللساني	20
2- مفهوم الخطاب	42-34
أ- الخطاب في التراث العربي	35
ب- مفهوم الخطاب في الدرس اللساني	37
3- علاقة الخطاب بالنص	45-43
4- علم النص	49-45
ثانيا: جدوى لسانيات النص	74-50
1- نظرة في الجذور التاريخية للعلم	50
2- التطور داخل مجال الدراسات اللسانية	52
3- الإسهامات العربية في مجال لسانيات النص	56
رابعا- أهمية الدراسة النصية	67

الموضوع	الصفحة

خامسا- مجالات تطبيق لسانيات النص 71

- **القسم الثاني: المقاربة التطبيقية – دراسة لسانية نصية لمختارات من مقامات بديع الزمان الهمذاني** 75-237

مدخل: شخصية بديع الزمان ودورها في الفن المقامي 77-88

أولا- شخصية بديع الزمان 81

1- المولد والمنشأ 81

2- رحلاته وتنقلاته 84

3- الهمذاني وفن المقامات 85

4- وفاته 87

5- آثاره 87

ثانيا- فن المقامات 88-94

1- المقامة في اللغة 88

2- المقامة البديعية أو الفنية 89

3- نشأة المقامة 90

4- الخصائص العامة لفن المقامة 92

الفصل الأول: ظواهر الاتساق والانسجام في المقامات المختارة 95-160

أولا: الاتساق 98

1- الاتساق النحوي 98

أ- الإحالة 98

ب- الوصل والفصل 110

ج- الحذف 120

الموضوع	الصفحة

د- الاستبدال 121
2- الاتساق المعجمي 124
أ- التكرار 125
ب- المطابقة 134
ثانيا: الانسجام 138
1- العلاقات 139
أ- الإجمال والتفصيل 139
ب- الأسماء العامة والخاصة 145
ج- علاقة السبب بالنتيجة 147
د- علاقة السؤال بالجواب 150
هـ- علاقة الشرط بالجواب 151
2- موضوع الخطاب 152
3- التغريض 157
الفصل الثاني: التداولية ونظرية أفعال الكلام ..... 161 – 237
أولا- نظرة في الجذور التاريخية للتداولية ..... 164 – 167
ثانيا- ضروب السياق في المقامات المختارة ..... 167 – 179
1- السياق المصاحب 168
2- سياق الموقف في العصر العباسي 169
3- السياق الثقافي للنماذج الفنية 173
ثالثا- التناص 79
1- التناص مع القرآن الكريم 180

الموضوع	الصفحة
2- التناص مع الحديث النبوي الشريف	184
3- التناص مع الشعر	185
4- التناص مع الحكم والأمثال	187
رابعا- ضروب الأفعال الكلامية في النماذج المقامية	215-190
1- الأفعال الدالة على الأحكام	193
2- أفعال القرارات	199
3- أفعال الإيضاح	205
4- أفعال السلوك	212
5- أفعال التعهد	213
خامسا: وظائف الخطاب في المقامات المختارة	237-215
1- الوظيفة التعبيرية	217
2- الوظيفة الإفهامية	221
3- الوظيفة المرجعية	225
4- الوظيفة الانتباهية	230
5- وظيفة ما وراء اللغة	233
6- الوظيفة الشعرية	235
• الخاتمة	240-238
• المصادر والمراجع	252-241
• الفهرس	256-253

من إصدارات مكتبة الآداب

مكتبة الأدب المغربي

تباع كتبنا لدى المكتبات الكبرى : دار المعارف - الأهرام - الأخبار - الهيئة المصرية العامة للكتاب - روزاليوسف ... ودار الأمم للكتاب ٢٨ شارع الدقي ت: ٣٣٣٥٩٧١٩

سامراء